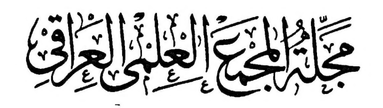




الجزء الاول – المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

شعبان ١٤٠٨هـ – آذار ١٩٨٨م





الجزء الاول ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

شعبان ١٤٠٨هـ ـ آذار ١٩٨٨م



مجلة المجمع العلمي العراقي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

توجه الرسائل والبحوث الى مدير التحرير

- **البحوث المنشورة في المجلة تعبر عن آراء اصحابها .**
- **المقالات لا ترد الى اصحابها نشرت او لم تنشر .**

العنوان : الوزيرية / بريد الاعظمية ص.ب ٤٠٢٣

بغداد ـ العراق

علم إنباط المياه الخفيّة عند العرب

و «كتاب عين الحياة في علم استنباط المياه» ومؤلفه (*)

الأستاذ محمد بهجة الأثري

(عضو المجمع)

(١)

عنصر الماء ، الّذي هو أحد العناصر الأربعة الّتي كان القدماء يظُنّون أنّ العالم مُرَكّبٌ منها ، هو مادّة الحياة ، وسرّ دوامها ما كتب لحيٍ من دوام ..

(*) تنبيه : يقال في اللغة : نَبَطَ الماءُ يَنبُطُ ويَنبِطُ نَبْطاً ونبوطاً ، نَبَعَ. واسم الماء الذي ينبطُ من قعر البئر اذا حفرت : النَّبَطُ ، والنُّبْطَةُ ، والنَّبِيطُ . وقد حكى أهل اللغة في تعدية فعله اللازم اربع لغات : نَبَطَهُ نَبْطاً ، وانبطه انباطاً ، واستنبطه استنباطاً ، ونَبَّطه تنبيطاً ، وهي تشترك في معنى واحد ، هو الاخراج أو الاستخراج ، غير أن بينها فروقاً دقيقة تُلحَظُ في تنويع صيَغها وفي الاستعمال الذي يقتضيه هذا التنويع . فأمّا (نَبَطَهُ) و (أنبطه) ، فهما الصق بالأشياء المادية ، واولها الماء . و (انبطه) أكثر من (نبطه) استعمالاً في الكلام ، وإيّاه آثر الحاسب المهندس الكَرَجيّ ، فاستعمل مصدره في تسميته كتابه (كتاب انباط المياه الخفيّة) . وأما (الاستنباط) ، ففيه معنى الطلب ، ومنه الحديث في احدى روايتين فيه : « ورجل ارتبط فرساً لِيَستَنبِطَها » ، اي : « يطلب ما في بطنها » ، وفيه معنى استخراج المعاني والآراء بالتفكير ، فيقال : استنبط معنى حسناً ورأياً صائباً ، واستنبط المسألة من العلم : استخرجها بالنظر في الأدلة ، واستنبط الفقيه الحكم الشرعي من الدليل ، وعليه الآية الكريمة « ٨٣/النساء » : (ولو رَدُّوهُ الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعَلِمَهُ الذين يستنبطونه منهم) ، اي : يستخرجون الرايَ الصحيح . وقد عده الزمخشري في أساس البلاغة من المجاز . واما (نَبَّطَهُ) ـ بالتضعيف ـ فيراد به المبالغة في الانباط . وقد آثرت في العنوان (الانباط) على (الاستنباط) للسببين المعللين المذكورين ، خلافاً لمؤلف هذا الكتاب . وقد استعمل (الاستنباط) بمعناه اللغوي ، ولم يلحظ ما لحظته من وجوه الفروق المعنوية واستعمالها في الكلام .

كلّ شيء حيّ من كوائن هذه الأرض ، مجعول منه (وجعَلْنا من الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) . وعند ينابيعه ، وعلى شواطيء أنهاره ، قام في الأرض العمران ، وازدهرت الحضارات ، منذ بدأ البشر يتجمّع ويتوحّد ، ويلتمس لسكناه أسباب الاستقرار ، ولمعاشه روافدَ الحياة وما تيسّره له من وسائل التّماسُك والنّماء . وبالماء يُروي غليله ، ويُزيح علله ، ويرتفق في شؤون الحياة ، ويسقي حيَوانه وغراسه وزرعه الّذي يتغذّى بأُكُله وثماره . ولذلك كان هذا الماء شغل النّاس الشّاغل ، يرتادونه حيث يكون ، ويَجِدّون في طلبه وتوفيره لايفتُرُون . واذا ضَنَّتْ به أرض على ناسها ، أو سالكيها ، نقّبوا عنه في بطنها وأنبطوه ..

وهذا الماء على سطح الأرض ، يؤلّف ثلاثة أرباعها ، أو أربعة أخماسها ، ولم يعدم بطنها في القِفار اليوابس والسَّباسب الجُرْد مقاديرَ عظيمة منه ، كما يُعْرَفُ ذلك في الصّحراء الغربيّة ، وسَيْناء ، وجزيرة العرب . فثَمَّ في بطون هذه الصّحارى وغيرها مستودعات ضخمة من المياه قارّةٌ أو جارية في الكظائم[١] ..

والعرب في قديم دهرهم وحديثه — وهم يُجَوّلون في قِفار جزيرتهم ، وتشتدُّ فيها حاجتهم الى الماء لشرب الشَّفَة وسقي السَّوائم — قد رزقوا فِراسة حاذقة يتعرَّفُون بها مكامنَ الماء في بطن الأرض ببعض الأمارات الدّالّة على وجوده ، وبُعدِه وقربه ، بشّم التُّراب ، أو برائحة بعض النّباتات فيه ، أو بحركة حيوان مخصوص .وقد سمّى العلماء معرفتهم هذه (علم الرِّيافة).[٢]

قال العلامة الآلُوسيّ : « وهو من فروع الفِراسة ، وهي موجودة في بعض أعراب (نَجْد)، وقد أخبرني بعض الثِّقات أنَّهُ شاهد بعض هؤلاء،

(١) ينظر بحثنا « خواطر وسوانح في مشكلات الماء .. » في مجلة الأكاديمية المغربية ج ١/م ١ .
(٢) مفتاح دار السعادة : طاشكبري زاده (٣٥٥/١) ط . مصر ، وبلوغ الأرب في أحوال العرب : محمود شكري الألوسي (٣٤٣/٣) ط ٣ ، مصر .

قال : يَضَعُ أُذُنه على الأرض ، فيخبر بما يتبيّن له من وجود الماء وعدمه ، وقُربه وبُعده . فاذا حفروا ، وجدوا الأمر كما وصف » .

وأقول : وقد سمعت « إذاعة الكُوَيْت » ، وأنا أكتب هذا ، تذكر رجلاً منهم في أيامنا هذه فاتني اسمه للمفاجأة وسرعة الكلام ، قد بلغ في هذه المعرفة مبلغاً عظيماً ، وأُنبِطت بدلالاته آبار كثيرة في أرض الجزيرة لم يخطىء في واحدة منها .

قال العلامة الأَلُوسيّ : « ويُسَمَّى مَن له هذه المعرفة اليومَ (النَّصّات) » . ولم تذكر معاجم اللغة (النَّصّات) ، وهو من مبالغات اسم الفاعل ، من : نَصَتَ الرَّجُل يَنْصِتُ نَصْتاً : سكت سكوتَ مستمع ، وأنصت — وهي لغة أعلى ، وبها جاء القرآن الكريم في آيتين : (قالوا : أَنْصِتُوا) «٢٩ — الأحقاف» ، (واذا قُرِىء القُرآن فاستَمِعُوا له وأَنْصِتُوا) «٢٠٣—الأعراف» . وانتصت : لغة ثالثة ، ومنها بيت الطِرِمّاح الآتي . وورد في (كتاب البُرْصان[٣]) لأبي عثمان الجاحظ : (المِنْصات) ، ولم تذكره معاجم اللغة كذلك ، وهو من أوزان مبالغة اسم الفاعل أيضاً ، قال الجاحظ : « ويُقال : إنّهُ لَمِخَشٌ ، وإنّه لَخِرّيتٌ : إذا كان دليلاً (مِنْصاتاً) » .

وهو (القِنْقِنُ) ، و (القُناقِنُ) بالضمّ ، وجمعه (القَناقِنُ) بالفتح . وقد عرَّفته دواوين اللغة بأنّه « البصير بالماء تحت الأرض » ، و « البصير بحفر المِياه واستخراجها » . و « الذي يسمع فيعرف مقدار الماء في البئر قريباً أو بعيداً » — من القَنّ ، وهو « التَّفَقُّدُ بالبصر[٤] » .

وقد وردت (القُناقِنُ) بالإفراد في خبر عن ابن عبّاس ، رضي الله عنهما : أنّه سُئِلَ : « لِمَ تَفقّدَ (سليمانُ) الهُدْهُدَ من بين الطّير ؟ قال : لأنّه كان (قُناقِناً) يعرف مواضع الماء تحت الأرض[٥] » .

---

(٣) البرصان / ص ٥١٠ .

(٤) تهذيب اللغة ، ولسان العرب : والقاموس المحيط ، وتاج العروس (ق/ن/ن)

(٥) لسان العرب ، وتاج العروس .

وورد (القَناقِنُ) بالجمع في شعر للطِرِمّاح بن حكيم (ت/نحو ١٢٥ هـ) ، قال :

يُخافِتْنَ بعضَ المَضْغِ من خَشْيَةِ الرَّدَى
ويُنْصِتْنَ للسَّمع انتصاتَ (القَناقِنِ)[٦]

و (القُناقِنُ) يقال له بالفرنسيّة « hydroscope , sourcier » وبالإنكليزية « dowser » ، و ((hydroscope)) أيضاً كالفرنسية .

ويقال لمن يقوم بالحفر وإنباط الماء (القَنّاءُ) .

وقد تطوَّرت هذه المعرفة الفِطرية عند العرب ، إبّانَ تفَجُّرِ ينابيع العلم في الإسلام ، وتَبَحُّرُ العلماء المسلمين فيه ، وإقامة الحضارة الإسلامية وعُمرانها على أسسه وقواعده ، فصارت بجهود علماء الرياضيّات والطّبيعيّات علماً محرَّراً ومُدَوَّناً ، وفنّاً تطبيقيّاً بالغ الدّقّة ، ارتقى به بعضهم الى اختراع موازين يَزِنُ بها ارتفاعات الأرض ، على النّحو الدّقيق الّذي اهتدى إليه وشرح صفته المهندس الرّياضيّ «الحاسب الكَرَجيّ» على ما سنأتي الإشارة إليه .

وبدأ العلماء المسلمون التّأليفَ في الماء في أواخر المئة الثّانية الهجريّة ، وقد تناولوا بحثه من نواحيَ مختلفة[٧] ، وأرقاها وأبلغها فوائدَ وعوائدَ ما ألفوه في « إنباط المياه الخفيّة » ، ولكن على قلّة مع الأسف .

ولعلّ أوّل كتاب في هذا الفنّ ، بلَغَنا خبره ، هو « كتاب علل المياه وكيفيّة استخراجها وإنْباطها في الأَرَضين المجهولة » .. ألّفه أبو بكر أحمد بن عليّ المعروف بابن وَحْشيّة ، من أهل المئة الثالثة والمئة الرّابعة(هـ) . وقد عرَفْنا من هذا الكتاب اسمه ، ولم يبلغنا عن وجوده في مَظِنَّةٍ مّا خبَرٌ .

---

(٦) ديوان الطرماح (ص ١٦٩) ، والمراجع السابقة .

(٧) مقدمتي لكتاب « الماء وما ورد في شربه من الآداب » : تأليف العلامة محمود شكري الألوسي ، طبعة « أكاديمية المملكة المغربية » .

ووضع فيلسوف العرب أبو يُوسُفَ يعقوب بن إسحاق الكِنْدِيّ . المتوفَّى نحو سنة ٢٦٠ هـ ، شرحاً على « كتاب في قَوْد المياه » ، أي : جَرِّها ، لفيلون البيزنطيّ .. ذكره أبو عمر أحمد بن محمّد بن حجّاج الاشبيليّ في كتاب « المقنع في الفلاحة » ، ونقل الى كتابه فصلاً منه « فيما يعرف به قربُ الماء من بُعده ، وحُلْوُه من مُرّه » ، وقال في صفته : « وهو أحسن كتاب أُلِّف في هذا الشَّأن ، ولابُدّ لمن أراد قَوْدَ ماء من موضع بعيد الى مدينة أو قرية أو نحوهما من تصفُّح هذا الكتاب ، لِما فيه من المنافع وقرب المأخذ » .

وفي المئة الخامسة الهجريّة ، أَلَّف المهندس الرّياضيّ أبو بكر محمّد بن الحسن الحاسب الكَرَجيّ ، المتوفَّى نحو سنة ٤١٠ هـ – « كتاب إنْباط المياه الخفيّة » . وقد عُثِر على نسختين منه في بعض خزائن الكتب في الهند ، وطبعته « دائرة المعارف العثمانيّة » في مدينة « حيدر آباد الدَّكَن » سنة ١٣٥٩هـ . وهو غاية في فنّه .. وصف فيه الحاسب الكَرَجيّ الأرض وعروقها ، وأبعاد المياه في جوفها ، وحواجزها ، وكيفية جَرَيانها منها مجرى الدَّم من بدن الحَيَوان ، وذكر الجبال والأحجار الدّالّة على الماء ، والنَّبات الدّالّ عليه ، وأنواع المياه واختلاف طعمها ، ووسائل إصلاح الفاسد منها ، وإزالة الملوحة من الماء المِلْح . ووسائلَ تصعيده من قرار البئر ، وأحوالَ « القَنّائين » وأَلْبِسَتَهم . والموازينَ الّتي توزن بها ارتفاعات الأَرَضين ، والوزن بها ، والموازين (الّتي اخترعها هو نفسه) ، وصفة الوزن بهذه الموازين ، وصفة حفر الآبار ، وحفظ الأَقْنِيَة من الخراب ..

وما بلغ علمي نبأ كتاب آخر في هذا الفن العزيز ألّفه عالم من علماء العرب بعد هذا الكتاب . إلا كتاب : (عين الحياه في علم استنباط المياه) . وقد وضعه مؤلّفه في سنة ١١٤٦ هـ ، أي بعد ٧٣٦ سنة مَضَيْنَ على وفاة الحاسب الكَرَجيّ مؤلف (كتاب إنباط المياه الخفيّة) ، وإنّما عرفتُ نبذاً من مسائل المياه الخفية منتشرةً في كتب علم الفِلاحة ،

لا تبلغ مبلغ مادّة كتاب الحاسب الكَرَجي . ولعَلَّ فاضلاً من الباحثين المطّلعين يعلم من أنباء كتب هذا الفنّ مالا أعلمه ، فيضيفه الى ما تهدَّيْت اليه وذكرته .

(٢)

وهذا الكتاب ، يتألّف من : مقدّمة ، وبابَيْن ، وخاتمة .

فأمّا (المقدّمة) ، فقد خصّها المؤلّف بأشياء تتّصل بطبيعة موضوع الماء ، ففسّر الاستنباط لغةً واصطلاحاً ، وتكلّم على العالَم والعناصر الأربعة الّتي كان القدماء يظنّون أنّ العالَمَ مركّب منها ، وهي : الماء والهواء والنّار والتراب ، معلّلاً وشارحاً خواصّها ونسبة بعضها الى بعض ، وذكر الرّياح الأربع وحدوثها وصفاتها ، وبيّنَ علاقاتها بالمياه في تجفيفها أو زيادتها .

وأمّا (البابان) ، فأحَدُهُما في تعريف المواضع الّتي فيها ماء ، والّتي ماؤها قريب ، والّتي ماؤها بعيد ، وما يستدلّ به على ذلك من أمارات ذكرها . والآخَرُ تكلّم فيه على حفر الآبار ، وطرائقه ، ووسائل معالجته ، وختمه بأقوال بعضها من الاعتقاد الباطل بالنّجوم والقمر ممّا يحكيه المُنَجِّمُون ، وبعضٌ آخَرُ من حكايات أهل الشّعبذة . وقد كان الخليق بالمؤلف ، إذْ شاء أن يذكرها ، أن يُفَنِّدَها ويذكر بطلانها وسُخفها كما ينبغي لمثله بعلمه الواسع وعقله الحصيف أن يفعل . وهذان البابان هما لُبّ موضوع الكتاب .

وأمّا (الخاتمة) ، فقد ضَمَّنَها ثلاثة مباحث : الأوّل في إيضاح ما تقدَّمَ مستمدّاً من « عجائب المخلوقات » وغيره ، وهو يتعلّق بالأرض وطباعها وطبقاتها وما يحيط بها من الماء والهواء ، وصفة الماء وأنواعه ، والأبخرة .. والمبحث الثّاني في بيان المعمور من الأرض ، وطوله وعرضه ، وطول البلد وعرضه . وقسمة الأقاليم الى سبعة ، وأثر الأقاليم في الأبدان والألوان والطّبائع والأخلاق .. والمبحث الثّالث عقده لبيان فضل العلم وأهله ، فذكر فيه بعض ما تواترت به الآيات والأحاديث والآثار على فضيلته والحثّ على

تحصيله ، كأنّه أراد منه أن يحفز همم الأُمّة على اكتسابه لتفيد منه في شؤون دنياها وآخرتها . فتعمر الأرض ، وتُنْبِط المياه ، وتَزْدَرِع ، وتغرس ما تتقوّتُ به ، وما يمدّ لها من أسباب الحياة الهانئة ، إذِ النّاموس المُقَرَّر في الإسلام : « إعْمَلْ لدنياك كأنّك تعيش أبداً ، واعْمَلْ لآخرتك كأنّك تموت غداً » .

وفي أثناء الكتاب وآخره ، وضع المؤلّف صوراً لِمَهابّ الرّياح ، وكرة الأرض ، والأقاليم السّبعة ، وغيرها .

ومادّة الكتاب في البابين المخصوصين بإنباط المياه ، مستفادة من كتب علم الفلاحة ، والمؤلّف يصرّح في فاتحته بأنّه « لم يقف على تأليف مستقلّ في هذه الصّناعة »—يعني صناعة «إنباط المياه الخفيّة»، « بل على نُبَذ منه ذكرت في علم الفلاحة استطراداً » ، ولم يخُصّ شيئاً منها بالتّعيين ، وإنّما ورد في الباب الأوّل ذكرُهُ (ابن وحشية) من علماء الفلاحة الأوّلين استطراداً .

ولاريب في أنّ جملة ماتضمّنَه هذا الكتاب في المقدّمة والبابَيْن والخاتمة ، هو من العلم النّافع الّذي عُنِيَ به الفلكيّون وعلماء الفلاحة . وتداولوه ، وظلّ موضع نظر ودرس واعتبار . على مسارِ رحلة العلم من زمن الى زمن آخر . ومن أوطان في الشرق الى أوطان في الغرب . لا تحجزه حدود مُغَلَّقة المنافذ . ولا تقيّده قيود .

ويدلّ تأليف هذا الكتاب في هـــذا الزّمن المتأخرّ . فيما تدُلُّ عليه جملة معانيه . على مبلغ تعلُّق علماء الإسلام على تعاقب العصور بعلوم الحياة دقيقها وجليلها ، يدرسونها . ويعلّمونها . ويؤلّفون فيها لا يفترُون .

*

ومؤلّف هذا الكتاب . العلامة الشّيخ أحمد بن عبدالمنعم الدَّمَنْهُوريّ المتوفى سنة ١١٩٢ هـ (وسأبسط لك ترجمته) . هو واحد من هؤلاء الأجِلاء الذين اتّصلُوا بعلوم الطّبيعيّات والرّياضيّات والعلوم الإنسانيّة . وفقهوها ،

وأحكموا بها ماحذقوه من علوم العربيّة والعلوم الإسلاميّة أصولها وفروعها ؛ لأنّها هي أيضاً من مطالب الإسلام . وقد عُرف هذا عنه في عصره وفي مصره وغيره ، فليس مستغرباً من مثله أن يؤلّف هذا الكتاب ، وإنّما المستغرب أن يلتمس منه تأليفَهُ فقيه متخصّص .. عاش دهرَهُ للفقه ، ووضع فيه كتاباً كبيراً في أربعة مجلدات ، ولم يؤثر عنه أنّه درس في وطنه تونس وفي الأزهر بمصر غير علوم العربية وعلوم الشّريعة الإسلاميّة ، وجُمّاع أحواله من بعد أنّ أمير بلاده (البـاي حسين بن علي تركيّ) استصفاه إماماً لصلواته الخمس ومعلّماً لأبنائه وخُدّامه .

وقد ذكر المؤلّف هذا الرَّجُلَ الفقيه وعظّمه في فاتحة الكتاب ، ونعَتَه بأنّه « واحد المحقّقين ، وقدوة العلماء المدقّقين ، عمدة المحصّلين لمذهب (النُّعمان) ... سيدي يُوسُف بن محمَّـد الزّاغونيّ ثمَّ التّونُسيّ الحنفيّ ، إمام سلطان الأمراء ... الباي حسين بن علي .. » .

ومنشأ الاستغراب من مثله في هذا المطلب ، هو بُعده عن تخصّصه ، والأمر الطبيعيّ من مثله أن يطلب تأليف كتاب في خاصّ علمه يزيل إشكالاً ، أو يحلّ عَويصاً ، أو يفصّل مجملاً ، لا كتاباً في علم إنباط المياه .

ويجلو هذا الاستغراب ما علمناه من صِلة الرَّجُل بأمير بلاده ، وماكان يدركه من حاجاته ومطالبه في العُمران . وقد كان هذا الأمير مؤسس الإمارة الحسينيّة بتونس ، وإليه نسبتها ، وكان حفيّاً بالعُمران جادّاً في نشره ، وفي طليعة مُتَطَلّباته هذا الماء ولزوم توفيره في الأرَضِينَ التي تخلو منه ، أو بها شحّ منه ، ولذلك دأب في توفيره ، وأنشأ الفوّارات والسّقايات ، وبنى المواجل والصّهاريج ، واستكثر من نشره . ومن هنا نشأ اهتمام الشيخ بمطالب الماء ، وحرص على تعرُّف طرق إنباطه ووسائله ، ليستعين بها هذا الأمير في نشر العُمران والخِصْب ، والنّاس على دين أمرائهم دواماً ولِزاماً .

*

وقد عرفت من هذا الكتاب ثلاث نسـخ في خزائن الكتب بمصر المحروسة ، ذكرها الباحثون ، وظفرت بنسخة مصورة عن واحدة منها .

١ — نسخة في المكتبة الخديويّة ، ضمن إحدى مجاميعها (المجموعة ٢٤ ، ص ٥٣ — ٧٤) ، ذكرت في مجلة المشرق « بيروت » ، م ١٣ .

٢ — نسخة ثانية بخط المؤلّف (مسوّدته) « ناقصة من آخرها ، وخالية من الأشكال المصـوَّرة ، في ١٥ ورقة ، ومسطرتها مختلفة ١٨—٢٤ سم » كما جاء وصفها في « فهرس المخطوطات المصورة » بجامعة الدُّوَل العربيّة. ص ٨١ — ٨٢ . ج ٣ العلوم ، القسم الرّابع : الكيمياء والطّبيعيّات .

٣ — نسخة ثالثة في الخزانة التّيموريّة بدار الكتب المصريّة ، ١٠٨ الطبيعيات ، كتبت في حياة المؤلّف . في آخرها : « قال مؤلّفه : الشّيخ الإمام العالم العلامة . خاتمـة المحقّقين ، وارث علوم سيّد المرسلين : شيخنا وأستاذنا الشّيخ أحمد الدّمنهوريّ ، نفع الله به وبعلومه المسلمين ، تحريراً في الثّاني من الثّاني من الخـامس من السّـادس من الخامس من الثّاني عشر من الهجريّة النّبويّة ، على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام » .

وأضاف النّاسخ بعد هذا قوله : « وكان الفراغ من تعليقها يوم الأربعا [ء] المبارك ثاني عشر جُمادَى الأولى سنة ١١٤٦ على يد الفقير الحقير الذّليل الى الله تعالى عبدالفتاح جاد المولى أبي الفتح الدّلجيّ الشّافعيّ ... » .

وهذا التّاريخ الصّريح هو توضيح لصورة التّاريخ المعقّد الّذي افتنّ المؤلف فيه ، ولم أر غيره استعمله مثله .

وهذه النُّسخة في ٣٨ صفحة ، مسطرتها ٢١ سطراً ، ١٤—١٢ سم .

وهي أتمّ من مُسَوَّدَةَ المؤلّف السّابقة . بها جداول ، وأشكال مصوّرة لِمَهابّ الرّياح والكرة الأرضيّة والأقاليم السّبعة وغيرها .

وهي مقروءة على المؤلّف . وعليها تصحيحات بقلمه . وقد فاته تصحيح أشياء كثيرة .

وقد ظفرت بنسخة مصوّرة من هذه المخطوطة في خزانة كتب (المجمع العلميّ العراقيّ) ، وعنها نسختُ بقلمي . وعليها أجريت تحقيقي لــه .

وقد وَثَّقْتُهُ بالأصول العاميّة المُحَرَّرَة ، وزدته شروحاً ومستدركات ، رَجاةَ أن يُنْتَفَعَ بها إن شاء الله تعالى .

(٣)

والمؤلّف هو أبو العبّاس ، أحمد ، بن عبدالمنعم ، بن يُوسُفَ ، بن صِيام[٨] — الدَّمَنْهُورِيّ . قال المؤرخ الجَبَرْتِيّ : « وقُرِئ نسبه (يومَ وفاته بعد الصّلاة عليه في الأزهر) إلى أبي محمّد البطل الغازي[٩] » .

والدَّمَنْهُورِيّ ، نسبة الى (دَمَنْهُور). وهو عَلَمٌ على أربعة مواضع بمصر ، ذكر ياقوت، في «معجم البلدان» اثنين منها ، وفي «المشترك وضعاً والمفترق صقعاً» ثلاثة ، كما ذكرها أبو الفداء في «تقويم البلدان» كذلك ثلاثة ، واستدرك علي مبارَك في «الخطط الجديدة» موضعاً رابعاً ، وهي : (١) « دمنهور الوحش» : قصبة كورة البحيرة من نواحي الإسكندريّة ، أضيفت الى الوحش ؛ لأن بقربها محلاً كان يسمّى بذلك . (٢) «دمنهور وَحْشِيّ »: من ناحية جزيرة قَوْسَنِيّا بين الفُسطاط والإسكندريّة ، قيل لها : «دمنهور وَحْشِيّ» ، للمغايرة

---

(٨) في سلك الدرر للمرادي ٢١٧/١ « خيام » بالخاء المعجمة ، وصوابه ما أثبت .

(٩) تاريخ الجبرتي ٢٨/٢ .

بينها وبين «دمنهور الوحش».(٣)«دمنهور شُبْرى»: قرية في كورة القليوبيّة بضواحي مصر القاهرة على الشَّطّ الشرقيّ للنّيل في شمال شبرى الخيمة نحو ميل، وتعرف أيضاً بدمنهور الشَّهيد. (٤)«دمنهور»: «قرية في إقليم أسيوط، بين بني شقر ومنفلوط ذات نخيل ومساجد». وهي التي استدركها علي مبارك.

فإلى أيّ من هذه المواضع الأربعة نُسِب المترجم له؟

أغفل مترجموه تعيينه وتخصيصه، وانفرد الجَبَرْتِيُّ، أو كاد، فعيّن نسبته الى الأولى، وسمّاها «دمنهور الغربيّة»، كأنّ اسم الموضع الأوّل «دمنهور الوحش» قد درس ولم يعرف في زمانه، وذكر التّسمية السّابقة ياقوت وأبو الفداء، وذكرها ابن حوقل ثم الإدْرِيسِيُّ مفردة غير مضافة الى الوحش. وكان اسمها الأقدم «تيم أنهور» أو «تمنهور»، ومنه اسمها الحاليّ «دمنهور». قال علي مبارك: «وكانت في الزّمن الأوّل ثمان بلاد»، وأفاض في الكلام عليها. وتقع هذه المدينة على خليج الإسكندريّة. وهي في الشرق والجنوب عن الإسكندريّة، وبينهما مرحلة «أي نحو من ٢٠ ميلاً»، وتقع على ضَفّة البحر المتوسّط. وبينهما مسافة، وذراع النّيل ينصبّ اليها من الذّراع النّازل من مدينة تنّيس. وكانت قاعدة إقليم البحيرة من عهد الفراعنة. وهي اليوم قاعدة محافظة البحيرة: مركز للمواصلات على سكة حديد القاهرة ــ الإسكندرية. سكانها مئة ألف نَسَمَة تقريباً. اشتهرت في العصر الإسلاميّ بنسيج الأقمشة الدّمنهوريّة الفاخرة، وكانت تحمل منها الى الجهات. واستمرّ ذلك إلى عهد محمّد علي «باشا». وتقوم بها اليوم صناعة حاج القطن. ونشأ فيها عدّة من الأفاضل والأعيان. ذكر الشّعْرانيّ في «الطبقات» ناساً منهم. وكان الشّيخ المترجم له أظهر رجال هذه المدينة وأبعدهم صيتاً في المئة الثانية عشرة الهجرية.

ولد فيها سنة ١١٠١ هـ، ونشأ يتيماً، لاوَزَرَ له.. وكان ذكيّاً فَهِماً، وفي نفسه طموح وعزم. ووجد في اكتساب العلم والتّحلّي بحليته ما يخرجه

من واقع حاله الى ما يطمح اليه من الرّفعة والمجد. والعلم بمصر مثابته «الأزهر» في القاهرة ، فنزح اليه صغيراً لم يكفله أحد ، فكفل نفسه بنفسه ، وأكَبَّ على العلم يتدارس أصوله وفروعه ، « وجَدّ في تحصيله ، واجتهد في تكميله » . وكانت له حافظة قوية تستوعب وتخزن ، وإرادة وعزم يحدوانه على المثابرة والمضيّ في الدّرس الى أبعد الأشواط ، فأوعب علوم « الأزهر » ومناهجه . وعلوم الأزهر هي علوم اللغة العربية : نحو ، وصرف ، وبلاغة ، ووضع ، وعروض ... وعلوم الشريعة الإسلامية : تفسير ، وقراءات ، وحديث ومصطلحه ، وكلام « عقائد » ، وفقه وأصوله ، وفرائض ...

واشتدّ ولعه بالفقه ، وكان الفقهاء يلتزم الواحد منهم فقه مذهب واحد بعينه ، لا يمدّ فكره الى غيره ، فبايَنَهم ، واجتهد في تَعَرُّف المذاهب الفقهيّة الأربعة المشهورة ، أصولها وفروعها ، وأجازه علماؤها بها ، وأفتى بها كلّها ، ولقب نفسه « المذاهبيَّ » ، وكتب في فواتح مصنَّفاته : « الدَّمَنْهُوريّ ، الحَنَفيّ ، المالكيّ ، الشّافعيّ ، الحَنْبَليّ » .

وعُني بعلوم الهندسة ، والمساحة ، والهيأة « الفلك » ، والميقات ، وصُنْع المَزاوِل[10] ، والحساب ، والجبر والمقابلة ، والمنطق ، والمُجَيَّب[11] ، والأَسْطُرلاب[12] ، وغير ذلك مما ذكره في ثَبَت

(١٠) المزاول : جمع مزولة ، آلة يعرف بها زوال الشمس .

(١١) فسر في كتاب مشيخة الأزهر (١٢٥/١) بأنه : « فرع السيمياء وهو استخراج الأجوبة من الأسئلة بارتباطات بين الحروف والكلمات » ، (وأحال على مقدمة ابن خلدون ، وليس للمجيب ذكر في مقدمة ابن خلدون) . والمجيب أو الربع الأيسر العلوي من (الأسطرلاب) ، ترسم عليه خطوط رأسية وأخرى أفقية ، وتدرج قوسه من الصفر الى تسعين درجة ، ويدرج نصفا قطريه من الصفر الى الواحد ، ويقرأ عليهما الجيب وجيب التمام من مسقطي رأس المضادة . وفيه كتب كثيرة .

(١٢) الأسطرلاب (يوناني معرب) : آلة فلكية يقاس بها ارتفاع النجوم في الأفق . وعند الملاحين آلة لقياس الزوايا. وقد فصلت الكلام عليه في تعليقاتي على : خريدة القصر / قسم شعراء العراق ج٣ ، م ٢ ، ص ١٢٥ و ١٣٧ .

مشيخته. وقد دوّن فيه ما قرأ من كتب، وأسماء الشّيوخ الذّين قرأ عليهم وأجازوه بها، وما طالعه هو بنفسه وحذقه ولم يتلقّه بالأخذ عن أحد، وهو ثبت طويل لخّصه الجبرتيّ. وممّا يلفت النّظر فيما ذكره، قوله: «.. وقرأت على الشّيخ محمّد الشّهير بالشحيميّ منظومة الحكيم، ومنظومة في علم الأعمال الرّصديّة، وروضة العلوم وبهجة المنطوق والمفهوم: لمحمّد ابن صاعد الأنصاريّ، وهو كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علماً، ورسالة في علم المواليد – أعني الممالك الطبيعية: الحيَوانات، والنّباتات، والمعادن».

وهذا الثبت وثيقة تاريخيّة مهمّة، ترفع السّتار عن الآفاق العلميّة الّتي كان العلمـاء الأزهريون يحوّمون عليهـا في عصر المترجم له، وتدحض الشّبهات الّتي تتّهمهم بالجمود والقصور وضيق الأُفق.

وقد اكتسب الشيخ الدّمنهوريّ من موارد علماء مصره جُلّ علمه، ونبغ. وأخذه الزّهْوُ بما ثقف من العلوم والفنون، وصار يتحدّى علماء عصره بما عنده منها. وقد جاء في بعض أخباره من هذا في تاريخ الجبَرْتيّ أنّه «وضع أسئلة خمسة. وأعطاها علي بك الكبير، وقال له: «أعطها العلماء الذين يتَردّدُون عليك. ليُجيبُوني عنها،إن كانوا يزعمون أنّهم علماء». فأعطاها علي بك الكبير والدَ المؤرّخ الجبرتيّ (الشيخ حسن وكان من العلماء). فقال: «هذه وإن كانت من عويصات المسائل بحيث يجيب عنها ولدنا الشيخ محمد النّفراويّ. فكلّفه الإجابة عنهـا، ففعل، وأجاب إجابة دلّت على رسوخه وسَعَة اطّلاعه وغوصـه ومعرفته بدقائق أذكياء الحكماء والمتكلمين[١٣]». وهذا شاهد آخر على مشاركة جميع علماء مصر في مختلف العلوم الإنسانيّة.

قال الجبرتيّ: إنّ الشّيخ النّفراويّ ألّف رسالة في هذه المسائل الخمس العويصة، وهي: (١) في إبطال الجزء الّذي لايتجزّأ. (٢) ما معنى قول ابن

(١٣) لخصت الجوابات في كتاب مشيخة الأزهر (١/١٢٨–١٣٠).

سينا : « ذات الله نفس الوجود المطلق ؟ » (٣) ما معنى قول أبي منصور الماتريديّ : « معرفة الله واجبة بالعقل ، مع أنّ المجهول من كلّ وجه يستحيل طلبه » ؟ (٤) ما معنى قول البرجيليّ : « إنّ مَنْ مات من المسلمين لسنا نتحقق موته على الإسلام » ؟ (٥) هل الاستثناء في الكلمة المُشَرَّفة (لا إلهَ إلا الله) متّصل أو منفصل » ؟ .

وقال الجبرتيّ : « وكان له دروس في المشهد الحسينيّ في [شهر] رمضان ، يخلطها بالحكايات وبما وقع له حتّى يذهب الوقت » .

ولم يذكر في ترجمته له قيامه بالتدريس في « الأزهر » ، وذكره عَرَضاً في ترجمته لتلميذه الشيخ عبدالله الشرقاويّ الشّيخ الثّاني عشر للأزهر ، قال : « وشدّ [الشيخ الشرقاويّ] رحاله الى الجامع الأزهر ، حيث درس على كثير من العلماء الأعلام ، مثل : الشّهاب الملويّ ، والشهاب الجوهريّ ، والعلامة للشيخ علي الصّعيديّ ، والشّيخ الإمام الحفنيّ ، والشّيخ الإمام الدّمنهوريّ » . والشّيخ الإمام الدّمنهوريّ قد ولي مشيخة الأزهر كما سيأتي خبره . ولم تكن هذه المشيخة للأزهر تسند إلا الى من درّس فيه ، وأفاد الطلاب ، وبرز واشتهر . وقد جاء في ترجمة الشّيخ محمّد بن عليّ الشّنوانيّ الّذي ولي مشيخة الأزهر بعد الشّيخ الشّرقاويّ مايؤكّدُ هذه الحقيقة ، وفيه طول ينظر في تاريخ الجبرتيّ .

ويظهر أنّ الشّيخ لم يطلب علمه في غير مصر من البلدان الإسلاميّة ، ولم يغادر مصر إلا مَرَّةً واحدة في سنة سبع وسبعين ومئة وألف . سافر الى الحجاز حاجّاً مع الرَّكْب المصريّ . قال الجبرتي : « وأتى رئيس مكّة وعلماؤها لزيارته ، وعاد الى مصر . وقد مدحه الشيخ عبد الله الأُدْكاويّ [١٤] بقصيدة يهنئه بذلك » ، وأورد منها أربعة أبيات .

(١٤) عبدالله بن عبدالله بن سلامة ، من أهل قرية (أدكو) قرب (رشيد) ، ويعرف بالمؤذن. ولد سنة ١١٠٤ هـ ، وتعلم بالقاهرة ، وتوفي فيها سنة ١١٨٤ هـ . له شعر ، ومؤلفات ، ومقامة في المجون . وترجمته في تاريخ الجبرتي ٣٥٢/١، وخطط علي مبارك ٥١/٨، والأعلام ٢٣٤/٤ ط ٢ ، وغيرها .

وفي أواخر سنة ١١٨٢ هـ ، وهو في الحادية والثّمانين ، ولي مشيخة الأزهر . ويعدّ صاحب هذا المنصب العلمي الدّيني الرّفيع أعظم فقهاء القطر المصريّ . وكان في عهد الخلافة العثمانيّة يقابل « شيخ الإسلام » في دار الخلافة « إسلامبول » . وقد ورد في بعض النّصوص التّاريخيّة ذكر « شيخ الأزهر » قبل بروزه الرّسْمِيّ على أثر الفتح العثمانيّ لمصر . وكان الشّيخ محمّد ابن عبدالله الخَرَاشيّ المتوفّى في ١١٠١/١٢/٢٧ هـ أوّل من ولي مشيخة الأزهر في عهد الخلافة العثمانيّة ، وهذه السنة هي سنة ولادة الشّيخ الدّمنهوريّ الذي كُتِبَ له أن يلي مشيخة الأزهر ويجيء ترتيبه الشّيخ العاشر . وكانت هذه المشيخة يتمّ اختيارها باتفاق شيوخ الأزهر فيما بينهم من غير تدخُّل الدّولة في اختياره وتعيينه . وخرج محمّد علي باشا على هذا « التّقليد » حين اختار علماء الأزهر الشّيخ المهديّ شيخاً للأزهر ، فأبطل اختيارهم ، وعيّن الشّيخ الشّنوانيّ . على زهد هذا الشّيخ في هذا المنصب ونزوله عنه للشّيخ البدويّ الهَيْثَميّ . وكانوا اذا أجمعوا على اختياره ، نهض الوالي فألبسه حُلَّةَ فَرْوِ سَمُّور ، إعلاناً بتعيينه[١٥] .

وقد ولي الشّيخ الدّمنهوريّ هذه المشيخة عقب وفاة الشّيخ التّاسع (وهو الشّيخ عبدالرّؤوف السّجينيّ) في شــوّال من سنة ١١٨٢ هـ وجاء في تاريخ الجبرتّي : أنّه « ولي المشيخة بعد وفاة الشّيخ الحفنيّ » وتابعه المراديّ في « سلك الدرر » . ونص تاريخ الجبرتيّ في «المطبوع » مُحَرَّفٌ ، بآية أن علي مبارك نقل في كتابه « الخطط الجديدة » ترجمة الشّيخ الدَّمَنْهُوريّ من هذا التّاريخ ، وفيه « السَّجينيّ » ، وهو الصَّحيح . ذلك أن الشّيخ الحفنيّ إنّما كان الشّيخ الثّامن للأزهر ، وتوفّي سنة ١١٨١ هـ ، فولي مَشْيخَتَهُ بعده الشّيخ السَّجينيّ ، ولم تطل مدّته فيها ، وتوفِّيَ في الرّابع من شوّال سنة ١١٨٢ هـ ،

(١٥) مشيخة الأزهر (١٨٢/١) .

فوليها بعده الشّيخ الدَّمَنْهُوريّ ، وظلّ شيخاً للأزهر الى وفاته مع انقطاعه عنه مدّة لم تحدَّد ، لمرضه . قال الجبرتيّ : « اجتمع الفقير [يعني نفسه] الى المترجم قبل وفاته بسنتين . ولمّا عرفني ، تذكّر الوالد وبكى وعصر عينيه ، وصار يضرب بيده على الأخرى ، ويقول : ذهب إخواننا ورفقاؤنا . ثمّ جعل يخاطبني بقوله : يا ابن أخي ! أُدْعُ لي . وظلّ منقطعاً بالمنزل . وأجازني بمرويّاته ومسموعاته ، وأعطاني برنامج شيوخه ، ونقلته » . قال : « ولم يزل حتى تعلل [يقصد اعتلّ] ، وضعف عن الحركة ، وتُوُفّي يوم الأحد عاشر شهر رجب من السنة ١١٩٢ هـ ، وكان مسكنه ببولاق . وصُلّي عليه بالأزهر بمشهد حافل جداً ، وقرئ نسبه الى أبي محمّد البطل الغازي ، ودفن بالبستان . وكان آخرَ من أدركنا من المتقدّمين[١٦] » .

هكذا خرج هذا اليتيم الصّغير ، الّذي كفل نفسه بنفسه ، من دنياه الى آخرته كبيراً معظَّماً مأسوفاً عليه ، بفضل هذا العلم الّذي جدّ في تحصيله فأدرك منه ما أدرك من الحظوظ الكبيرة ، وبفضل شمائل الأدب والتقوى الّتي تحلّى بها فطرةً ثم اكتساباً من البيأة العلمية الإسلاميّة ، وجسّدَها بالسّيرة الصّادقة الجادّة ، فعظمت منزلته وهيبته في النّفوس ، وأجلّتْه أمّته حيّاً وميّتاً .

« وقد كان قوّالاً للحقّ ، أمّاراً بالمعروف ، فهابته الأمراء ، واحترمه ولاة مصر ، وهو يتجمّع عن المجالس والجمعيّات ؛ وقصدته الملوك من الأطراف ، وهادته بهدايا فاخرة ، وهو سمح بما عنده من الدُّنيا[١٧] » .

وسمّى الجبرتيّ من الملوك الّذين هادوه السُّلطانَ مصطفى بن السُّلطان أحمد خان ، « وكانت له عناية بالعلوم الرّياضيّة والنّجوميّة ، ويكرّم أرباب المعارف ، فكان يُهادي الشّيخ الدَّمَنْهُوريّ ، ويُرْسل اليه الصّلات والكتب ، كما كان

(١٦) تاريخ الجبرتي (٢/٢٨) .
(١٧) تاريخ الجبرتي ايضاً .

يفعل ذلك مع الشّيخ حسن الجبرتيّ والد المؤرّخ عبدالرّحمن الجبرتيّ ، لتميّزه بالعلوم الرّياضيّة والفلكيّة[١٨] » .

وقد تجلّت مكانته في اختيار علماء مصر إيّاه شيخاً للأزهر ، وفي شهادة مؤرّخيه .

وصفه المؤرّخ الجبرتيّ بأنه « الشّيخ الإمام العلامة المتفنّن ، أوحد الزّمان ، فريد الأوان » .

وقال المؤرّخ محمّد خليل المرادي في «سلك الدُّرَر»[١٩] : هو « الشّيخ الإمام العلامة الأوحد ، آية الله الكبرى في العلوم والعرفان ، المُفْتَنّ في جميع العلوم معقولاً ومنقولاً ، أبو المعارف ، شهاب الدّين ... نسيج وحده في هذه الأعصار » .

وقال فيه الشّيخ التّاودي ، وحكاه عنه العلامة الشّيخ عبدالحيّ الكتّانيّ الإدريسيّ في «فهرس الفهارس والأثبات»[٢٠] : « بحر لا ساحل له ، وشيخ مالقيت مثله » .

وقال فيه الحوّات فيما حكاه العلامة الكتّانيّ أيضاً : هو « أعلم أهل عصره بالدّيار المصريّة في جميع العلوم النّقليّة والعقليّة » .

وقال الحافظ الزّبيديّ في «ألفيّة السَّنَد» له (وحكاه العلامة الكتّانيّ أيضاً) :

« إمام أهل العصر في المعارف . علامة الوقت مجير الخائف ،

نيطَتْ بــه رغبةُ كُلِّ راغبِ
في فَهْـــمِ فِقْـــهِ سائرِ المذاهبِ
وكـــم له من كُتُبٍ مُؤَلَّفَـــهْ
في كُلِّ فنٍّ قد غدت مشرّفَهْ »

(١٨) تاريخ الجبرتي .
(١٩) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١١٧/١) .
(٢٠) ج ٣٠٢/١ .

وقال فيه أيضاً : « وكان عالي الإسناد ، رفيع العماد ، ألحق الأحفاد بالأجداد ، ونزل النّاس بموته درجة ، إذْ هو آخر من كان بينه وبين الحافظ البابليّ واحد » .

وعقّب العلامة الكتّانيّ على هذا فقال : « وفي ذلك نظر ، لأنّه هو وأمثاله ممّن روى عن الزّعبليّ ، بينهم وبين البابليّ واحد . وابن عبدالله المغربيّ ، الّذي مات بعد المئتين ، يروي عن البابليّ بواسطة واحدة ، فاعلمه (نرويه) وكلّ ماله من طريق الحافظ مرتضى الزَّبيديّ ، والشّيخ التّاوديّ ، والشّنوانيّ ، وغيرهم — عنه ، وأخبرنا به الشّيخ موسى بن محمّد المرصفيّ المصريّ ، عن الشّمس محمّد الخنّابيّ الشّافعيّ ، عن أبي عليّ حسن بن درويش القويسنيّ ، عن أبي هريرة داوود بن محمّد القلعيّ ، عن الشّهاب الدّمَنْهُوريّ ، وربما روى عن الخنّابيّ القلعيّ شفاهاً » .

مؤلفاته

ألّف الشيخ الدّمنهوريّ في جُلّ ما ثقف من العلوم كتباً، يقول مؤرّخه الأوّل عبدالرَّحْمن الجَبَرْتيّ : « غالبها رسائل صغيرة الحجم ، منثورة ومنظومة » ، وقد « اطّلع على غالبها » ، وسردها أربعة وثلاثين ، ثمّ قال : « و [له] غير ذلك » .

وقال علي مبــارك في « الخطط[٢١] » : « مؤلّفاته كثيرة جداً » ، وردّد قول الجبرتيّ : « غالبها رسائل صغيرة الحجم ، منثورة ومنظومة » ، غيرَ أنّه لم يُسَمِّ منها أكثر من خمسة عشر كتاباً ، لاكتاب منها إلا وهو مذكور في تاريخ الجبرتيّ .

وسمّى محمّد خليل المُراديّ في « سلك الدُّرَر » ثلاثة من كتبه .

وكذلك فعل الشّيخ عبدالحيّ الكتّانيّ ، فذكر في كتابه « فهرس الفهارس

(٢١) الخطط التوفيقية الجديدة (ج ٣٥/١١) ، المطبعة الكبرى الأميرية ، ١٣٠٥ هـ .

والأثبات » ثلاثة منها أيضاً ، لكنّها غير الكتب الثّلاثة التي ذكرها المراديّ .

وذكر الأستاذ خير الدّين الزّركلي في « الأعلام » أسماء عشرة منها ، وقال : « له غيرها » .

وأثبت له الأستاذ علي عبدالعظيم في « مشيخة الأزهر » أربعين كتاباً ، اثنان منها وجدهما في دار الكتب بمصر ، يقول : « ليس فيهما اسم المصنّف » . هما : « شرح الأوفاق العدديّة » « وهو بحث في استنباط آفاق المستقبل من طريق الأعداد » ، و « كيفيّة العمل بالزّيارج العدديّة » ، وثالث سمّاه « الدُّرّة اليتيمة في الصَّنعة الكريمة (الكيمياء) »،ولم يذكر أين وجده اسماً أو رسماً ، والثّلاثة لم ترد في قائمة المؤرّخ الجبرتيّ ، فبقي ممّا تصحّ نسبته الى الشّيخ الدَّمَنْهُوريّ سبعة وثلاثون كتاباً ، وهي تزيد ثلاثة كتب على الأسماء الّتي سردها الجبرتيّ .

وحكى العلامة عبدالحيّ الكتّانيّ عن التّاوديّ قولاً له حكاه عن غيره بصيغة التّمريض . قال : «قال التّاوديّ : قيل إنّ عدّة تآليفه تقرب من تآليف السّيوطيّ » . ولم يعقب على هذه الحكاية بشيء ، وهي بعيدة عن الحقيقة . فإن تآليف السُّيوطيّ من الكثرة الثّابتة بمكان ، والعلامة الكتّانيّ نفسه يقول في موضع آخر من كتابه : « وقد ظفرت في مصر بكرّاسة من تـآْليف السُّيوطيّ . عدَّدَ فيها تآليفه الى سنة ٩٠٤ هـ — قبل سبعة أعوام من وفاته — أوصل فيها عدّة مؤلفاته الى (٥٣٨ كتاباً) » .

وقد كثرت الأقوال في عدّة تآليف السّيوطيّ عند حاجي خليفة في «كشف الظُّنُون» . واسماعيل باشا البابانيّ البغداديّ في كتابيه « إيضاح المكنون في الذَّيل على كشف الظُّنُون » . و « هدّية العارفين » . وكارل بروكلمان في « تاريخ الأدب العربيّ » . وألّف أحمد الشّرْقاويّ إقبال من فضلاء المغرب « مكتبة الجلال السُّيوطيّ » . أحصى فيه للسّيوطيّ (٧٢٥ كتاباً) غير المكرور والمنحول .

وقد أحصيت المعروف من كتب الشّيخ الدَّمَنْهُوريّ في مصادر ترجمته وبعض فهارس المخطوطات ، فبلغت (٤٢ كتاباً) .

وها هي ذي مصنَّفةً بحَسَب موضوعاتها ، ومنها ماخفي وجه موضوعه ، والى جانب كلّ كتاب منها المصادر الّتي ذكرته ، وقد رمزت الى كل واحد منها برمز .. وهي مع رموزها :

عجائب الآثار : للمؤرّخ عبدالرَّحمن الجبرتيّ (ع) .
الخِطط التّوفيقيّة الجديدة : لعلي باشا مبارك (خ) .
سلك الدُّرَر في أعيان القرن الثّاني عشر : لمحمّد خليل المراديّ (س) .
فهرس الفهارس والأثبات : لعبد الحيّ الكتّانيّ (فف) .
فهرس المخطوطات المصوّرة (فم) .
الأعلام : لخير الدين الزّركلي « ط ٢ » (أ) .
مشيخة الأزهر : لعلي عبدالعظيم (م) .

أ ــ العلوم الإسلامية :

١ ــ الفيض العميم في القرآن العظيم (أ) .

٢ ــ كشف اللثام عن مخدّرات الأفهام ، على البسملة (ع . م ــ وهو في م) : « كشف اللثام عن مخدرات الأفهام ، في البَسْمَلَة والحمْدَلَة . منه نسخة في المكتبة التّيموريّة ») .

٣ ــ تنوير المُقْلَتَيْن بضياء أوجه الوجه بين السُّورتين (ع . م) .

٤ ــ شفاء الظمآن بسرّ قلب القرآن (ع) ، وفي (م) : « شفاء الظمآن بسرّ يس قلب القرآن ، وهو شرح لمنظومة تتعلّق بسورة يس ، ذكرها أحمد بن ساعد[٢٢] في كتابه المسمّى بروض العلوم . منه نسخة

(٢٢) في تاريخ الجبرتي : « صاعد » بالصاد المهملة ، وقد أسلفت خبره في أثناء البحث .

خطيّة بدار الكتب ، رقم ٣٤٦ هـ ٢ ب » . وفي (س) : « و [له] شرح على أوفاق القرآن » ، ولعلّه هذا .

٥ ـ حسن التّعبير لما للطّيبة من التكبير ، في القراءات العشر (ع) ، وفي (م) : « طيِّبة النّشْر في القراءات العشر ، لابن الجزَريّ المتوفّى سنة ٨٣٣ هـ » .

٦ ـ خلاصة الكلام على وقف حمزة وهِشام (ع . م) .

٧ ـ نهاية التّعريف بأقسام الحديث الضّعيف (ع . خ . فف . أ . م) ، وفي (م) : « هو شرح لأربعة أبيات من ألفيّة العِراقيّ في مصطلح الحديث ، ومنه نسخة خطيّة بالتّيموريّة ، رقم ١٠٦٦ تيمور » .

٨ ـ الكلام السّديد في تحرير علم التّوحيد (ع . خ . م .) .

٩ ـ المِنَحُ الوفيّة في شرح الرّياض الخليفيّة ، في علم الكلام (ع . م) .

١٠ـ دُرَّة التوحيد ، منظومة في علم التّوحيد (م) .

١١ـ القول المفيد في شرح دُرَّة التّوحيد . وهو شرح للأرجوزة السّابقة ، وكلاهما مخطوط بدار الكتب ، رقم ٢٢٩١٠ ب (م) .

١٢ـ تحفة الملوك في علم التّوحيد والسُّلُوك ، منظومة في مئة بيت (ع.م) .

١٣ـ الفتح الرَّبّانيّ بمفردات ابن حَنْبَل الشّيبانيّ (ع.خ . فف . أ . م) .

١٤ـ طريق الاهتداء بأحكام الاهتداء والاقتداء ، على مذهب أبي حنيفة (ع . خ . م) .

١٥ـ فيض المنّان بالضّروريّ من مذهب النّعمان (ع . م) .

١٦ـ منع الأثيم عن التّمادي في فعل الكبائر (ع . م ـ وفيهما : على التمادي) .

١٧ـ حسن الإنابة في إحياء ليلة الإجابة ، وهي ليلة النصف من شعبان (ع . م) .

١٨- إقامة الحُجّة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة « فتوى » (ع . خ . م) .

ب - الأخلاق والسّياسة :

١٩- منهج السّلوك إلى نصيحة الملوك (ع . خ . أ . م - وفي ٢ ، ٣ ، ٤ : منهج السُّلوك في نصيحة الملوك) .

٢٠- سبيل الرشاد الى نفع العباد (أ . م) .

ج - علوم اللغة العربية :

٢١- إيضاح المشكلات من متن الاستعارات (ع) ، وفي (س) : « و[له] شرح على رسالة الاستعارات السَّمَرْ قَنْـدِيّة » ، ولعلّه هذا .

٢٢- منتهى الإرادات في تحقيق الاستعارات (ع . خ . أ . م) .

٢٣- الدّقائق الألمعيّة على الرِّسالة الوضعيّة (ع . خ - وفي خ « الرقائق » بالرّاء . م - وفيه : الدّقائق الألفيّة على الرّسالة الوضعيّة العَضُديّة للإيجيّ في علم الوضع) .

٢٤- حلية اللبّ المَصُون بشرح الجوهر المكنون (ع . خ) ، وفي (م) : حلية اللب المصون في شرح الجوهر المكنون ، في البلاغة . منه نسخة خطّية بالمكتبة التيمورّية » . وفي (أ) : « حلبة .. » بالباء المُوَحَّدة (تصحيف) .

د - علوم مختلفة :

٢٥- عين الحياهْ في علم استنباط المياه (ع . خ . أ . م . فم .) .

٢٦- القول الصّريح في علم التشريح (ع . خ . أ . م) .

٢٧- منتهى التّصريح بخلاصة القول الصّريح في علم التّشريح (فم . ج ٣ - ٢٥٣ - العلوم - قسم الطب - الكتاب الثّاني ، ١٠ ورقات : رواق الشّوام ، الأزهر ، ١٢٥٠ الطب) .

٢٨- منظومة في علم الطّبّ المُجرَّب - فم ٣-٢٥٩ ، ومجلة معهد المخطوطات - ثلاث ورقات .

٢٩- القول الأقرب في علاج لسع العقرب (ع.م) . وفي (م) : «.. لسَعْتَة » .

٣٠- الزّايرجة (م : « وهو شرح لكتاب كشف الرّان عن وجه البيان ، لمحيي الدين بن عربي ، في التصوّف واستطلاع أحداث المستقبل ») .

٣١- الزّهر الباسم في علم الطّلاسم (ع.م) ، وفي (م) : « هورموز سحرّية » .

٣٢- إيضاح المبهم في معاني السُّلَّم (ع.أ.س.م) ، وفي (س) : « شرح على سلّم الأخضر في المنطق » ، وفي (أ) : « إيضاح المبهم من معاني السلم » ، وفي (م) : « إيضاح المبهم من متن السُّلَّم ، وهو شرح على متن للأخضريّ في المنطق ، منه ثلاث نسخ خطيّة بدار الكتب - ٣٤٤٣ ج . ٣٤٥٦ ج ، ٤٣٣١ ج » .

٣٣- إحياء الفؤاد بمعرفة خواصّ الأعداد (ع . خ . م) .

٣٤- عِقد الدُّرَر بما للمثلّث من الفوائد (م - رتّبه على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة في فضل العلم ومزدوجاته . منه نسختان مخطوطتان بدار الكتب - (رقم ٢٧ ش . ٢٨ ش) .

٣٥- الأنوار السّاطعات على أشرف المربّعات ، وهو الوفق المئينيّ (ع . م) .

٣٦- الدُّرَّة اليتيمة في الصَّنعة الكريمة « الكيمياء » (م - لم يذكر مصدره) .

٣٧- حِلية الأبرار فيما في اسم عليّ من الأسرار (ع . م) .

٣٨- بلوغ الأرَب في اسم سيّد سلاطين العرب (ع . خ . م) .

٣٩- اللطائف النُّوريّة في المِنَح الدَّمَنْهُوريّة ، وهو ثبت مشيخته والكتب الّتي قرأها (ع . فف . م) . وفي (م) : «منه نسخة بدار الكتب - رقم ١٣١ مصطلح الحديث ، ٥٤ ورقة » . وفي (رقم ج ٢ - ٢٢٤ التّاريخ القسم الأوّل) .

٤٠– إرشاد الماهر الى كنز الجواهر (ع . م « لم يُحَدَّدْ موضوعه ») .

٤١– الحَذاقة بأنواع العلاقة (ع.م « لم يُحَدَّد موضوعه ») .

٤٢– إتحاف البريّة بمعرفة العلوم الضَّروريّة (ع . م) .

رحم الله الشيخ العلامة أحمد بنَ عبد المنعم الدَّمَنْهُورِيَّ ، وأجزل مَثُوبته .

المُعجَمُ الّذي نَطمَحُ إليَه

الشيخ محمد حسن آل ياسين
عضو المجمع

حظيت المكتبة العربية خلال اثني عشر قرنا من عصور التأليف بعدد وافر من المعجمات اللغويّة المعنيّة بجمع المفردات وتنسيقها وتفسيرها ، مع الاستشهاد على مداليلها بما يثبت ذلك ويؤكّده ، من نصوص القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والأقوال المأثورة ، والأمثال السائرة ، والشعر الأصيل . مضافاً الى ما يستتبع ذلك من بحث وتدقيق في كلّ مفردة منها ، من حيث تعيين جذرها أصلاً وتركيباً . وعرض ما صحّ من صورها وصيغها تفريعاً واشتقاقاً . وتبيين ما طرأ على بنيتها نحواً وصرفا ، وتمييز أصيلها من دخيلها ، وعربيّها من مُعَرّبها ، وفصيحها من عاميّها ، بل فصيحها من أفصحها أيضاً .

وأصبحت اللغة العربية – بفضل هذا المعلم الحضاري البارز – في طليعة لغات الأرض سعةً وثراءً وامتيازاً ، إن لم تكن الوحيدة المتفردة بينها بتملُّك مثل ذلك العدد الكبير من المعجمات ، وبالحفاظ من خلالها على تلك الأصالة العريقة والنقاء المدهش طوال عمرها المديد الضارب في أعماق التاريخ . فلم تأذن بتغلغل الدخيل فيها الاّ بعد النصّ على كونه دخيلاً ، ولا بتسرّب الفاسد والملحون اليها الاّ مع التنبيه على فساده واللحن فيه . على الرغم من ذلك الاختلاط الواسع بين أبنائها وأبناء اللغات الاخرى تحت ظلال الاسلام ، وعلى الرغم – أيضاً – من تلك الموجات العنيفة المتتابعة من الاحتلال والاستعمار والهيمنة الأجنبية عليها في ظروف الضعف والانحطاط والتخلف .

واذا كان هناك ما يمكن أن تؤاخذ به تلك المعجمات اللغوية التراثية — بمجموعها المبتدئ بكتاب « العين » والمنتهي بـ « تاج العروس » — أو يحدّ من الاستفادة منها والرجوع الدائم اليها ، فهو اختلافها الكبير في التنظيم والتبويب والمنهج والترتيب ، وإنْ كُنّا لا نرى في هذا الاختلاف ما يمكن أن يُسمّى عيباً أو مثلبة ، بل هو ظاهرة سلامة وصحة ؛ ودليل وعيٍ وتطور ، وقد حدث ويحدث مثله في معظم ميادين المعرفة وحقول البحث العلمي .

ولكنّ الموضوعية تفرض علينا — بعد التسليم بصحة ذلك التعدد وسلامته — أن نعترف بأن عدم اتفاق هذه المعجمات على نظامٍ واحد ؛ وعدم خضوع الكل لمنهج محدّد ؛ وعدم الالتزام بطريقة موحّدة فيها جميعاً ، قد جعل أمر الاستفادة منها أو من بعضها ممّا يفوق الخبرة السطحية لجمهور القراء والمراجعين وقدرتهم على استخراج المفردة بسهولة ويسر . بل ليس لديهم من وسيلة تذلّل لهم هذه الصعوبة وتختصر الزمن سوى الوقوف على تلك المناهج والعلم التامّ بما لكل واحدٍ أو مجموعة منها من طريقة في الترتيب ؛ ونظام في السرد والتسلسل ، ليتسنّى لهم الرجوع في هذه المفردة أو تلك ؛ الى هذا المعجم أو ذاك . ويكون على من أرادَ النظر في كلمة (باب) ومشتقاتها — مثلا — أن يعلم أنها قد وردت في اواخر « العين » و « التهذيب » وأوائل « الجيم » و « المقاييس » ، أي ان عليه أن يرجع الى الجزء الثامن من « العين » والخامس عشر من « التهذيب » والأول من « المقاييس » .

وبغير هذه المعرفة الواعية الوافية بمناهج المعجمات وطرق تبويبها المتعددة ؛ لا يمكن تحديد مكان الكلمة المبحوث عنها في كل واحدٍ منها بالسرعة المطلوبة .

★ ★ ★

ومن الجدير بنا — استكمالا لحق البحث ووضوح الرؤية — أن نستعرض تلك المناهج والأنظمة باختصار وايجاز فيما يأتي :

المنهج الأول :

منهج الخليل بن أحمد في كتاب « العين » ومَن اهتدى بهديه من بعده كالأزهري في « التهذيب » والصاحب بن عبّاد في « المحيط » وابن سيدة في « المحكم » . ويُعَدُّ من أبرز معالمه ترتيب الأبواب على نظام أصوات الحروف ومخارجها ، وهو النظام الذي صنَّف الخليل في ضوئه الحروفَ العربية بحسب تلك الأصوات والمخارج الى مجموعات تتسلسل على النحو الآتي :

ع ، ح ، هـ ، خ ، غ – ق ، ك – ج ، ش ، ض – ص ، س ، ز – ط ، د ، ت – ظ ، ذ ، ث – ر ، ل ، ن – ف ، ب ، م – و ، أ ، ي ، ء – .

ويقوم هذا المنهج – كذلك – على تقسيم المفردات في داخل كل حرفٍ على الأبنية ؛ بدءاً ببابِ الثنائي الصحيح وانتهاءً بباب الخماسي ، وعلى ذكر تقليبات الكلمة والنصِّ على المستعمل منها والمهمل . فاذا ورد في الحرف الأول من الكتاب – وهو حرف العين – تركيب العين والسين والميم أي « عسم » وردت معه تقليبات تلك الكلمة « عمس » و « سمع » و« سعم » و « معس » و « مسع » . فيُشْرَح منها المستعمل . ويُنَص على المهمل الذي لم تستعمله العرب ولم يرد فيما أُثِرَ من كلامها .

المنهج الثاني :

منهج ابي عمرو في كتاب « الجيم » . وليس فيه من التزام سوى الترتيب على الحروف الاولى من الكلمات ومراعاة التسلسل الألفبائي في ترتيب الحروف في الكتاب . أي انه يبدأ بما أوّله الهمزة ثم بما أوّله الباء ثم التاء ؛ الى آخر الحروف . ولكنه لم يُراع الترتيب الألفبائي في الحرف الثاني والثالث من الكلمات . بل جمع كلَّ ما أوله الهمزة في باب الهمزة ؛ فبدأ بكلمة «الأوق» ثم « الألب » وختم بـ « الأتان » ثم « الادة » (١) .

(١) وفي الكتاب مفردات وضعت في غير مواضعها ؛ كأن نجد كلمة أولها الباء في حرف الميم مثلا ، ولعل ذلك من عمل الوراقين والناسخين .

المنهج الثالث :

منهج ابن دريد في جمهرته ، ويشكّل النمط التوفيقي بين منهجي الخليل وابي عمرو ، ويقوم في أساسه على الترتيب بحسب تسلسل حروف الهجاء من حيث أوائل الكلمات مع التقسيم بحسب الأبنية ، فيبدأ بالثنائي منها مرتّباً على الحروف « أبّ» « أتّ » « أثّ » الخ ؛ ثم « بتّ » « بثّ » « بجّ » ، ولكنه عندما يورد هذه الموادّ يورد معها معكوسها في الثنائي وتقليباتها في الثلاثي كالخليل ، إذ يرد « تبّ » بعد « بتّ » و « جبّ » بعد « بجّ » ، وهكذا .

المنهج الرابع :

منهج ابن فارس في مقاييسه ، وهو منهج يعتمد الترتيب الألفبائي للحروف بملاحظة أوائل الكلمات بلا عكس ولا تقليب ؛ مع التقسيم على الأبنية -- الثنائي ثم الثلاثي ثم مازاد على ثلاثة — في داخل كل حرف ، فيبدأ الكتاب بحرف الهمزة — أي ما أوله الهمزة — ثم حرف الباء فالتاء الخ ، ولكن ابن فارس قد اختار نظاماً خاصاً لتسلسل المفردات داخل الحرف ، وهو أنْ لا يُورد بعد الحرف الأول من الكلمة الا الحرف الذي يليه ، فكان ذلك نسقاً مُمَيَّزاً انفرد به ، فنراه في حرف الجيم — أي فيما أوله الجيم — مثلاً لا يبدأ الثنائي منه بـ « جأْ » ثم « جب » فـ « جت » كما هو المتوقّع ، وانما كان البدء بـ « جح » لأن الحاء تلي الجيم في ترتيب الألفباء ثم « جخ » حتى يصل الى « جو » وبعده « جأ » فـ « جب » الخ .

المنهج الخامس :

منهج الجوهري في صحاحه ، وتابعه عليه كلٌّ من الصغاني في التكملة والعباب ، وابن منظور في لسان العرب ؛ والفيروز اباديّ في القاموس ؛ والزّبيدي في تاج العروس ، فكانَ بذلك هو الأشيع والأوسع انتشاراً بين المعجميين . ويقوم في مجمله على الترتيب بحسب تسلسل الحروف الهجائية

ولكن بملاحظة آخر الكلمات ، إذ يكون ما آخره الهمزة في حرف الهمزة وما آخره الباء في حرف الباء ؛ مع إهمال تقسيمات الأبنية ، ومع الالتزام التام الدقيق بتسلسل التراكيب من حيث الحرف الأول والثاني والثالث داخل كل باب ، فتكون البدأة في حرف اللام مثلاً — أي فيما آخره لام — بـ «ابل» فـ «اتل» فـ «اثل» فـ «اجل» الخ .

المنهج السادس :

منهج الزمخشري في أساسه والفيومي في مصباحه ، وهو الترتيب على تسلسل الحروف الهجائية بمراعاة أول الكلمات ، كمنهج ابي عمرو في الجيم ، ولكنه يمتاز على منهج ابي عمرو بمراعاة التسنسل فيما بعد الحرف الأول أيضاً ، إذ يكون البدء بـ «أبب» فـ «أبت» فـ «أبث» حتى ينتهي حرف الهمزة بـ «اين» فـ «ايه» فـ «أي ي» .

★ ★ ★

ولم يكن موضوع المناهج وطرق التبويب هو الموضوع الوحيد الذي اختلفت فيه تلك المعجمات . وانما اختلفت — كذلك — في جوانب اخرى رئيسة قد تكون أكثر التصاقاً وأعمق ارتباطاً بصميم هدفها الذي تسعى اليه ؛ من حيث تحديد معاني الألفاظ والاستدلال على صحة تلك المعاني بما يثبت ذلك ويؤكده .

ويأتي في مقدمة تلك المسائل ما يورده المعجميون من الشواهد — حديثاً أو قولاً او شعراً أو مثَلاً — ليبرهنوا بها على تفسير لفظٍ أو صحة استعمالٍ أو سلامة اشتقاق . وقد اختلف رواة هذه الشواهد في كثيرٍ منها اختلافاً كبيراً جداً : في لفظ النصِّ تارةً ؛ في كلمةٍ منه أو أكثر ؛ وقد يصل الخلاف الى فقرة كاملة أو شطر بيتٍ او مشطورٍ بتمامه . وفي الضبط تارة اخرى . وفي القائل او الناظم ثالثة . وفي تصحيح النسبة وتوثيقها رابعة .

ومن هنا يكون من المحتَّم على الراغب في الاطمئنان الى صحة أيِّ شاهدٍ

منها أن يراجع تلك المعجمات بأجمعها ؛ للوقوف على كلِّ ما قيل فيه لفظاً وضبطاً ونسبة وتوثيقاً .

وكذلك الأمر في كثير من ألفاظ الأعلام والالقاب والبلدان والقبائل ، تضاربَ آراءٍ ؛ وتعدُّدَ أقوال ؛ وكثرة رواةٍ وروايات .

ويُضاف الى هذا كلِّه ما أورده المتأخرون من التنبيه على تصحيفات مَنْ سبقهم من المعجميين جيلاً بعد جيل ، مما يجعل الباحث مضطراً الى الوقوف على جميع المعجمات للتأكد من صواب ما هو بصدد معرفته ؛ والوثوق بعدم طروِّ التصحيف عليه .

★ ★ ★

والنتيجة المستخلصة من ذلك كلِّه ان المعجمات العربية التراثية – ومجموعها يزيد على مائة مجلد – خضمٌ واسع بعيد الغور صعب المراس ، وليس من اليسير على غير الممارسين والعارفين – وجُلُّ المثقفين المعاصرين من هذا القبيل – أن يرجعوا اليها كلَّما دعتهم الحاجة الى المراجعة ، وفي ذلك ما فيه من خسارة لهم وحرمان . وقد يتجرَّأ بعضهم على الاقدام والتجربة فلا يحظى بمراده الاّ بعد بحث وجَهد .

وربما يخيَّل لبعض الناس ان باستطاعة الفهارس المفصَّلة العامَّة أن تحلَّ هذه المشكلات وتحقِّق الأمل المنشود ، وقد يبدو ذلك من الناحية النظرية صحيحاً ومقبولاً ؛ غير أن التجربة العملية قد أثبتت ان هذه الفهارس لم تقدِّم العلاج الناجع ولم تحقق المراد كاملاً وإن خفَّفت الأعباء ويسَّرت الجهود بقدرٍ لا يُستَهان به . ويكفينا أن نعلم ان هذه الفهرسة مهما بلغتْ من دقة واستيعابٍ ومهما ذلَّلتْ من عقبات وصعاب ؛ لن تستطيع التغلب على عقبة مراجعة فهارس جميع المعجمات وهي كثيرة العدد كبيرة الحجم ، ثم عقبة الرجوع الى كل معجم منها بعد تعيين الجزء والصفحة ؛ للوقوف على اللفظ المطلوب .

واذا كان ابن منظور قد أدرك بعقله الثاقب وفكره النيِّر جسامة تلك الصعوبات وضرورة تيسيرها وتبسيطها بالقدر الممكن ؛ فبادر الى جمع عددٍ من المعجمات في كتابٍ واحد سماه (لسان العرب) فكان الرائدَ السبّاق في هذا المضمار ، ثم تابعه الفيروز ابادي على ذلك فجمع بين معجمين في (القاموس المحيط) فكان التالي والأخير . فان ذلك لم يحل المشكل على نحو شاف وشامل ؛ ولم يسد الحاجة كما يتمنى جمهور القراء والطالبين ، وحسبنا أن نعرف انهما لم يستوعبا المعجمات كافة ؛ وان أولهما قد أهمل التمييز بين النصوص المجموعة في كثير من الأحيان ؛ وان ثانيهما لم يميِّز مطلقاً .

ومن هذا يتضح ان الحل الأوحد الذي يضمن الفائدة الشاملة والمراجعة الميسَّرة ، ويوفِّر الوقت والجهد ومدة البحث ، هو جمع معجمات العربية كلها في معجم واحد ، يضمُ أشتاتها ضماً تاماً أميناً لا زيادة فيه ولا نقصان ، ويعرضها على طلاّبها وقرّائها بنسقٍ مبسَّط ونظام موحَّد . مع الحفاظ الكامل على ما لكل معجم منها من ذاتيَّة خاصة ووجود متميز ، صيانةً للتاريخ اللغوي في تسلسله الطويل ولاولئك اللغويين الأفذاذ — على امتداد ذلك التاريخ — من الذوبان والنسيان .

وسيضم هذا المعجم — عندما يرى النور — المعجمات الآتية :

١ — العين : لأبي عبد الرحمن الخليلِ بن أحمد الفراهيدي ، المولود سنة ١٠٠ هـ والمتوفى في أشهر الروايات سنة ١٧٥ هـ .

٢ — الجيم : لاسحاق بن مرار الكوفي المنسوب الى بني شيبان ، والمشهور بأبي عمرو الشيباني ، المولود بعد سنة ١٠٠ هـ ، والمتوفى ببغداد سنة ٢١٣ هـ في أرجح الأقوال .

٣ — جمهرة اللغة : لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري ، المولود في البصرة سنة ٢٢٣ هـ والمتوفى ببغداد سنة ٣٢١ هـ .

٤ — تهذيب اللغة : لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري الهَرَوي ، المولود سنة ٢٨٢ هـ والمتوفى سنة ٣٧٠ هـ .

٥ — المحيط في اللغة : للصاحب ابي القاسم اسماعيل بن عبّاد ، المولود سنة ٣٢٦ هـ ، والمتوفى سنة ٣٨٥ هـ .

٦ — مقاييس اللغة : لأبي الحسين احمد بن فارس بن زكريّاء بن حبيب الرازي ، المتوفى سنة ٣٩٥ هـ في أرجح الأقوال .

٧ — الصحاح « تاج اللغة وصحاح العربية » : لأبي نصر اسماعيل ابن حماد الجوهري ، المتوفى بعد سنة ٣٩٦ ، حوالي سنة ٤٠٠ ه .

٨ — أساس البلاغة : لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ، المولود سنة ٤٦٧ هـ ، والمتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

٩ — العباب الزاخر واللباب الفاخر : لرضيّ الدين ابي الفضائل الحسن ابن محمد بن الحسن الصَّغَاني ، المولود سنة ٥٧٧ ه ، والمتوفى سنة ٦٥٠ ه .

١٠ — لسان العرب : لجمال الدين ابي الفضل محمد بن المُكرَّم بن علي ابن أحمد الأنصاري الخزرجي ، المولود سنة ٦٣٠ ه ، والمتوفى سنة ٧١١ه .

١١ — المصباح المنير : لأبي العباس أحمد بن محمد بن علي الفَيُّومي ، المتوفى سنة ٧٧٠ ه .

١٢ — القاموس المحيط : لأبي طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الفيروز ابادي ، المولود سنة ٧٢٩ ه ، والمتوفى سنة سبع او ستّ عشرة وثمانمائة .

وشَرْحُه المسمى (تاج العروس من جواهر القاموس) : لأبي الفيض محمد المرتضى بن محمد بن محمد الحسيني الزَّبيدي ، المولود سنة ١١٤٥ ه

والمتوفى سنة ١٢٠٥ هـ (١) .

★ ★ ★

وعندما يجتمع شمل هذه المعجمات كلها في كتاب جامع واحد ؛ ويتم انجاز هذا المعجم اللغوي التراثي الشامل ، تتحقق المرحلة الاولى او القسم الأول من المعجم الذي نطمح اليه ، إذ يصبح كلُّ التراث اللغوي المعجمي ماثلاً للعيان على أفضل مايرام وخير ما يؤمل .

ولن يضير هذا العمل الضخم الكبير أن يكون فيه شيءٌ من التكرار والاعادة والتطويل ، مادام هذا التكرار جزءاً من الهدف المنشود ؛ وتلك الاعادة بعضاً من الغاية المرجوة .

ونستطيع أن نُجمل أبرز مزايا هذا المعجم التراثي الشامل وأهم فوائده -- من الناحيتين العلمية والعملية -- في الأمور الآتية :

١ -- توحيد المعجمات كلها في كتاب واحد ؛ توفيراً لوقت الباحثين وجهد المراجعين ، وتيسير الافادة منها جميعاً باعادة ترتيبها على طريقة واحدة بدلاً من تلك الطرائق المتعددة والمناهج المختلفة .

٢ -- تسهيل مراجعة المواد اللغوية بتنظيمها على الحرف الأول من الكلمة ثم الثاني والثالث منها -- كما عليه الحال في أساس البلاغة والمصباح المنير -- ، ومع أن الترتيب على الحرف الأخير -- كما في الصحاح والعباب واللسان والقاموس -- أكثر يسراً أو أقل تعقيداً من الترتيب الصوتي في العين وأضرابه ، ولكنه لم يخل من متاعب أيضاً ، فكلمة (زيتون) مثلا قد يظنها المراجع

(١) وقد استبعدنا من هذه المجموعة : حواشي ابن بري على الصحاح ، لأنها غير تامة تأليفاً كما ذكر الزبيدي في مقدمة تاج العروس ، وقد اورد ابن منظور ما تم تأليفه منها في كتابه « لسان العرب » معزواً لا بن بري بالنص .
واستبعدنا أيضاً كتاب « التكملة » للصغاني لأنه وارد برمته في كتابه الكبير « العباب الزاخر» .
أما كتاب « المحكم » لا بن سيدة الأندلسي فلم يتم طبعه حتى اليوم ، ومتى ما تم ذلك لزم ايراده كباقي المعجمات في المعجم المقترح .

في حرف النون لأن آخرها نون ، غير أنها في الواقع واردة في حرف التاء — أي فيما آخره تاء — لأن النون ليست من أصل الكلمة ، واذا لم يكن المُراجِع على علمٍ بذلك لم يجد الكلمة في النون فظن إهمال المعجمات لها بل ربما اتهمها بالنقص والغفلة . أمّا تنظيم التراكيب والمواد على تسلسل الحرف الأول منها فانه من أيسر طرق الترتيب وأسهلها تناولا .

٣ — وقوف القارىء في داخل المادة الواحدة وفي مكان واحد على مجموع آراء اللغويين وأقوالهم المختلفة في الشرح والتفسير ورواية الشواهد ونسبتها لقائليها ، وتنبيها تهم على التصحيف والخطأ والوهم في أقوال مَنْ سبقهم ، ونقل بعضٍ متأخّرٍ عن بعضٍ أسبق بنصٍّ على ذلك أو بغير نصٍّ ، إذ تتجلى هذه التفاصيل بأجمعها في صفحات موحّدةٍ معدودة ؛ بدل التنقل بين المعجمات كلها للاطلاع على ذلك .

٤ — تدارك ما وقع فيه كلُّ معجم من المعجمات المطبوعة من أغلاط في الضبط وأوهام في قراءة الأصل .

٥ — واخيراً — وهو من الأهمية بمكان متقدم — وقوف الباحثين على نحوٍ جليٍ ومحدّد ؛ على مدى ما حظيتْ به لغتنا الكريمة من تطور وتقدم خلال مسيرتها الصاعدة في ألف عام من الزمن ؛ وأبعاد هذا التطور وحدوده المستخلَصَة او المستَنْبَطة ، ومقدارِ ما شمل المعجمات من هذا التطور (من كتاب العين الى كتاب التاج) ؛ في مجمل اساليبها التنظيمية والتحقيقية . وسيتيح ذلك للدارسين مجالاً واسعاً للبحث في هذا الجانب من موضوعات اللغة ، وهو جانب بالغ الشأن والمكانة عند علماء فقه اللغة والمعنيين فيه .

واقدّم صحبة هذا البحث للزملاء الأفاضل فرزة من القسم التراثي من المعجم الذي نطمح اليه ؛ يتضمن تركيباً واحداً من آلاف التراكيب او المواد اللغوية ، وقد ذكرتُ في آخره بعض الفوائد المحصّلة من هذا الجمع والتوحيد.

★ ★ ★

أمّا القسم الثاني من المعجم الجامع الذي نطمح اليه فينبغي أن يضم ما يأتي :

١ — ماورد في الكتب التراثية ـ على اختلاف موضوعاتها وتعدد اختصاصاتها ـ من ألفاظ عربية صحيحة لم تذكرها المعجمات ، وهي ليست من الكثرة كما يظن ، لأن قدراً كبيراً منها — مما لم يرد في المعجمات — كان أعجمياً دخيلاً لا يمت الى الفصيح بصلة ، وحسبنا مراجعة الفهرس اللغوي لتاريخ الطبري ونشوار المحاضرة مثلاً ؛ دليلاً على ذلك وبرهانا .

٢ — الألفاظ الجديدة المستحدثة التي دخلت في اللغة حديثاً ، مما هو مشتق من جذرٍ أصيل . أو منحوت من كلمتين فصيحتين على نحوٍ سليم ، أو مستعمل في معناه الجديد على نحو المجاز .

٣ — المصطلحات العلمية التي أشرف على وضعها العلماء المعنيّون المؤهّلون لذلك ، كتلك التي تنهض بها المجامع اللغوية العربية او الجهات الاخرى التي تتوفر لها المعرفة الواعية وسلامة القصد والنيّة .

وعندما يتم جمع كل هذه الألفاظ — بعد متابعة شاملة لكل ما استجدّ ؛ ورصدٍ دقيق لكل ما ورد، وتوحيدٍ منظم لكل ما وُضِع — وينجز العمل في القسم الثاني من هذا المعجم الطموح الشامل ، بعد انجاز القسم الأول التراثي منه ، نكون حينذاك — حقاً وصدقاً — في مستوى الأداء الصحيح لواجب المسؤولية القومية ، في الحفاظ على أهم دعائم الوجود القومي وأبرز مقوّماته وأرسخ أُسسه وأركانه .

وقد يظن ظان او يقول قائل بأن هذا الاقتراح المنمّق والأمل المجنّح انما هو جزء من الأساطير التي شاعت في عالم اليوم وأُطلق عليها اسم « الخيال العلمي » ، إذ ليس في ضمن الامكانات المتاحة القدرةُ على انجاز عمل كهذا ، ولو كان بعض العرب لبعض ظهيرا .

ولكني أقول جازما وقاطعا بأن ذلك ممكن جداً وقابل للتطبيق والتحقيق وفي ضمن هذه الامكانات نفسها ؛ لو اجتمعت الكلمة وتمّ الاتفاق على الأمر ، ويكفينا في هذه السبيل أن نعقد النية اولاً ؛ ونخطط للعمل ثانياً ؛ ونبدأ بالتنفيذ في المرحلة الثالثة ، وليس من الضروري أن يكون إتمام هذا العمل الضخم بأيدي هذا الجيل ، بل ربما لا يستطيع ذلك ، غير أني مطمئن وواثق بأن الأجيال العلمية التالية ستسير على هدى هذه الريادة الصادقة الواعية ؛ وستسعى للمضيّ فيه قدماً نحو الاكمال والانجاز.

★ ★ ★

وقبل ختم الكلام ينبغي أنْ لا تفوتني الإشارة الى أن العصر الحديث قد شهد ولادة عددٍ غير قليل من المعجمات اللغوية التي نهض بتأليفها علماء أجلاء معروفون بالفضل والكفاية والخبرة ، ولكنها لم تبلغ الغاية المنشودة ولم تصل الى مستوى الطموح .

وكان من جملة هذه المعجمات :

محيط المحيط للبستاني .

أقرب الموارد للشرتوني .

مدّ القاموس للمستشرق لين .

تكملة المعجمات العربية للمستشرق دوزي .

معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا .

معجم الشيخ عبدالله العلايلي .

المعجم المساعد للكرملي .

المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

المعجم الكبير للمجمع نفسه .

والمعنيّون بقضايا اللغة يعلمون ان هذه المعجمات – على تعددها وكثرتها ونفاسة ما جاء فيها – لم تغن عن الرجوع الى القديم ، ولم تأت بما يشبع

حاجة الطالب ونهم الراغب ، ولم تضف الى معجماتنا السابقة اضافة ذات أهمية وشأن . وربما كان في بعضها مالا ينبغي أن يكون بل مالا يصح ولا يجوز ، كإقحام بعض الألفاظ العامية والمعرَّبة والدخيلة في جملة المفردات والتراكيب العربية بلا اشارة الى ذلك أو تنبيه عليه ، وكالاستشهاد بلغات اخرى على سبيل التوسع في المقارنة والتمثيل ، مما يفترض وروده في ضمن البحوث اللغوية المقارنة وليس في ضمن العمل المعجمي الخالص .

ومع الاعتراف بأن معجم الاستاذ فيشر – ولم تطبع منه الا صفحات يسيرة – والمعجم الكبير الذي يعنى به مجمع اللغة العربية في القاهرة ؛ يعدّان من أفضل هذه المعجمات بل الأفضل منها جميعاً ، فانها بلا استثناءٍ لا تخلو من مؤاخذات وملاحظات ونواقص تجعلها بمنأىً عن ملء الفراغ وتلبية الطلب وبلوغ الهدف .

وعلى كل حال ؛ فالكمال المطلق لله عزّوجلّ وحده ، وهو المسؤول أن يمدّ بعونه وتوفيقه وتسديده جميع العاملين المخلصين ، انه تعالى خير مسدّد وموفق ومعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العـالمين .

(فرزة من القسم الأول « التراثي » من المعجم الذي نطمح إليه)

(أ ب ب)

« تقول للرَّجل اذا تَجهَّزَ وتَهَيَّأَ وحانَ منه المَسيرُ : قد أبَّ يَئِبُّ أبَاباً ، قال :

أخٌ قد طوى كَشْحاً وأبَّ ليَذْهَبا (١)

(العين) (٢)

★ ★ ★

« قد أبَّ فلانٌ ليَذْهَبَ يَئبُّ أبابَةً : أي أزْمَعَ » .

(الجيم) ١ /٥٨

★ ★ ★

« الأبُّ : المَرْعى ، قال اللهُ عزَّوجلَّ : (وفاكِهَةً وأبّا) (٣) ، قال الشاعر :

جِذْمُنا قَيْسٌ ونَجْدٌ دارُنا

ولنا الأبُّ بهـا والمَكْـرَعُ

وأبَّ أبّاً للشَّيء : اذا تَهَيَّأَ له او هَمَّ به ، قال الأعشى يَذْكُرُ قَوْماً نَزَلَ فيهم فخانُوه :

صَرَمْتُ ولم أصْرِمْكُمُ وكصارِمٍ

أخٌ قد طَوى كَشْحاً وأبَّ ليَذْهَبا

والأبُّ : النِّزَاعُ الى الوَطَن ، قال هِشامُ بن عُقْبَةَ أخو ذي الرُّمَّةِ :

وأبَّ ذو المَحْضَرِ البادي أبَابَتَهُ

وقَوَّضَتْ نِيَّةٌ أطنابَ تَخْيِيمِ

---

(١) البيت للأعشى ، وهو في ديوانه : ٨٩ ، وسيرد صدره فيما يأتي .

(٢) سقطت هذه الفقرة بكاملها من العين المطبوع .

(٣) سورة عبس / ٣١ .

وأبَّ الرَّجُلُ الى سَيْفِهِ : اذا رَدَّ يَدَهُ اليه ليَسْتَلَّه » .

(الجمهرة) ١/١٣-١٤

★ ★ ★

« قال ابو عُبَيْدة : أبَبْتُ أؤُبُّ أبّاً : اذا عزمتَ على المَسير وتَهَيَّأْتَ ، قال الأعشى :

صَرَمْتُ ولم أصْرِمْكُمُ وكصارِمٍ
أخٌ قد طَوى كَشْحاً وأبَّ ليَذْهَبا

وأخبَرَني المُنذِريُّ عن ثَعْلب عن ابن الأعرابيِّ قال : يُقال للظِّباء(٤) : إنْ أصابَتِ الماءَ فلاعَباب وإنْ لم تُصِبِ الماءَ فلا أبَابَ : أي لم تَأْتَبَّ له ولم تَتَهَيَّأْ لطَلَبِه .

وقولُه تعالى : (وفاكِهَةً وأبّاً) قال الفَرّاء : الأبُّ ما تَأْكُلُه الأنْعامُ . وقال الزَّجّاجُ : الأَبُّ جَميعُ الكلاءِ الذي تَعْتَلِفُه الماشيةُ . وقال عَطاء : كُلُّ شَيءٍ يَنْبُتُ على وَجْهِ الأرض فهو الأبُّ . وقال مُجاهِد : الفاكهةُ ما أكَلَه الناسُ ، والأبُّ ما أكَلَتِ الأنعامُ . وأنْشَدَ بعضُهم :

جِذْمُنا قَيْسٌ ونَجْدٌ دارُنا ولنا الأبُّ به والمَكْرَعُ

ثَعْلب عن ابن الأعرابيِّ : أبَّ اذا حَرَّكَ .

وأبَّ : اذا هَزَمَ بحَمْلةٍ لا مَكْذُوبَةَ فيها .

اللَّيْث : يُقال أبَّ فلانٌ يَدَهُ الى سَيْفِه : أي رَدَّ يَدَهُ ليَسْتَلَّه » .

(التهذيب) ١٥/٥٩٩

★ ★ ★

« الأَبُّ : الكَلأُ ، بوَزْنِ فَعْلٍ .

وطَلَبْتُ الشَّيْءَ وائْتَبَبْتُه : أي الْتَمَسْتُه وقَصَدْتُه . وأبَبْتُ أبَّ الشَّيْءِ : قَصَدْتُ قَصْدَه ، وتَأبَّبْتُ أبَّتَه وأبابَتَه : بمعناه .

---

(٤) هذا القول مثل ، ونصه في مجمع الأمثال : ٢/١٩٥ (لا عباب ولا أباب) .

وأخذْتُ للأمر إبابتَه : أي أهبتَه وعتادَه .

وتقول العربُ : اذا وَرَدْتَ الماءَ فلا عبابَ واذا لم تَرِدْ فلا أبابَ : أي لا تئبُّ لطلبه ولا تهيّأ .

وائتَبَّ فلانٌ الى فلان : اشتاقَ اليه ، وأبَبْتُ اليه إبابةً .

ووجدْتُ القومَ على إبَّة : أي استتبَّ لهم أمرُهم .

وأتانا في إبّانِ كذا : أي حينِه وزمانه .

وتأبَّبْتُ به : أي تبجّحْتُ وتعجّبْتُ .

وأبَّ القومُ : صاحُوا ، وهو الأَبَبُ » .

(المحيط)

★ ★ ★

« اعلَمْ انَّ للهمْزَة والباء في المضاعَف أصلَيْنِ : أحدُهما المرْعى ، والآخرُ القصْدُ والتهيُّؤ .

فأمّا الأول فقَوْلُ الله عزَّوجلَّ : (وفاكهةً وأبّا) ، قال ابو زَيْدٍ الأنصاريُّ : لم أسمَعْ للأَبِّ ذِكْراً الاّ في القُرآن ، قال الخليلُ وابو زَيْد : الأبُّ المرْعى – بوزْن فعْل – ، وأنْشَدَ ابنُ دُرَيْد :

جِذْمُنا قيْسٌ ونجْدٌ دارُنا ولنا الأبُّ به والمكْرَعُ

وأنْشَدَ شُبيلُ بن عزْرَةَ لأبي دُوَاد :

يرْعى بِروْضِ الحزْنِ مِنْ أبِّه
قُرْيانَهُ في عانةٍ تصْحَبُ (٥)

أي تحفَظ ، يقال : صَحِبَكَ اللهُ أي حفِظَكَ . قال ابو اسحاق الزّجّاج : الأَبُّ جميعُ الكلأ الذي تعتلفه الماشيةُ ، كذا رُوِيَ عن ابن عبّاس – رَضِي الله عنه – . فهذا أصْلٌ .

---

(٥) ورد البيت في مجموع شعر ابي دواد – دراسات في الأدب العربي : ٢٩٦ – منقولا عن المقاييس.

وأمّا الثاني فقال الخليل وابنُ دريد : الأبُّ مَصْدَرُ أبَّ فلانٌ الى سَيْفِه : اذا رَدَّ يَدَه اليه ليَسْتَلَّه . الأبُّ في قَوْل ابنِ دُرَيْد : النِّزَاعُ الى الوَطَن . والأبُّ في رِوَايتهما : التَّهَيُّؤ للمَسِير .

وقال الخليلُ وحده : أبَّ هذا الشَّيْءُ اذا تَهَيَّأَ واستقامَتْ طَرِيقَتُه ؛ أبابَةً ، وأنْشَدَ للأعشى :

صَرَمْتُ ولم أصْرِمْكُمُ وكصارِمٍ

أخٌ قد طوى كَشْحاً وأبَّ ليَذْهَبا

وقال هشام بن عُقبة في الأبابَة :

وأبَّ ذو المحضَرِ البادي أبَابَتَـهُ

وقَوَّضَتْ نِيَّةٌ أطنابَ تَخْيِيمِ

وذكر ناسٌ أنَّ الظِّبَاءَ لا تَرِدُ ولا يُعْرَفُ لها وِرْدٌ ، قالوا : ولذلك قالت العربُ في الظِّبَاء : إنْ وَجَدَتْ فلا عَبَابَ وإنْ عَدِمَتْ فلا أبابَ : معناه إنْ وَجَدَتْ ماءً لم تَعُبَّ فيه ؛ وإنْ لم تَجِدْه لم تَأْبُبْ لطَلَبِه . واللهُ أعْلَمُ بصحَّة ذلك .

والأَبُّ : القَصْدُ . يُقال : أبَبْتُ أبَّهُ وأمَمْتُ أمَّهُ وحَمَمْتُ حَمَّهُ وحَرَدْتُ حَرْدَه وصَمَدْتُ صَمْدَه ، قال الراجزُ يَصِفُ ذِئباً :

مَرَّ مُدِلٍّ كرِشاءِ الغَـرْبِ فأبَّ أبَّ غَنَمي وأبِّـي

أي قَصَدَ قَصْدَها وقَصْدي » .

(المقاييس)

★ ★ ★

« الأَبُّ : المَرْعى . قال اللهُ تعالى : (وفاكِهَةً وأبّا) .

ابو عمرو : الأَبُّ : النِّزَاع الى الوَطَن .

ابو زَيْد : أبَّ يَؤُبُّ أبّاً وأبَاباً وأبَابَةً : تَهَيَّأ للذهاب وتَجَهَّزَ ،
يقال : هو في أبَابِهِ اذا كان في جهازِه . وقال الأعشى :

أخٌ قد طوى كَشْحاً وأبَّ لِيَذْهَبا

(الصحاح)

★ ★ ★

« اطْلُبِ الأمْرَ في إبّانِه وخُذْهُ بِرُبّانِه : أي أوّله . وأنْشَدَ ابنُ الأعرابيِّ :

قد هَرَّمَتْني قَبْلَ إبّانِ الهَرَمْ
وَهْيَ اذا قلتُ : كُلِي ، قالتْ : نَعَمْ
صحيحةُ المِعْدَةِ مِــن كلِّ سَقَمْ
لو أكَلَتْ فِيلَيْنِ لم تَخْشَ البَشَمْ

وأبَّ للمَسِير : اذا تَهَيَّأ له وتَجَهَّزَ ، قال الأعشى :

صَرَمْتُ ولم أصْرِمْكُمُ وكصارِمٍ
أخٌ قد طوى كَشْحاً وأبَّ لِيَذْهَبا

وتقول : فلانٌ راعَ له الحَبُّ وطاعَ له الأبُّ : أي زَكا زَرْعُه واتَّسَعَ مَرْعاه » .

(أساس البلاغة)

★ ★ ★

« اليَزِيديُّ : الأَبُّ : المَرْعى ، قال الله تعالى : (وفاكِهَةً وأبّا) .
وقال غيرُه : الأبُّ للبهائم كالفاكِهَةِ للناس . وقال شَمِرٌ : الأب مَرْعىً للبهائم ، وأنْشَدَ :

فأنْزَلْتَ ماءً من المُعْصِراتِ فَأَنْبَتَّ أبّاً وغُلْبَ الشَّجَرْ

والأبُّ – أيضاً – : النِّزاعُ الى الوطَن .

ابو زَيْد : أبَّ يَؤُبُّ أبّاً وأباباً وأبابَةً : تَهَيَّأ للذَّهاب وتَجَهَّزَ ، يقال : هُوَ في أبابِه اذا كانَ في جَهازِه . قال الأعشى :

صَرَمْتُ ولم أصْرِمْكُمُ وكصارِمٍ
أخٌ قد طوى كَشْحاً وأبَّ لِيَذْهَبا

ابنُ الأعرابيِّ : أبَّ اذا حَرَّكَ .

وأبَّ : اذا هَزَمَ بحَمْلةٍ لا مَكْذُوبَةَ فيها .

وأبَّ الرَّجُلُ بِيَدِهِ الى سَيْفِهِ : اذا رَدَّ يَدَه لِيَسْتَلَّه . وقال قَوْمٌ : انَّما هو آبَ — بالمَدِّ — . وليس بثَبَتٍ .

والأبُّ : الخَصْرُ ، في لُغَةِ هُذَيْلٍ .

وأبَّةُ : اسْمُ رَجُلٍ . وبه سُمِّيَتْ أبَّةُ العُلْيا وأبَّةُ السُّفْلى ، وهما قَرْيتانِ من لَحجٍ . كما سُمِّيَتْ أبْيَنُ بأبْيَنَ بن زُهَيْرٍ .

وأبَّ أبَّهُ : أي قَصَدَ قَصْدَه .

وإبٌّ — بالكَسْر — : قَرْيَةٌ من قُرى اليَمَنِ ، من مِخْلافِ جَعْفَرٍ .

وإبِّيَان — مِثالُ صِلِّيَانٍ — : ضَيْعَةٌ في جِوار قَبْرِ يُونُسَ ابن مَتّى صَلَواتُ اللهِ عليه .

وأُبَّةُ — بالضَّمِّ — : مَدِينةٌ بإفْرِيقيَةَ . واليها يُنْسَبُ عبدُالرَّحمن ابن عبدالمُعْطي بن أحمد الأنصاريُّ الأُبِّيُّ .

والأُبَابُ — بالضَّمِّ — : مُعْظَمُ السَّيْلِ والمَوْجِ ، كالعُبَاب . وقيل : انَّ الهَمْزَةَ فيه مُبْدَلَةٌ من العَيْن . قال :

أُبَابُ بَحْرٍ ضاحِكٍ هَزُوْقٍ

وأبَّبَ : صاحَ .

وائْتَبَّ : اشْتَاقَ .

وتَأَبَّبَ به : تَعَجَّبَ به وتَبَجَّحَ .

والتَّركيبُ يَدُلُّ على المَرْعى وعلى القَصْدِ والتَّهَيُّؤ » .

(العباب)

★ ★ ★

« الأبُّ : الكَلأُ . وعَبَّرَ بعضُهم عنه بأنَّه المَرْعى . وقال الزَّجّاجُ : الأَبُّ جَميعُ الكلأ الذي تَعْتَلِفُه الماشيةُ ، وفي التَّنزيل العَزيز : (وفاكهةً وأبّاً) ، قال ابو حنيفة : سَمّى اللهُ تعالى المَرْعى كُلَّه أبّاً . قال الفَرّاء : الأبُّ ما يَأْكُلُه الأنعامُ . وقال مُجاهِد : الفاكهة ما أكَلَه الناسُ والأبُّ ما أكلَتِ الأنعامُ ، فالأبُّ من المَرْعى للدَّوابِّ كالفاكهة للانسان . وقال الشاعر :

جِذْمُنا قَيْسٌ ونَجْدٌ دارُنا ولنا الأَبُّ به والمَكْــرَعُ

قال ثَعْلب : الأبُّ كُلُّ ما أخْرَجَتِ الأرضُ من النَّبات . وقال عَطاء : كُلُّ شَيْءٍ يَنْبُتُ على وَجْه الأرض فهو الأبُّ . وفي حَديث أنَس : انَّ عُمَرَ بن الخَطّاب – رضي اللهُ عنهما – قَرَأَ قَوْلَه عَزَّوجلَّ : (وفاكهةً وأبّا) وقال : فما الأبُّ ؟ ثم قال : ما كُلِّفْنا وما أُمِرْنا بهذا .

والأبُّ : المَرْعى المُتَهَيِّىءُ للرَّعْي والقَطْع ، ومنه حَديثُ قُسِّ بن ساعِدَة : فَجعَل يرْتَعُ أبّاً وأصيدُ ضَبّاً .

وأبَّ للسَّيْر يئبُّ ويؤبُّ أبّاً وأبيباً وأبابةً : تهيَّأ للذَّهاب وتجهَّزَ ، قال الأعشى :

صَرَمْتُ ولم أصْرِمْكُمُ وكصارِمٍ

أخٌ قد طوى كَشْحاً وأَبَّ ليِذْهَبا

أي : صَرَمْتُكم في تَهَيُّئي لمُفارَقَتِكم ، ومَنْ تهيَّأ للمُفارقة فهو

كمَنْ صرَم . وكذلك ائتَبّ . قال ابو عُبَيْد : أبَبْتُ أؤُبُّ أبّاً : اذا عزَمْتَ على المَسير وتهيّأْتَ .

وهو في أبابِه وإبابَته وأبابَته : أي في جَهازه .

التَّهذيب : والوَبُّ التَّهيُّؤ للحمْلة في الحرْب ، يُقال : هَبَّ ووَبَّ اذا تَهيّأ للحمْلة ، قال ابو منْصُور : والأصْلُ فيه أبَّ ؛ فقُلبت الهَمْزَةُ واواً .

ابنُ الأعرابيّ : أبَّ اذا حرّكَ .

وأبَّ : اذا هزَمَ بحمْلةٍ لا مَكْذُوبةَ فيها .

والأبُّ : النِّزاع الى الوطَن ، وأبَّ الى وطَنه يؤُبُّ أبّاً وأبابةً وإبابةً : نَزَعَ . والمَعْروف عند ابنِ دُرَيْدٍ الكَسْرُ ، وأنشد لهشامٍ أخي ذي الرُّمَّة :

وأبَّ ذو المَحْضَرِ البادي إبابَتَهُ
وقوَّضَتْ نيّةٌ أطنابَ تَخْييمِ

وأبَّ يدَه الى سيْفِه : ردّها اليه ليَسْتلّه .

وأبّتْ أبابةُ الشّيْءِ وإبابَتُه : استَقامَتْ طريقتُه .

وقالوا للظِّباء : إنْ أصابَت الماءَ فلا عَبابَ ؛ وإنْ لم تُصِبِ الماءَ فلا أبابَ : أي لم تأْتَبَّ له ولا تتَهيّأ لطَلَبه .

والأبَابْ : الماءُ والسَّرابُ ؛ عن ابنِ الأعرابيِّ ، وأنْشَدَ :

قوّمْنَ ساجاً مُسْتخَفَّ الحملِ
تَشُقُّ أعرافَ الأُبابِ الحَفْلِ(٦)

أخبَرَ أنّها سُفُنُ البَرِّ .

---

(٦) المشطوران لرؤبة ، وهما في ديوانه : ١٣٠ ، ورواية الثاني فيه : (تنشق أعراف الا باب الجفل) .

وأبَابُ الماءِ : عُبَابُه ، قال :

أُبَابُ بَحْرٍ ضاحِكٍ هَزُوْقِ

قال ابنُ جِنّي : ليست الهَمزةُ فيه بَدَلاً من عَيْنِ عُبَاب وإنْ كُنّا قد سَمِعْنا ، وانّما هو فُعَالٌ من أبَّ اذا تَهَيَّأ .

واسْتَتَبَّ أبّاً : اتَّخذَهُ ، نادِرٌ ، عن ابن الأعرابيِّ ، وانّما قِيَاسُه اسْتَأْبِ » .

(لسان العرب)

★ ★ ★

« الأبُّ : المَرْعى الذي لم يَزْرَعْه الناسُ ممّا تَأْكُلُه الدَّوابُّ والأنعامُ ، ويُقال : الفاكهة للناس والأبُّ للدَّوابِّ .

وقال ابنُ فارِس : قالوا أبَّ الرَّجُلُ يَؤُبُّ أبّاً وأبَاباً وأبَابَةً — بالفتح — : اذا تَهَيَّأ للذَّهاب ، ومن هنا قيل : الثَّمَرَةُ الرَّطبةُ هي الفاكهةُ واليابِسُ منها الأبُّ ، لأنَّه يُعَدُّ زاداً للشِّتاء والسَّفَر . فَجَعَل أصْلَ الأَبِّ الاسْتِعداد .

والإبّانُ — بكَسْرِ الهَمْزَةِ والتَّشديد — : الوَقْتُ ، انّما يُسْتَعْمَل مُضافاً ؛ فيُقال : إبّانَ الفاكهةِ أي أوانُها ووَقْتُها ، ونُونُه زائدةٌ من وَجْهٍ فوَزْنُه فِعْلان ؛ وأصليّةٌ من وَجْهٍ فوزنُه فِعّال » .

(المصباح المنير)

★ ★ ★

(الأَبُّ : الكَلأُ) وهو العُشْبُ رَطْبُه ويابِسُه (أو المَرْعى) كما قاله ابنُ اليَزيديِّ ، ونَقَلَه الهرَويُّ في غَرِيبه ، وعَلَيه اقْتَصَرَ البَيْضاويُّ والزَّمَخْشَرِيُّ . وقال الزَّجّاجُ : الأَبُّ جَميعُ الكلأ الذي تَعْتَلِفُه الماشيةُ . وفي التَّنزيل العزيز : (وفاكهةً وأبّا) قال ابو حَنيفةَ : سَمّى الله تعالى المَرْعى كُلَّه أبّاً . قال الفَرّاءُ : الأبُّ ما تَأْكُلُه الأنعامُ . وقال

مُجاهِد : الفاكهة ما أكَلَه الناسُ والأَبُّ ما أكَلَتِ الأنعامُ ، فالأبُّ من المَرْعى للدَّوابِّ كالفاكهة للانسان .

قال الشاعر :

جِذْمُنا قَيْسٌ ونَجْدٌ دارُنا ولنا الأبُّ به والمَكْــرَعُ

(أو) كُلُّ (ما أنْبَتَتِ الأرضُ) أي ما أخرَجَتْه من النَّبات ، قاله ثَعلب . وقال عَطاء : كلُّ شَيْءٍ يَنْبُتُ على وَجْه الأرض فهو الأبُّ (والخَضِرُ) من النَّبات . وقيل : التِّبْنُ ؛ قاله الجَلالُ ، أي لأنَّه تَأْكُلُه البَهائمُ . هكذا في النسخ : والخَضِرُ – ككَتِف – ، وعليه شرح شيخنا ، وهو غَلَطٌ ، والصَّوابُ : الخَصْرُ – بالصاد المُهْمَلة الساكنة – كما قَيَّدَه الصاغانيُّ ، ونَسَبَه لهُذَيلٍ . وفي حَديث أنسٍ : أنَّ عُمَرَ بن الخطّاب – رضي اللهُ عنهما – قَرأ قَوْلَه عزَّوجلَّ : (وفاكهةً وأبّاً) وقال : فما الأبُّ ؟ ثم قال : ما كُلِّفْنا أو ما أُمِرْنا بهذا .

والأبُّ : المَرْعى المُتَهَيِّىءُ للرَّعْيِ والقَطْع ، ومنه حديث قُسِّ بن ساعِدَة : فَجَعَل يَرْتَعُ أبّاً وأصيدُ ضَبّاً . وفي الأساس : وتقول : فلانٌ راعَ له الحَبُّ وطاعَ له الأبُّ : أي زَكا زَرْعُه واتَّسَعَ مَرْعاه .

والأَبُّ – بالتَّشديد – : لُغَةٌ في الأَبِ – بالتَّخفيف – بمعنى الوالد ، نقله شيخنا عن ابن مالك في التَّسهيل . وحكاه الأزهريُّ في التَّهذيب وغيرهما . وقالوا : اسْتَأْبَبْتُ فلاناً – ببائَيْنِ – : أي اتَّخَذْته أباً ، نَبَّهَ على ذلك شيخُنا مُسْتَدْرِكاً على المُصَنِّف . قلتُ : انَّما لم يَذكُرْهُ لنُدْرَتِه ومُخالفته للقياس . قال ابنُ الأعرابيِّ : اسْتَئَبَ أباً : اتَّخَذَهُ ، نادِرٌ ، وانما قِياسُه اسْتَأْبَ .

(و) أَبُّ : (بَلَدٌ باليَمَن) . قال ابو سَعْدٍ : بُلَيْدَةٌ باليَمَن يُنْسَبُ اليها ابو محمدٍ عبدُ الله بن الحَسَن بن الفَيّاض الهاشِميُّ . وقال ابو

طاهر السِّلفيُّ : هي بكَسْر الهمزة ، قال : سَمِعْتُ أبا محمَّدٍ عبدَالعزيز ابن موسى بن مُحَسِّن القَلْعيَّ يقول : سمعتُ عُمَرَ بن عبدالخالق الإبِّيَّ يقول : بَنَاتِي كُلُّهُنَّ حِضْنَ لِتِسْعِ سِنِين ، كذا في المُعْجَم . قلتُ : ونُسِبَ اليها – أيضاً – الفَقِيهُ المُحَدِّثُ ابو العبّاس أحمد بن سلمان بن أحمد بن صبرة الحميريُّ ، مات سنة ٧٢٨ ، وَلِيَ قضاءَ مدينة أبّ ، تَرجَمَه الجنديُّ وغيره .

(و) إبُّ (– بالكَسْر – : قَرْيَةٌ باليَمَن) من قُرى ذي جِبْلَةَ ؛ قال ابو طاهر ، وكذا يقوله أهلُ اليمن بالكَسْر ، ولا يعرفون الفتحَ ، كذا في المعجم . وقال الصاغاني : هي من مِخْلاف جَعْفَر .

(وأبَّ للسَّيْر يَئِبُّ) بالكَسْر على القِياس في المُضعَّف اللازم ، (ويَؤُبُّ) بالضَّمِّ على خِلافِ القِياس ، واقْتَصَرَ عليه الجوهريُّ ، وتبعه على ذلك ابنُ مالك في لاميَّة الأفعال ، واستدركه شيخُنا في حواشي ابن الناظِم على أبيه انَّه جاء بالوجهين ، فالأَوْلى ذِكرُه في قِسْم ما وَرَدَ بالوَجْهَيْنِ ، (أبّاً وأبِيباً) على فَعِيلٍ (وأبَاباً) كسَحَاب (وأبَابَةً) كسَحابَةٍ : (تَهَيَّأَ) للذّهاب وتَجَهَّزَ ، قال الأعشى :

صَرَمْتُ ولم أصْرِمْكُمُ وكصارِمٍ
أخٌ قد طَوى كَشْحاً وأبَّ ليَذْهَبا

أي صَرَمْتُكم في تَهَيُّئي لمفارقتكم ، ومَنْ تَهَيَّأَ للمُفارقة فهو كَمَنْ صَرَمَ . قال ابو عُبَيْد : أبَبْتُ أؤُبُّ أبّاً : اذا عَزَمْتُ على المَسِير وتَهَيَّأْتُ (كائْتَبَّ) من بابِ الافْتِعال .

(و) أبَّ (الى وَطَنِه) يَؤُبُّ (أبّاً وإبَابَةً) كَكِتابةٍ (وأبَابَةً) كسَحابَةٍ وأبَاباً كسَحَابٍ أيضاً : (اشْتَاقَ) . والأبُّ : النِّزاع الى الوَطَن ؛ عن ابي عمرو ، قاله الجوهريُّ ، والمعروفُ عِنْدَ ابن دُرَيْدٍ :

يَئِبُ – بالكَسْر – ، وأنْشَدَ لِهِشامٍ أخي ذي الرُّمَّة :

وأبَّ ذو المَحْضَرِ البادي أبَابَتَهُ
وقَوَّضَتْ نِيَّةٌ أطنابَ تَخْيِيْمِ

(و) أبَّ (يَدَه الى سَيْفِه : رَدَّها لِيَسُلَّه) ، وفي بعض النُّسَخِ : لِيَسْتَلَّه . وذَكَرَه الزَّمَخْشريُّ في آبَ – بالمَدِّ – ، وقال الصاغانيُّ : وليس بثَبَتٍ .

(وهو في أبَابِه) – بالفَتْح – وأبَابَتِه : أي (في جَهَازِه) بفتح الجيم وكَسْرِها .

(وأبَّ أبَّهُ) : أي (قَصَدَ قَصْدَه) ، نَقَلَه الصاغاني . (وأبَّتْ أبَابَتُه) بالفتح (ويُكْسَر) : أي (استقامَتْ طَرِيْقَتُه) ، فالأبَابَةُ بمعنى الطَّرِيقة .

(والأبَابُ) – بالفتح – : (الماءُ ، والسَّرَابُ) عن ابن الأعرابيِّ ، وأنْشَدَ :

قَوَّمْنَ ساجاً مُسْتَخَفَّ الحمْلِ
تَشُقُّ أعْرافَ الأبَابِ الحَفْلِ

أخبَرَ أنَّها سُفُنُ البَرِّ .

(و) الأُبَابُ (بالضَّمِّ : مُعْظَمُ السَّيْلِ ، والمَوْجُ) كالعُبَاب ، قال :

أُبَابُ بَحْرٍ ضاحِكٍ هَزُوْقِ

قال شيخُنا : صَرَّحَ ابو حَيَّان وتلميذُه ابنُ أُمِّ قاسِم أنَّ هَمْزَتَها بَدَلٌ من العَيْن ؛ وأنها ليستْ بلُغَةٍ مُسْتقلَّة ؛ انتهى ، وأنْكَرَه ابنُ جنّي فقال : ليست الهمزةُ فيه بَدَلاً من عَيْن عُبَاب وإنْ كُنّا قد سَمِعْنَاه ، وانَّما هو فُعَالٌ من أبَّ اذا تَهَيَّأ .

قُلْتُ : ومن الأمثال : وقالوا للظِّبَاء : إنْ أصابَتِ الماءَ فلاعَبَابَ وإنْ لم تُصِبِ الماءَ فلا أَبَابَ : أي لم تَأْتَبَّ له ولا تَتَهَيَّأْ لطَلَبِه . راجِعْه في مجمع الأمثال .

وفي التَهذيب : الوَبُّ التَّهَيُّؤُ للحَمْلَةِ في الحَرْب ، يُقال : هَبَّ ووَبَّ اذا تَهَيَّأَ للحَمْلة ، قال ابو منصور : الأصْلُ فيه أبَّ ؛ فقُلِبَتِ الهمزةُ واواً .

(و) عن ابن الأعرابيِّ : (أَبَّ :) اذا (هَزَمَ بحَمْلةٍ) — وفي بعض النُسَخ : بجُمْلَةٍ ، وهو خَطَأٌ — (لا مَكْذُوْبَةَ) بالنَّصْب ؛ وهو مَصْدَرْ كَذَبَ (فيها) أي الحَمْلَةَ .

(وأَبَّةُ : اسْمٌ) أي عَلَمٌ لِرَجُلٍ ؛ كما هو صَنِيْعُه في الكتاب ، فانَّه يُريد بالاسمِ العَلَمَ ، (وبه سُمِّيَتْ أَبَّةُ العُلْياو) أَبَّةُ (السُّفلى) ، وهما (قَرْيَتَانِ بلَحْجٍ) بفَتْحٍ فسكون ؛ بَلْدَةٌ بعَدَنِ أَبْيَنَ من اليَمَن ، أي كما سُمِّيَتْ أَبْيَنُ بأَبْيَنَ بن زُهَيْرٍ .

(و) أُبَّةُ (— بالضَّمِّ — : بَلَدٌ بإفْرِيقِيَة) بينها وبين القَيْرَوانِ ثلاثَةُ أيَّام ، وهي من ناحية الأَرْبُسِ ، موصوفةٌ بكثرة الفَواكِه وإنْبَاتِ الزَّعفرانِ ، يُنْسَبُ اليها ابو القاسم عبدالرحمن بن عبد المُعْطي بن أحمد الأنصاري ، رَوى عن ابي حَفْص عُمَرَ بن اسماعيل البَرْقيِّ ، كَتَبَ عنه ابو جعفر أحمد بن يحيى الجارُوْديُّ بمصر . وابو العَبّاس أحمد بن محمد الأُبِّيُّ ، أديبٌ شاعِرٌ ، سافَرَ الى اليَمَنِ ولقي الوَزِيرَ العَبْديَّ ، ورَجعَ الى مِصْرَ فأقامَ بها الى أنْ ماتَ في سنة ٥٩٨ ، كذا في المعجم .

قلتُ : أمّا عبدالرَّحمن بن عبدالمُعْطي المذكورُ فالصَّواب في نِسْبَتِه الأبَيِّي ؛ مَنْسُوب الى جَدِّه أُبَيٍّ ، نَبَّه على ذلك الحافظُ ابنُ حَجَر .

ومِمَّن نُسِبَ اليها من المُتَأخِّرين : الإمامُ ابو عبدالله محمدُ بن خليفة

التُّونسيُّ الأُبِّيُّ ، شارِحُ مُسْلِم ، تلميذُ الإمام ابن عَرَفَة ، ذَكَرَه شَيْخُنا .

(وأبَّبَ) : اذا (صاحَ) ، والعامَّة تقول هَبَّبَ .

(وتَأَبَّبَ به) : أي (تَعَجَّبَ وتَبَجَّحَ) ، نقله الصاغانيُّ .

(وأبّى) بفَتْح الهمزة وتشديد الباء والقَصْر (كحَتّى : نَهرٌ بين الكُوفة و) بين (قَصْرِ) ابنِ هُبَيْرَةَ (بني مُقاتِل) ، هكذا في النُّسَخ وصَوابُه « ابنِ مُقاتِل » ، وهو ابنُ حَسّان بن ثَعْلَبَة بن أَوْس بن ابراهيم ابن أيُّوب التَّيْمِيّ ، من زَيْد مَنَاةَ ، وسيأتي ذِكْرُه ، (يُنْسَبُ الى أبّى بن الصّامَغَان من مُلُوك النَّبَط) ذَكَرَه الهَيْثَمُ بن عَدِيّ . (ونَهرٌ) من أنهار البَطِيْحَة (بواسِطِ العِراق) وهو من أنهارها الكبار . (و) وَرَدَ في الحَدِيث عن محمد بن إسحاقَ عن معبد بن كَعب بن مالكٍ قال : لَمّا أتى النَّبيُّ – صلّى اللهُ عليه وسلَّم – بَني قُرَيْظَةَ ، ونَزَلَ على بِئْرٍ من أبْيارِهم في ناحيَةٍ من أمْوالهم ، يُقال لها بِئْرُ أبّى ، وهي (بِئْرٌ بالمَدِينَة) . قال الحازِميُّ : لذا وَجَدْتُه مَضْبُوطاً مُجَوَّداً بخَطِّ أبي الحَسَنِ ابن فُرات . (أوْهِيَ) – وفي نُسْخَةٍ : هُوَ – (أُنَا – بالنُّون مُخَفَّفَةً – كهُنَا) . قال الحازِميُّ : كذا سمعتُه من بعض المُحَصِّلين . كذافي المُعْجَم . وسيأتي ذِكْرُه في مَحَلِّه ، إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

ومِمّا يُسْتَدْرَكُ عليه :

أبَّ : اذا حَرَّكَ . عن ابنِ الأعرابيِّ .

وائْتَبَّ : اذا اشْتَاقَ .

وأبّى بنُ جَعْفَر النَّجِيْرَمي : مُحَدِّثٌ ضَعِيْفٌ .

وسالِمُ بن عبد الله بن أبّى : أنْدلسِيٌّ ، رَوى عن ابن مُزَيْنٍ ، وسيأتي في آخر الكتاب » .

(القاموس وتاج العروس)

لقد حفل هذا النموذج الماثل المعنيُّ بتركيب « أبب » – وهو تركيبٌ واحدٌ من الآف التراكيب اللغوية – بقدرٍ لا يُستهان به من الفوائد والثمرات ، منها ما هو عامٌّ مرتبط بما حظيت به اللغة ومعجماتها من تطور ونماء على مرِّ القرون ، ومنها ما هو خاص يتعلق بكل معجم منها وما ورد فيه من الفاظ ومعانٍ واشتقاقات وشواهد . ولعلَّ من المفيد أن نشير الى بعض ذلك فيما يأتي :

١ – ورد في « العين » عجز بيتٍ لم يُسمَّ قائله ولم يُذكَر صدره . ثم ورد بتمامه معزواً للأعشى في « الجمهرة » وما يليها .

٢ – لم يرد المصدر (أبّاً) في « العين » . وقد ورد في « الجمهرة » و « التهذيب » وما بعدهما .

٣ – لم يرد المصدر (أبَابَةً) في « العين » و « الجمهرة » و « التهذيب» . وقد ورد في « الجيم » و « المحيط » و « الصحاح » ومابعده .

٤ – لم يرد المصدر (إبابَةً) الاّ في « المحيط » و « اللسان » و « القاموس».

٥ – ورد شاهد من الشعر في « الجمهرة » جاء فيه : (ولنا الأبُّ بها والمكرعُ) ، ورواية المعجمات الأخرى التالية للجمهرة : (ولناالأبُّ به والمكرع) .

٦ – وردت في أول هذا التركيب في « التهذيب » معلومة مروية عن ابي عبيدة ، ولكنه في « اللسان » ابو عبيد .

٧ – ورد في « التهذيب » مثَلٌ نصُّه : (إنْ أصابت الماءَ فلا عباب وإن لم تُصِب الماءَ فلا أباب) ، وبهذا النصّ أيضاً في « اللسان » و « التاج» ، ولكنه بنصّ آخر في « المحيط » و « المقاييس » .

٨ – ورد في « التهذيب » نصٌّ منقول من « العين » لم يرد في نسـخ العين

المتداولة ، وورد النص كذلك في « الجمهرة » ولكنه بلا عزو ، وأورد النصّ نفسه ابنُ فارس في « المقاييس » وعزاه للخليل وابن دريد.

ونستطيع استناداً الى « التهذيب » و « المقاييس » أنْ نستدركه على « العين » .

٩ – روى في « المقاييس » تفسير (الأبّ) عن الخليل ، ولم يرد في « العين » المطبوع .

١٠– ورد في « المحيط » ذِكرُ (إبّان كذا أي حينه وزمانه) ، ولم يذكره مَنْ سبقه ومن عاصرَه في هذا التركيب ، بل لم يذكره من المتأخرين عنه سوى الزمخشري في « الأساس » والفيومي في « المصباح » ، وقال الفيومي : (نُونُه زائدة من وَجْهٍ وأصليّة من وجهٍ) .

الأندلس وما جاورها

تاريخ الأندلس قبل الفتح الاسلامي
وفي ايامه الاولى

اللواء الركن محمود شيت خطاب
« عضو المجمع »

القسم الثالث
١ ـ في اوروبة وإفريقية

حضارة العرب والمسلمين في الاندلس

١ ـ الجذور :

لاشك في أن كثيراً من الغربيين ، يحملهم التعصب الأعمى على إخفاء محاسن حضارة العرب والمسلمين في الأندلس ولاسيما الحضارة الكبرى التي أوقدوا مصابيحها لأول مرة من اوروبا . ولم يقتصروا على ذلك ، بل أخذوا يختلقون سيئات وينسبونها إلى العرب سادتهم وأساتذتهم طوال ثمانية قرون . وسنلخص كتاب : (حضارة العرب في الاندلس) للعالم الشهير والمؤلف الكبير : جوزيف ماك كيب Joseph maccabe الذي ألف (٢٥٠) كتاباً وألقى ألوفاً من المحاضرات ، وسافر إلى شتى أنحاء العالم ، وأتقن عشر لغات ، حتى جعله الامريكيون أكبر عالم في الدنيا ، لأن المؤلف مسيحي وعالم ، فلايمكن أن يتهم بدينه ولا علمه .

ذكر المؤلف المنصف : أنّ القرون الطوال التي اتُسمت بها هذه المدينة المحمديّة من البرتغال غرباً والى السند شرقاً ، قد وصلت في القرن الرابع عشر عند العرب إلى المستوى الذي كانت قد وصلته الحضارة اليونانية والرومانية إن لم نقل إنها فاقتها . فقد ارتقى النوع البشري في إسبانيا خلال قرون عديدة

إلى أعلى درجات الهناء والغبطة والسعادة والشغف العام بكسب العلوم والفنون ، والأحسان إلى البؤساء ، وترقية الفنون والتهذيب ، ولعله إلى هذه الأيام ، لم لم تطلع الشمس على أمة أسعد ولا أهنأ ولا ارغد عيشاً ولا أكثر رغبة في التمتع بالجمال والعلوم والأعمال المجيدة من عرب الأندلس . ولا مراء في أن مؤرخينا – يقصد مؤرخي الغرب – لا يبسطون القول في هذا الفصل الذي هو أهم فصل في التاريخ لأسباب اربعة : اولها ، إنّ حال اسبانيا وصقلية والشرق من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، هي نقيض لحال اوروبا النصرانية والقدرة إلى حد لا يتصور . والثاني ، مع أن العرب ، ابتدأ رقيهم من دركة متوحشة مثل القوط والفنداليين ، فقد شجعهم بقايا مدنية اليونان والفرس على أن يشيدوا مدنية زاهية في أقل من قرنين ، بينما سكان اوروبا تحت سلطات (البابوات) مضت عليهم سبعة قرون قبل أن يصلوا إلى درجة هي أدنى بكثير من مستوى العرب المسلمين . والثالث ، أن هؤلاء العرب الذين شيدوا هذه الحضارة الزاهرة كانوا من المتسامحين في الدين ولم يكونوا من المتعصبين . والرابع ، أن حضارة أولئك العرب ، كانت مقدمة للتجديد والتقدم الذي نحن فيه اليوم . إلاّ أنني أختصر القول هنا ، فأقول : إن هذه الحضارة هدفها المتعصبون من نصارى إسبانيا في الأندلس ، ثم يقول : لقد مضى ألف سنة إلاّ قليلاً ، على الناس ، بعد اندراس مدنية العرب في الأندلس قبل أن يوجد كتاب يستحق إضاعة الوقت في قراءته ، وبعبارة أخرى ، كانت للعرب في زمان مجدهم كتب قيّمة ، فلما مضوا وأُحرق أكثر تصانيفهم ، بقي الناس ألف سنة تقريباً ، لا يجدون كتاباً يستحق أن يُقرأ ، وقد قال استوارت في كتابه : (تاريخ الآداب العربية) : كان في الأندلس ألفا ألف مصنف ، ولم يصلنا من كتبهم إلاّ شيء قليل .

وقال المؤلّف في كتابه : (الأخلاق) : كان في المملكة الأسلامية طوائف عشرين ديناً منقسمين الى مائة مذهب ، وكلّهم كانوا يعيشون بسلام وتسامح . والخراج القليل الذي كان يُفرض على غير المسلمين ، كان في الحقيقة مدداً لبيت المال ، ولم يكن يُقصد به التّعالي عليهم وإهانتهم . والخلفاء كانوا يعلمون كيف كان النصارى يُعاملون المنحرفين من الدين في اوروبا يحقّ لهم أن يفخروا بأنهم أفضل وأعدل ملوك الأرض .

وقال في الجزء نفسه بصدد البحث في تاريخ المسلمين بمصر : وبعد بضع سنوات من فتح المسلمين للاسكندرية ، ثار أهلها وشقوا عصا الطاعة ، فاضطر العرب إلى هدم جانب من تلك البلدة الجميلة ، ولكن حتى مؤرخو النصارى الحاضرون ، يعترفون بأنهم لم يقصدوا بذلك تخريباً وانتقاماً . وإنما ألجأهم إليه المحافظة على البلدة ، أما الرواية القائلة بأن العرب وجدو من بقايا خزانة الاسكندرية كتباً كثيرة ، فأخذوا يوقدون بها أتاتين الحمامات مدة ستة أشهر ، فالمؤرخون اليوم يرون ذلك حديث خرافة . ولم توجد هذه الرواية في كلام أي مؤرخ إلا بعد مضي ستة قرون من فتح مصر . وقد بحث بتلـــر (A.J. Butler) بحثاً دقيقاً في هذه المسألة ، في كتابه : فتح العــرب لمصر ، وختم كلامه بأنّ هذه الرواية أسطورة حقيرة ، وليس لها أساس تاريخي البتّة . وذكر استانلي بول هذا الكلام نفسه في الجزء السادس من كتاب : تاريخ مصـــر ، تأليف فلينـــدرس بتـــري (Feinders Petrie) : ولسيں هناك بيِّنة على أنه كانت بالأسكندرية خزانة كتب عمومية في ذلك الزمان ، والظاهر أن النصارى كانوا قد أحرقوا جميع الكتب وأتلفوا ما بقي منها منها تدريجاً في مدة طويلة قبل ذلك بزمان .

وقال المؤلف ماك كيب : لا أعتقد أن الرق كان من سيئات العرب ، لأن عبيدهم كانوا أسعد حظّاً من معظم سكان اوروبا . وإذا علمنا أن النصرانية لبثت ثمانية او تسعة قرون تذم الرق ، ثم باركت على استرقاق السود ، فكيف تنظر من العرب أن يبطلوا الرق في ثلث تلك المدة ؟

وقال المؤلف : ولست الآن بصدد التحقيق في آداب العرب في النكاح ، ولكني من حيث أنا مؤرخ في الأخلاق ، أستنكر ما يقوله بعض مَنْ لم يحقق الأمر من عامة المؤلفين ، فذكروا ، أن العرب كانت أخلاقهم في تلك الناحية فاسدة ، وأنهم كانوا فاسدين هادمين لصلاح المجتمع ، فأن الحقائق التاريخية تكذب هذا القول ، وكل كتاب مغبر في الحضارة العربية ، بل حتى الفصول القليلة من تاريخ القرون الوسطى المطبوع في كامبرج ، تشهد أن العرب كانوا يعطون الحياة حقها ، وكانوا خير أمة أُخرجت للتناس ، من أوّل التاريخ إلى الآن . واذ قد عرفت أخلاق العرب واعتدالهم في أمور النكاح ، فدونك لمحة تبين لك أخلاق رجال الكنيسة ، فضلاً عن غيرها من الأوربيين في ذلك الزمان : إنّ عمل قوم لوط كان شائعاً في ذلك الزمان في جميع أنحاء اوروبة ، وفي اواسط القرن الحادي عشر ، رأي الكردينال بطرس داميان أن اللواط شائع بين القسيسين والرهبان في ايطالية ، وبلغ الأمر في أنّه ألف كتاباً في ذلك وأرسله إلى البابا (ليو التاسع) والتمس منه أن يتدارك ذلك الأمر ويأخذ في قطع ذرائعه وأسبابه ، يستغيث به أن يعاقب كل راهب او قسيس ، يثبت عليه اللواط ، يحلق رأسه والبصاق في وجهه وحبسه في غرفة مظلمة . ولما وصل كتابه إلى البابا ، تقبله وأظهر الارتياح به . إلاّ أنه رأى الا يبلغ العقاب بأولئك الفساق إلى الحد الذي اقترحه الكردنيال المذكور . ولكن بما هو أخف وأليق بالرحمة والشفقة ، فبقيت تلك الفاحشة جارية كما كانت . واسم كتاب داميان الذي اهداه إلى البابا : (عمورية) وهو اسم قرية قوم لوط . وفي كتاب داميان ما هو أدهى وأمرّ ، مما يدل على تمام الهمجية وهو الزنا بالمحارم ، وأنه كان شائقاً هناك أيضاً .

قال المؤلف : لقد أطلقت لفظ : (العصور المظلمة) كسائر المؤلفين في كتابي هذا ، على أكثر عصور الممالك النصرانية انحطاطاً على العمـــوم ، وخصوصاً القرن العاشر المسيحي . تنصرت الممالك الاوربية قبل ذلك بأربعة قرون او بخمسة قرون او ستة قرون تقريباً مضت من يوم تغلبّ (البابوات) والأساقفة على إرادة الملوك ، وحملوهم على إبادة كل مصادر الألهام يخالفهم أو يباريهم ، فأغلقوا المدارس والمعابد . وقضوا على العلم والأدب ، وإذا استثنينا بعض المواضع في اوروبة كالبندقية ، إذ كان فيها بقية تافهة إصلاحية من علم اليونان تخفف من شرّهم وهمجيتهم ، فأن اوروبا كلها كانت في تباب وخراب اقتصادياً واجتماعياً وعقلياً . ومن ذلك الزمان أطلق الأساقفة والقسيسون والرهبان والراهبات الأعنة في الدعارة والشهوات البهيميّة ، ولم يكونوا في ذلك الزمان يستررون حتى بجلباب النفاق . ولو أن غنياً من أصحاب الملايين من أهل هذا العصر كان في ذلك الزمان ، لقدر أن يشتري مملكة بأسرها ، وكان تسعة وتسعون بالمائة خدماً يعاملون بأقسى ما يعامل به العبيد ، ولم يكن ولا واحد في المائة من الرجال ولا واحدة بالألف من النساء ، يقدر أن يقرأ . وكان الضعيف مضطهداً مقهوراً مسحوقاً تحت الأقدام مغموساً في الطين والدم ، بل حتى القوي كان مهدداً بالأوبئة الوافدة والسيوف اللامعة على الدوام والنجوم ذوات الأذناب في السماء وجينود العفاريت الهائلة في الهواء.

كذلك إن اردت أن تعرف أفكار النصرانية الاجتماعية ، فادرس القرن العاشر ، فلا زخارف أقوال الواعظين ، ولا كذب المعتذرين ، ولا الأذعان السياسي من المؤرخين ، بقدر أن يخفي عن ذوي الألباب عظيم تبعة الكنيسة ولاسيما البابوية ، في ذلك الزمان ، الذي بلغ فيه الانحطاط إلى دركة لا نظير لها . وإنّه لفصل من أشد فصول البشرية شقاء وحزناً من الفصول التي استشهدت الانسانية . لقد حطم بولس من ناحية وأوغسطين من ناحية أخرى مدنية الأنسان، فهل هذا هو الذي سميناه — بعيدين عن اتباع الهوى — مدنية الله ؟

لقد فاز في جميع بلاد أوروبا إلاّ زاوية واحد ، ألا وهي جزيرة (إيبريا) الاندلس التي نسميها اليوم إسبانيا والبرتغال ، فقد أُزيل الصليب من تلك الأرض في ابتداء القرن الثامن ، وحكمها المسلمون ، أجل قد لمعت رايات العرب المطرّزة المحمولة مع متن القرآن ظافرة تجتاح جبال (البرانس) وتتألّف في شمس جنوبي فرنسة ، وصارت الممالك النطرنية مهدّدة، والمدرسون الأغمار لى بقول المؤلف النطرني – في مدارسنا العالية ، لايزلون يقولون للأطفال الأغرار ، ناقلين من مختصرات كتيبات التاريخ غير النزيهة ، ويطنبون في مدح (شارل مارتل) الظافر جين لقى العرب في سهول فرنسة وصدّهم عنها وحفظ العالم من المدنية .

إذ لايوجد في الدنيا مدرس في جامعة أو مدرسة ، يجرأ أن يقول لتلامذته ما يعرفه كلّ مؤرّخ . أنّ العرب أقاموا حضارة من أعظم الحضارات العالمية ، وأنّ شارل مارتل وجنوده كانوا لصوصاً متوحشين برابرة ، وأنّ عرب الأندلس لو نجحوا في فتح أوربا وأقاموا فيها قرنين وأقاموا فيها مدنيتهم كما فعلوا بأسبانيا، لكنّنا الآن متقدمين خمسة قرون أكثر مما نحن عليه اليوم، ولايستطيع عاد أن يعدّ مقدار الدماء والدموع والفاقة والعدوان الذي سببها ذلك الظفر المبين ناله شارل مارتل في سهول فرنسة الجنوبية ، وربما تتعجب إذا قيل لك : إنه يجب أن يضمّ درس حضارة العرب في الأندلس إلى دروس الدين ونشوء الأنسان وارتقائه . وسينقضي عجبك سريعاً جداً متى علمت أنه يثمر لنا درسين حيويين مهمين : الأول . إنه من أبطل الباطل ، أن يقال في أى بقعة من بقاع أوروبا . إنها لم تقدر أن تعود إلى المدينة بسرعة ، لأن الدول الرومانية قد سحقها الغزاة البرابرة من أهل الشمال تحت أقدامهم . والثاني إنّه البعث الحقيقي للحضارة الأوروبية لاعلاقة له بدين النصرانية ، بل هو عدوّها المبين .

قبل سنوات وقفت على جسر قرطبة ، وفكرت في ذلك المنظر المحزن للهيكل القطمي لقرطبة التي أصبحت قرية في سكانها البائسين وشوارعها الضيقة القذرة ونهرها المقذر . خكانها أقل من مائة ألف نفس ، في بيوط بالية وفقر شديد ، بينما كانت قبل ألف سنة أعظم مدينة في الأرض ، يقارب سكانها مليوناً من النفوس السعيدة المغتبطة ، وكانت لهم ثروة يمكن أن تشتري بها الممالك الأروبية النطرانية مراراً ، مع أميال معمورة بقصور المرمر الفخيمة، تلمع بين الحدائق البهيجة ، ممتدة أمام ذلك النهر . وكانت فيها العلوم والفنون التي جذبت الناس إليها من كلّ ناحية من نواحي الدنيا ، حيث كان العلم والفن يقدرّان حقّ قدرهما .

كان الرومان قدمدّنوا إسبانيا وبريطانيا وفرنسة وجنوبي ألمانيا وإيطاليا، أولئك الذين كانوا محرومين من الوحي ، شهوانيين ، فجّاراً ، ماديين ، جعلوا من أبتائها الأولين أمةّ مهذبة أرقى بلا حدود من أيّ أمّة من أهل الممالك النطرانية بعد ألف سنة ، وأنت إلى الآن تمشي في طرقهم المعبّدة وتعبر على قناطرهم في إسبانيا ، وهذه المدنية الرومانية الأسبانية ، قد سحقتها القبائل التيوتونيّة تحت أقدامها ، مثلما سحقت فرنسة وأشد مما صغت بأيطاليا لقد زلزلها الفنداليون المتوحشون ، وحكمها القوط الغربيون وسكنوها وكما يقـول اسكوت (ميخائيل سكوت)(Michal skot) : « لم تترق أمة قط تحت حكم الرئاسة الدينية ، وأنّ تقوى القسيسين الروحية ، قد قضى عليها تعطشهم الشديد إلى التسلّط والاستبداد في الحكم على البلاد وأهلها (الفصل الأول ص ٣٦٣) » . واسـانلي لين بول (Stanly Lane Poole) لم يجد بدأً أن يعترف بمثل ذلك في كتابه : العرب في الأندلس (ص ٧٠)فقال: «لاشك في أنّ القوط كانوا متعبدين،إلاّ أنهم كانوا يرون أنّ عبادتهم تكفر ذنوبهم، وكانوا في الفسق والفساد مثل أشراف الرومان الذين سبقوهم . وحتى القسيسون الذين كانوا يعظون ويحضون الناس على الأخوّة المسيحيّة — حين صـاروا أغنياء وملكوا الضياع ، اتبعوا السياسة المأثورة في الجور ، فصاروا يعاملون عبيدهم وخدمهم أسوأ معاملة ، كما كان يعمل أشراف الرومان قبلهم» .

وهذه صورة إسبانيا في القرنين السابع والثامن . ولما استوطن القوط الغربيون إسبانيا في القرن الخامس ، أظهروا على الفور ، أنّ قوة التيوتونين البربرية إذا تزوجت بثقافة الرومان ، تتولد منهما مدنية جديدة ، وذلك يبطل الرواية المزعومة : أنّ النصرانية لأجل أن تمدن البرابرة يلزمها زمان طويل . والذي يبطل الشطر الثاني من تلك الرواية ، وهي أنّ النصرانية كانت قوّة ممدّنة ، هو أن القوط الغربيين وكنيستهم جميعاً سقطوا إلى حضيض الجهل والرذائل والجور كسائر بلاد أوربا خلال قرنين .

والآن ، دعنا ننظر من أين جاءت القوة الممدّنة حقيقة ، كانت بلاد العرب بكراً لم تفتح ولم تمدن قط ، حتى أواخر القرن السابع ، فجاء محمد عليه الصلاة والسلام ، فأوقد نيران الحماسة الدينية في بلاد العرب بدينيه الجديد. فبعث في العرب نشاطاً عجيباً . فانطلقوا يفتحون البلدان ويدخلون الناس في دينهم في ارجاء العالم . وفي وقت قصير جداً ، استولوا على المدنيتين القديمتين الفارسية والمصرية . ولم يمض عليهم زمن طويل ، حتى أنشاؤا مدنية عربية إسلامية . وكما قال سكوت : « لم يكن بين الهمجية والجهالة الصحراوية وبين الاستقرار والثقافة العقلية في عواصم الأمويين والعباسيين إلاّ أقلّ من مائة سنة . وكان العرب في الخشونة وعدم التهذيب الثقافي مثل التيوتونيين ، ولكنهم لما استولوا على المدنية القديمة صاروا متمدنين تماما خلال قرن واحد . ولكن ينبغي لنا اولا ان نعلم . كيف صار هؤلاء العرب الحمديون او الشرقيون (موراً) ودخلوا اوروبا ، بعد ما فتح العرب مصر ، كانوا لايزالون متعطشين إلى الفتح ، فولوا وجوههم تارة أخرى شطر الغرب ، وواجه أبناء العرب الصحراء فلم ترعهم ولم يعبثوا بها ، ولكن البحر أفزعهم ، وقد سمعوا أن وراء الصحراء ارضا خصبةزكية التربة : تونس والجزائر ومراكش، التي عمرها القرطاجيون والرومان وجعلوها غنية . ولذلك توجه أحد القواد العظام في (٢٠٠٠٠) من الخيل والركاب سنة ٦٤٦م وتوغلوا في مجاهل الصحارى . فاجتازوا مسافة الف ميل من الارض على شاطيء إفريقية الشمالية، وفي نحو نصف قرن، حكم العرب الشاطيء الجنوبي للبحر الأبيض كله وطمحوا بأبصارهم بنهمة وشره إلى اراضي الشاطيء الشمالي الغنية .

واستوطن بعضهم مع المور – البربر السود – وكما يزعمون ، والحق أن البربر بيض بياضاً قاتما وليسوا سوداً . من الشاطيء المقابل لجبل طارق ، ولاشك أنهم تزوجوا منهم ، فلذلك صاروا يعرفون عند الأزوروبيين بالمور والقلعة الحصينة التي كانت في الشاطيء الاوروبي حركت رغبتهم ، وكانت بيد قائد يوناني يدعى يوليان ، تحت حكم . امبراطور الرومان إسمياً . وفي سنة ٧٥٩ م أو ٧١٠ م صار يوليان حليفاً للمور . ويحكى أنه ارسل ابنته إلى قصر ملك القوط الغربيين فاعتدى الملك على عفافها ، فاستشاط لها يوليان ، وعزم على الانتقام ، فدعا أمير العرب إلى العبور إلى الشاطيء الاوروبي وفتح إسبانيا ، ووصف له الكنوز والأموال المدهشة التي في قصر ملك القوط وكينستهم وصفاً شائقاً ، وأوضح له أن بلاد اسبانيا في انحطاط فلا يحتاج فتحها إلا إلى قليل من الجنود والعتاد .

وفي سنة ٧١٠ م بعد بعثة استطلاعية ، جهز العرب قائداً بربرياً ومعه (٧٠٠٠) جندي ، ثم أمدده بخمسة آلاف فارس من البربر ، وقبل انتهاء سنة ٧١١ م ، تم عرب تقريباً فتح شبه جزيرة أسبانيا ، وانحصر بقية الجنود القوطيين والأشراف والقسيسين في بقعة جبلية صغيرة على خليج بسكاي ، وصعد العرب على جبال البرانس ، وبنوا عليها سلسلة من القلاع ليحصنوا أنفسهم من سكان فرنسة ، الذين كانوا في نظرهم غريبي الأطوار متوحشين ، وبمرور الزمن ، فتحوا جنوبي فرنسة . ولما وصلت أخبار هذه الفتوح و ما فيها من الغنائم والأراضي الخصيبة إلى الشرق ، جذبت خلقاً كثيراً من العرب والبربر للالتحاق بأخوانهم في الغرب . وبعث الخليفة من دمشق والياً استعمله على بلاد الأندلس ، ومعه اربعمائة من أشراف العرب ، فتجدد في العرب التعطش إلى الأزدياد من الفتح . وفي وقت من الأوقات ، كان في بلاد فرنسة مائة الف جندي من العرب ، يجوسون خلال ديارها ويدوّخون أهلها . وفي ذ ث الوقت ، كانوا قد بلغوا درجة عالية من التمدن والرقي . وقد رحّب

أهل جنوبي فرنسة بهؤلاء الفاتحين ، ورأوا فيهم رُوماً جُدداً بالنسبة إلى الفرنج والجرمانيين الشماليين المتولىشين . ولا حاجة للاطناب في إخفاق العرب
الفرز والجرمانيين الشماليين لمتوحشين . ولا حاجة للاطناب في إخفاق العرب
وعدم تقدمهم في وروبا ، الذي يسمى في أكثر المدارس الغربية أنصاراً للتمدن والنصر نية ، وهذه تسمية خاطئة مائة بالمائة ، وبأي شيء عاد إلى وروبا من وبال ، بل لأجدر بنا ن ننظر في الخطة التي سار العرب عليها في إسبانيا نفسها ، حتى اوصلوها من الرقي إلى درجة جعلت بقية اوربا بالنسبة إليها همجية متوحشة ، ولكن قبل أن نجاوز هذا المقـــام ، ينبغي ان تعرف أن حضارة العرب وتهذيبهم تركا أثراً خالداً في أهل جنوبي فرنسة ، فبقوا قروناً طوالاً متصلين بالعرب من الوجهة الثقافية . فثنايا جبال البرانس كانت اول مصدر من مصادر الالهام لأوروبا البربرية . ولم يلبث أهل جنوبي فرنسة أن صاروا في بلهنية العيش والرغاهية ، وفشا فيهم الألحاد والانحراف عن الدين ، وليست حرارة الشمس فقط هي التي جعلت سكان ازرض جنوبي فرنسة المثل الأعلى في جودة الغناء والطرب .

ونعود إلى الأندلس ، فنقول : إن الخليفة في دمشق ، هو الذي يولي الولاة والحكام في الاندلس ، وكان هؤلاء الولاة من شعب قد سار شوطاً بعيداً في المدنية ، وكانوا دوماً ينفذون اوامر الخليفة ، فشكلوا على الفور الدوائر المدنية والسياسية والنظام الزراعي . ولم يجد العرب إغراقا فيما سمعوه من عظمة الكنوز الملكية والكنسية ، فوجدوا في طليطلة قاعدة ملك القوط الغربيين مقدرا هائلا من الذهب واللؤلؤ . على أنه من الحقق أنهم إلى ذلك الوقت لم يقعوا على الكنوز العظيمة التي كانت مخباءة تحت الأرض ، حيث دفنها القسيسون عند فرارهم . هذا وقد أخذ الفارون الأولون – ومنهم الأسقف – معهم كثيراً من الأموال المنقولة . ويروى أن جنود العرب ، وجدوا طائفة من رجال الكنيسة ، فارين . ووجدوا عندهم كرسياً يوضع

عليه الكتاب المقدس ، وكان ذلك الكرسي من الذهب الصلب الخالص مرصعاً بالياقوت الزعفراني والياقوت الأحمر والزمرد واللؤلؤ يساوي نصف مليون دولار ، مع النقود في ذلك الوقت كانت تساوي عشرة أضعاف ما تساويه اليوم.

لكن مدنية العرب في الأندلس التي بلغت اوج الرقيّ ، إنّما أُسست على الحالة الأقتصادية السليمة في تلك البلاد نفسها . ولا يتسع المقام هذا لذكر تاريخ العرب ، فكتاب (س . ب . اسكوت) الموسوم : « تاريخ المملكة (الأمبراطورية) العربية في اوروبا ١٩٠٤ م » ، يخبرنا بما شاء من ذلك في دقة وانسجام مع ذكر الأدلة ، ولكنه كبير من ثلاث مجلدات ضخام ، فلم تزل الحاجة إلى تأليف كتاب مناسب في الحجم ، واف في بيان عظمة العرب التاريخية ، وكتاب (استانلي بول) ، المسمى : « العرب في إســبانيا ١٨٩٥ » في سلسلة : (أخبار الأمم) تأليف قوى الحجة جيد ، ولكنه على طريقة المؤرخين في ذكر ملاحم الملوك ونوادرهم . وكتاب شارلوت بونج : « أخبار النصارى والعرب في اسبانيا لى ١٨٧٩ » ، هو أيضاً تأليف نفيس بأسلوب عالٍ ، يدلنّا على ان المرأة النصرانية حتى هي أيضاً تأثرت بما كان للعرب من مدنية وحضــارة . وكتاب واسْنطون ارفنج الذي ادى خدمة جليلة في استحالة الناس إلى هذا العنصر الحي في نشوء المدنية يُقرأ الان ، وهو معدود من أحسن المصادر الادبية ، أما فنونهم وما بقى من مدنيتهم ، فكتُبُ كالفرات الموسومة : « آثار العرب في إسبانيا » وكتاب : « الحمراء » ، وكتاب : « قرطبة » ، وكتاب : « طليطلة » . وكتاب : إشبيلية » وغيرها أفضل وأنفع مما كتب في ذلك . وكتاب دوزي : « الأسلام الأسباني » ، نشر بالانكليزية عام ١٩١٣ م ، ومع أنه من اوائل ما نشر من الكتب الحديثة ، فلازال قيمته عند الناس عظيمة ، وهو مع ذلك كتاب كبير ، ولعل تأليف : لين بول (العرب في إسبانيا) وتأليف كتاب : (آثار العرب) أســهل تناولا وأكثر مناسبة ، وأوصى من يريد أكثر مما تسع هذه النبذة الصغيرة .

ولست بصدد ما يسمى : التاريخ ، إذ حدثت في مدة من الزمن اضطرابات في الأمور ، وكثر عزل الولاة وتبديلهم بغيرهم ، واشتد فيها التحاسد والتنافس وفسدت سيرة دار الخلافة في دمشق ، فكثر تدخلها في أمور الولاة ، فوقعت فتن عظيمة بين البربر والعرب الذين جنوا ثمرات الفتح ، وكانت تقع غزوات بين قبائل العرب الذين جاءوا من مختلف البلدان ، وآخر الأمر ظهر هناك شاب عربي من ذرية الخلفاء سنة ٧٥٦ م ، فقبض على زمام الأمور ، واتخذ قرطبة عاصمة له ، وجعل نفسه اميراً – وكان في الحقيقة ملكا لمملكة العرب في إسبانيا ، وهذا الأمير والأمراء الثلاثة الذين جاءوا من بعده هم الذين اسسوا هذه المدنية التي نحن بصدد شرحها .

٢ ـ العرب في اوج مجدهم :

عظمة غرناطة التي هي أشهر مدن العرب في الأندلس اليوم ، يرجع عهدها إلى زمان متأخر جداً ، وسنبحث الان من مدنّية العرب التي كانت في أواسط القرن العاشر الميلادي . وكانت اوروبا في ذلك الزمان ، قد بلغت الدرك الأسفل في الانحطاط . وكانت روما متلوثة برجس الفساد ، وكانت الجهود العظيمة التي بذلها شارلمان لأصلاح قسم كبير من القارة المذكورة قد خابت . وكانت فرنسة نهباً مقسماً لغارات قبائل الشمال ، كما كانت انكلترا كذلك تعاني من غارات الدانماركيين عليها ، وكان القسيسون في كل بلد يعيثون فساداً . ولا يبالون مثقال ذرة بما نسميه : مدنية . أما إسبانيا ، فكانت بخلاف ذلك . كانت مزدهرة بالعمران ، وكانت حديقة تفوق الوصف في النتاج . وكان فيها تسعة من أمّهات المدن ، وثلاثة آلاف مدينة متوسطة ، وعشرات الألوف من القرى . وكان على شاطيء نهر الوادي الكبير فقط اثنا عشر ألف قرية . ومع أن السير في ذلك الزمن لم يكن سريعاً ، فقد قال المؤرخون : كان السائر في بلاد الأندلس لا يسير مسافة يوم ، إلا ويمرّ على ثلاث مدن ، وأما القرى ، فكانت لا تنقطع تقريباً ، وكانت على أحسن حال

من العمران ، ومدينَة قرطبة عاصمة لملكهم ، كان عدد سكّانها لا يقل عن مليون نسمة . وإشبيلية في وقت من الأوقات تحوي خمسمائة ألف نفس ، ومدينة المرية خمسمائة ألف نفس أيضاً ، وكان في غرناطة اربعمائة وخمسة واربعون ألفاً ، وفي مالقة ثلاثمائة ألف نفس ، وفي بلينسية مائة وخمسة وعشرون ، وفي طليطلة مائتا الف .

ويقدر مجموع سكان الأندلس بثلاثين مليوناً ، وزيادة السكان بهذا القدر العجيب ، هي في حد ذاتها دليل على الدرجة العالية التي وصل القوم إليها من المدنيّة . وقد علم من الاستقراء ، أن السكّان إذا كانت صحتهم جيدة ، وتدبير الصحة سائراً على أحسن حال ، فأن عددهم يضاعف في ربع قرن . وهذا يدلّك على عمل العرب من الأعمال الجليلة ، ويبيِّن لك كيف أفسد الأسبانيون تلك الأعمال من بعد ونقضوها . وإذا علمت أن سكّان إسبانيا في القرن العاشر بلغوا ثلاثين مليونا ، فيجب أن يبلغ اليوم مئات الملايين ، فاعلم أنه اليوم لا يزيد عن اثنين وعشرين مليوناً . فرقم ثلاثين مليوناً في القرن العاشر ، برهان ساطع على ما كان للعرب من العلم والحكمة . وخذ مثلا إنكلترا ، فأن سكانها كانوا إذ ذاك مليونين او ثلاثة . وكانت العناية بترقية الزراعة أساسا لعمران الأندلس .

والناس الذين لم يروا اسبانيا قط ، يرون فيها رأياً مبهماً غامضاً ، أغلبه مأخوذ من الروايات ورقوق الخيالة : أنها ارض خصب ، حضرة نضيرة وازدهار دائم ، وغناء وعشق لا ينتهيان . والأندلس ، وهي الناحية التي استوطنها العرب ، إذ لم يهتموا كثيراً بالناحية الشمالية — لها صيت ذائع في ابتهاج القلوب وقرة العيون والهوى العذرى والورد وآلات الطرب ، وهذه شهرة لا تستحقها . وأنا أحب الأسبانيين ، فيمن أحبّه من الأقوام الذين سحت في بلادهم ، ولكن الطرب ليس من شمائلهم ، وليست الأندلس ارض عشق وازهار وغناء ، وإسبانيا اليوم في بؤس وشقاء ، مصابة بداء القسيسين ،

تحكم حكماً مرذولا ، ترى في ارباضها ففي أكثر أيام السنة زربيّة محترقة رقيقة من النّبات ، والفلاحون المجهودون بكل مشقة يحصلون معيشة ضنكا من الأرض ومتى زالت منها الملكية والكنيسة واستبدادا الجيش ، يجدد فيها نظام السقي وتصير فردوساً مرة اخرى . أما اليوم ، فهي محرومة من رأس المال والأعمال ، ولا ريب أنّها كانت فردوساً في القرن العاشر ، حتى نجت مثل ذلك النمو في السكان . وكان لأهلها ذكاء فساعدوا به الطبيعة ، وكانت الانهار الصناعية والجداول ، توزع الماء وتروى الأرض ، حيث الفلاح الأسباني المسكين اليوم ، يرى المطر ينزل في رؤوس الجبال ، وتسيل به الاودية ، وتجري رأساً إلى البحر . والقيعان الواسعة العقيم اليوم ، كانت في زمن العرب حدائق غلبا ، وكانت تؤتى غلاّط ذهبيّة ، وحتى سفوح الجبال ، قد سُطحت وأُلحقت بالارض الزراعية . وفي كثير من البقاع ، كانت الأرض تعطي اربع غلاّت مختلفة في سنة واحدة . وكانت الأقوات كثيرة ورخيصة جداً ، وأضاف العرب جميع الوسائل الشرقية إلى الوسائل الرومانية في إسبانيا ، فكان الآس يفوح بريحه العطرية ، مقرونة بريح الورد والأترج . والنخل باسقات في سطورها ، تواجه القبة الزرقاء ، وكانت بلاد جنّات ، جنات لا يوجد مثلها اليوم إلا في قليل من البلدان . وعلى هذا الأساس ، قام هناك نظام تجاري صناعي في غاية الأتقان . ولا اريد أن أذكر تفاصيل هذا الأمر ، وإنما اريد أن أذكر بالسيوف الفولاذية التي كانت تصنع في طليطلة ، والأدوات الجلدية التي كانت تصنع في قرطبة التي كانت أفضل الطرف في الدنيا ، وكيف كان الأسطول التجاري المغربي يطوف البحار في طلب النوادر والتحف الرفاهيّة لمأت الألوف من الناس ، وكان العرب رومانيسين جدداً . فأنهم جلبوا العلماء والمهرة في الصناعة والنحاسيْن وتجار الجوارى الراقصات وتجار الحرير وتجار الجواهر من جميع ارجاء الأرض . ولم يكن الخراج مجحفاً ، وكان في الغالب يتألف من عشر الغلاّت

وعشر ما يخرج من المعادن ومكاسب الصناع والتجار . ولكن كان الدخل مدهشا ، وكان دخل خليفة ذلك الوقت وهو عبدالرحمن الثالث على ما قيل أكثر من (٣٠،٠٠٠،٠٠٠) دولار سنوياً . ولاتنس أن النقود كانت لها قيمة في ذلك الزمان ؛ بحيث يمكن أن يشتري بها أضعاف ما يشتري بها الآن . وسنرى وصف هذه الثروة أوضح في الفصل التالي . وكانت الثروة متساوية عند الأعيان والتجار ، وقد قرأنا أنّ وزير عبد الرحمن الثالث أهدى إلى ملكه هدية وهي ضيعة غاباتها تحتوي على عشرين ألف شجرة ، وستين جارية حسناء ، ومائة من الجياد الصافات، والبغال الفارهات ، وثمانمائة لأمّة (٨٢) من أجود العتاد ، ومايساوي مليون دولار من الذهب وغيره من النفائس وقد قدّر المؤلفون العرب الذين يختلفون عن جهلة أوروبا الرهبانيين جدّ الاختلاف هذه الهدية بـ (٥،٠٠٠،٠٠٠) دولار وسنرى في الفصل الآني أكثر مما رأينا ، فهناك نرى من الترف الذي أوجدته تلك المدينة شيئاً يدهش العقول ، وعلى ما كانت عليه ملوك العرب العرب من البذخ والترف فأنهم لم يهملوا المقاصد الخيرية والمصالح العامة ، بل أنفقوا عليها من خزائنهم الواسعة إنفاقاً لم يفعل مثله من ملوك النصارى إلاّ قليل ، وسأعقد فصلاً أذكر فيه أعمال ملوك العرب في العلم والأداب والفلسفة . وهنا أشير إلى الملوك الذين انشأوا مدنية الأندلس (من سنة ٧٥٦ م الى سنة ٩٦١ م) كانوا حماة كرماء ومحبين أوفياء للعلم وأهله ، وكانوا أكثر الناس سخاءً وجوداً في مناصرة الشريعة والتعليم ، وهم أنفسهم في كثير من الأعيان لم يكونوا قاصرين في الأدب . فالخليفة الحاكم الثاني الذي كان ملوك النصارى في زمانه لايقدرون ان يكتبوا أسماءهم إلاّ قليل منهم ، كانت خزائن كتبه تحتوي على نصف مليون كتاب ، ويروى أنه كان ملماً بما تضمنته . وكان الخلفاء

(٨٢) اللأمة : اداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر وسيف ودرع . (ج) : لأَمْ ولِؤَم .

ينفقون على كثير من المدارس من مالهم الخاص، وكان سخاؤهم بأموالهم الخاصة للمصالح العامة مثل سخائهم لها من بيت المال . وكانوا يرقبون الطرق المعبدة والجسور المتينة التي عملها الرومان بعناية تامة ، فيصلحون ما فسد منها ، فكان للبلاد نظام للمواصلات يليق بصناعتها وتجارتها . وعجلات السيارات الثقيلة اليوم ، كانت تسير في طليطلة وقرطبة على الجسور العظيمة التي بناها الروم وجدّدها العرب . وجدّدوا القنوات وأنشئوا قنوات جديدة لضمانة الماء الكافي لا للسقي فقط ، بل لتوزيعه في المدن على البيوت. وكان للبريد سرب من الخيل السريعة بترده في جميع الطرق المهمة في المملكة . ولأجل أن نقدّر هذه الأشياء حق قدرها ، ينبغي أن تتذكرّ دائماً الأختلاف بين هذه البلاد وبقيّة أقطار أوروبا . فأمهات المدن الأروبية لم توجد فيها قنوات لصرف المياه القذرة حتي بعد مضي ستمائة سنة من ذلك التاريخ ، فكانت المياه المنتنة النجسة تجري في طول شوارع باريس ولندن غير المبلطة أو تجتمع فيكوّن منها حياض بعد ما علمت النهضة في أوروبا عملها قرونا طويلة . أما في مدن العرب . فكانت الشوارع مبلطة منورة . قد سوّيت فيها مجاري المياه أحسن تسوية في أواسط القرن العاشر . قال اسكوت : بعض القنوات التي كانت تحت الشوارع لصرف المياه القذرة في بلنسية ، تقدر أن تسع سيارة . وأصغر
تحت الشوارع لصرف المياه القذرة في بلنسية ، تقدر أن تسع سيارة . وأصغر
قناة منهن ّ تقدر أن تسع حماراً . وكانت الشوارع مجهّزة أحسن تجهيز بالشرطة، وهذا النظام الصحي السامي كانت تعضده النظافة العامة التي يراها الأمريكيون في هذا العصر شيئاً واجباً . ولكنها كانت في ذلك الزمان في نظر الأوروبيين أعجوبة من أعاجيب الرقيّ التام ، فكان في قرطبة وحدها تسعمائة حمام عام ، وكانت الحمامات الخاصة كثيرة في كلّ مكان ، أما في بقية بلاد أوروبا ، فلم يكن فيها ولا حمّام واحد. وكان أشراف أوروبا. رؤساء الأقطاع منهمكين في الرذائل إلى حدّ يحجم الأنسان عن وصفه . ولم يكن لبس الكتان النظيف

معروفاً في اوروبا ، حتى أخذت (مودة) لبس طراز الكتان من المسلمين ، ولم تكن الزرابي تصنع هناك ، وكان الحشيش يغطي ارض قصور الأمراء ومصطبات الخطابة في المدارس ، وكان الناس والكلاب ينجسون المحلات إلى حد يعجز عنه الو صف . ولم يكن لأحد منهم منديل في جيبه . وفي ذلك الوقت ، لم تكن الحدائق تخطر ببال أحد من أهل الممالك النصرانية ، ولكن في إسبانيا العربية كان الناس في جميع الطبقات يبذلون الجهود والأموال في تجميل حدائقهم العطرة البهيّة . وكانت الفسقيات تترقرق مياهها صعداً في صحون الدور والقصور والاماكن العامة . ولايزال في صحن الجامع الكبير في قرطبة حوضان جميلان من المرمر يزنيان ذلك الصحن ، حيث كان كلّ مصلّ يتوضأ قبل أن يدخل المسجد ، ووصفها اسكوت في هذا الزمان (١ – ٦٧٥) فقال : « هذان الحوضان اللذان كانا من قبل متوضاء للمسلمين الغيورين من جميع الآفاق ، والان يمدان باناء سكان قرطبة النصارى ذوي المناظر القذرة المنفردة والأخلاق الوحشية والجهل العظيم بمزايا الشعب الطاهر العاقل المهذب الذي تنتمي اليه هذه الذكريات الفاخرة من الفن والصناعة . هذان الحوضان يشهدان شهادة مرضية بأن لا دوام للمدنية العليا ، وان الأنسان يميل بطبعه إلى التقهقر والعودة إلى أحوال الهمجية . وتشهد به لسلطة القسيسين من المقدرة على فعل الشر ، وأن سياستهم التي لن تجد لها تبديلا ، أُسست على قاعدة احتقار مواهب عبيدهم العقلية » . وهذه العدد التي اعدها الخلفاء بفرط ذكائهم ، ظهر أثرها في زيادة خارقة للعادة ، على حين كانت جميع بلاد اوربا لا يتضاعف سكانها إلا بعد مضي اربعة او خمسة قرون . ولم تنحصر عنايتهم الأبوية في حفظ الصحة والحياة فقط ، فمع كثرة النفوس المفرطة ، كانوا الايرون أحداً يصاب بمصيبة إلا نفسّوا عنه الكرب وواسوه وهذا فيما لا يمكن اتقاؤه منها . وكان يساعدهم على أتقاء النكبات اتخاذهم نظاماً حسناً في استخدام البطالين في إصلاح الطرق والاشغال العامة . وكان

عبدالرحمن الثاني قد أعلن أن كل مَنْ يريد العمل يمنحه . ودوائر العدل التي خلفتها محاكم التفتيش وغرف التعذيب ، كما اثبته المحققون ، كانت منزهة عن كل ريبة أو فساد . وكانت المعارف والتعليم كما سترى في فصل آخر ، أحسن مما كانت في ممالك الرومان ، ولم يكن يضاهيها إلا ما بلغه اليونان من المعارف العالية في ارقى أيامهم . والخلفاء انفسهم شيدوا المارستانات ودور الأيتام ، كما كان يفعل ملوك اليونان — ومنذ زوال ملكهم زالت هذه المؤسسات من اوروبا — وكان الأعيان والتجار لا يألون جهداً ما اقتفوا آثار الخلفاء في العمل بهدي القرآن في مثل هذه الخيرات . وكان الخلفاء أنفسهم يعودون المرضى ويبحثون من المكروبين لينفوا كربهم .

والنساء اللائي كنّ نزلن إلى دركة الخدم في بلاد اوروبا عملاً بما روته التوراة في قصة حواء من المحال ولكراهية القسيسين السابقين للزواج وإيثارهم العزوبة ، كنّ على خلاف ذلك عند العرب مكرمات مالكات حريتهنّ . وللكرم إن لم نقل البذخ والسرف اللذين حلا محلّ التقشف والتعصب في دمشق ، انتقلا إلى الأندلس ، فكانا كافيين لحفظ مركز المرأة . والعشرة الخشنة التي يعاشر بها المسلمون المرأة كما هو مشهور عندنا ، لم توجد في الأندلس إلا في اواخر أيامهم . والنساء في القصر الملكي بقرطبة ، كنّ يساعدن الخلفاء في تدبير الأمور ، وإن مالت طباعهنّ إلى غير ذلك لم يكن من الصعب عليهنّ الاتصال بالأدباء والشعراء واصحاب الفنون الصناعية . وكان طلب العلم مباحاً لهنّ بكلّ حرية ، وكثير منهنّ كان بهنّ ولع بالعلوم الرائجة في ذلك الزمان من فلك وفلسفة وطب وغيرها . وكانت النساء يتبرقعن خارج بيوتهن ، ولكنهن كن مكـــرمات ، وفي منازلهن كنّ مشرفات ومحترمات .

ولا حاجة بي إلى أن أتكلم عن ظرف العرب وشهامتهم ، لأنهم هم الذين طبعوا الشعب الأسباني طبعاً لا يُمحى أبداً على الاحترام الشخصي واللطف التي لا يزال من خواصه المستميلة حتى في الصنّاع والفلاحين . وهناك مزية أخرى يمتاز بها العرب ، وهي التسامح الديني ، وفي أول لأمر كان هناك بلاشك شهداء يعني مقتولين لمخالفتهم في الدين — ولكن لا مناسبة بين ذلك وبين المذبحة التي عملها لأسبانيون أخيراً في ذرية العرب . وأما بعد استقرار المملكة العربية في الأندلس، فاذا استثنينا مُعاملتهم لطوائف الثوار من النصارى، كأهل طليطلة الذين كانوا دائماً ينتظرون الخلاص من ناحية الشمال ، فقد كان أهل الأديان جميعاً يعاملون بالحسنى ، وكانت على يهود والنصارى فريضة مالية قليلة تخصهم ، وكانوا يتمتعون بحماة حقوقهم ، فكثير عددهم وعظم بذلك الخرج الذي يؤخذ منهم ، فكان الخلفاء لا يشجعون على دعوتهم إلى الدين مخافة نقصان الجزية ، ورخصوا لنصارى طيطلة في المحافظة على كنيستهم الكبرى . واخيرا اشتريت منهم بثمن غالٍ جداً ، ورخصّوا لهم بأن يبنوا عدداً كثيراً من الكنائس . وكانت لهم في طليطلة ست كنائس ، وكانوا مستمسكين بالعلاقات الودية مع جيرانهم ، حتى أثار فيهم القسيسون الضغينة الدينية . وأما ما يخص يهود الذين كانو يتمتعون بعصرهم الذهبي حينئذٍ ، وارتقوا إلى درجة في العلوم ونالوا أعلى المناصب في دولة العرب ، فأتكلم عليهم في فصل آخر . وهذه النبذة العامة في ذكر مدنية العرب ، ستزادد وضوحاً وتفصيلاً عند الكلام على وصف حياة قرطبة وغرناطة . ولابد أن القارىء علم مما ذكرناه آنفاً تفوق المدنية التي يزعمون أنها وثنية تفوقاً خارقاً للعادة ، ولابد أنه رأي أثرها في اوروبا المتوحشة ، وهذا صحيح لا يمترى فيه أحد من المؤرخين . والمؤرخون لا يقابلون بين العرب والنصارى ، لأنهم لو فعلوا ذلك لكانوا كالذي يقيس أهل بوستن — مدينة في امريكا — بقبائل الاسكيمو ، وذلك عجب عجيب ، قال استانلي لين بول في شأن النصارى

الذين كانوا قد استولوا على شمالي إسبانيا في حينه: «كانت غزوات النصارى لعنة عظيمة على من يكون لهم فريسة. وكانوا خشناً جاهلين أميين لايقدر على القراءة منهم إلا قليل جداً. ولم يكن لهم من الأخلاق إلا مثل ما لهم من المعارف– يعني لم يكن لهم منها شيء–وأما تعصبهم وقسوتهم، فهو ما يمكن أن نتوقعه من الهمج البرابرة».

ثم قابل بعد ذلك بين المحتلين لنظام الفروسية في القرون الوسطى – يعني أشراف اسبانيا – وبين العرب (ص ١٨٩) ، فقال : « اتصف النصارى في شمالي إسبانيا بأقصى ما يمكن من مضادة أقرانهم العرب . جاء العرب تلك البلاد ، وهم عشائر بدو حفاة ، ثم رقت طباعهم إلى أن صاروا شعباً عالي الكعب في التمدن . يستلذون الشعر واللطائف الأدبية . وقد وقفوا جهودهم لخدمة العلم واستقراء مسائله ، وفوق ذلك كله قد عزموا على التمتع بلذات الحياة إلى أقصى حدّ ممكن . وأذواقهم العقلية كانت لطيفة فوق العادة وظريفة، فالموسيقى والخطابة ودرس المسائل العلمية بتعطش لامزيد عليه يظهر أنها كانت طبيعية غريزية لهذا الشعب الزاهر. وكانت لهم سجية معرفة النقد والولع بالمجاز والاستعارات الجميلة وتقديرها على النحو الذي ننسبه اليوم الى الأمة الفرنسية، أما نصارى الشمال. فكانوا بضد ذلك على أقصى ما يتصور، فكانوا جفاة غير مهذبين . ولم تكن آداب الفروسية التي أدخلها المصنِّفون في تاريخهم. لتخطر لهم ببال . وفقرهم الشديد جعلهم خدماً لكل مَن يريد استخدامهم، وكانوا يبيعون شجاعتهم لكل مَنْ يدفع لهم أغلى ثمن لها . فكانوا يحاربون لتحصيل القوت » .

ثم أرانا – يعني اسكوت ، أن (سيد) (٨٣) الذي لايزال حتى اليوم زينة لكتب الأدب . وزهرة من ازهار الفروسية النصرانية ، كان خائناً قاسياً غداراً ناقضاً للعهود لا إيمان له ولاذمة . يبيع سيفه وعواطفه من كلا الفريقين المسلمين والنصارى .

(٨٣) يقال انه من سنة ١٠٤٠ وطار حيته فى الحرب التى وقعت بين امير قشتالة شانسوو رئيس نفار وابى عبدالله ملك غرناطة ، وكان تارة مع النصارى وتارة مع المسلمين .

ومِس شارلوت ينج التي كانت لها الشجاعة الكافية أن تقول الحق في شأن العرب والنصارى منذ خمسين سنة ، لم تجد ما تسلي به دينها إلا شيئاً واحداً وهو قولها : « قد بلغ الأسلام أعلى درجات الألهام في زمان مدنية العرب في الأندلس ، ولكنه انقرض بعد ذلك . وأما النصرانية ، فأن لها آمالاً في المستقبل غير محدودة » .

وفي هذا خطأ مضاعف ، فالأسلام هو الذي ألهم العرب مدنيتهم ولكنه لم يمت ، والمدنية المستمرة التي جاءت في العصور الأخيرة ليست من النصرانية في شئ .

والحقيقة أن مدنيتنا الحاضرة لا علاقة لها بالنصرانية ، ولكن المدنية التي دخلت اوروبا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، كانت لها صلة كبيرة بالعرب ، أي أن مصدرها كان منهم ، فالنور الذي اشرق في اسبانيا ، لم يكن بدّ من أن ينبثق إلى اوروبا ، فالأسبانيون الذين استولوا بالتدريج على النصف الشمالي من اسبانيا ، عندما أخلد العرب إلى ارض الترف والبذخ ، وانحصروا في القسم الجنوبي الاندلس – لم يبقوا جامدين لا شعور لهم بثقافة جيرانهم – يعني أنهم اخذوا يقتبسونها ، وكان السيّاح والمسافرون من النصارى الذين يزورون مدن العرب ، يعودون إلى أوطانهم فيقصّون من من أخبار العرب وعلومهم وحضاراتهم الجميلة ما يهز النفوس ويشوقها إلى تلك الحضارة المتميزة الفذة .

٣ ـ مدينة النور والحب :

مدريد (مجريط) التي كانت في القرون الوسطى قرية مظلمة ، هي واقعة تقريباً في وسط إسبانيا ، وفي شمالها بالضبط سلسلة جبال وادي الرملة المتدثرة بالثلوج حتى حين مررت بها في الشهر السادس (جون – حزيران) ، وكان الجو حاراً . ولما انطفأت نار الغيرة وحبّ الفتح في قلوب العرب ، تركوا هذه الناحية الشمالية ذات البرد القارس لبقايا المملكة النصرانية ،

فانضم إليهم الغوغاء المجازفون من فرنسة ، وبمرور الزمن تألفت منهم أمة صغيرة ذات بأس وضراوة على القتال . أما كيف قاتلت هذه الأمة الصغيرة إلى أن استولت على إسبانيا كلها واستردتها تارة أخرى ، فهو حقيقة صفحة عظيمة في تاريخ العمليات العسكرية ، ويحق للأسبانيين أن يفتخروا من حيث هو استيلاء على الأرض ، ومن سوء الحظ قد قضى هذا الاستيلاء على المدنية قضاءً مبرما .

ولست بصدد ذكر العمليات العسكربة هنا ، والذي اريد بيانه ، أنه في سنة ١٠٨٥ استرد الاسبانيون اقصى مدنية في الشمال من أيدي العرب وهي طليطلة قاعدة ملك الأسبانيين القديمة . وهذه المدنية اليوم في حالة تدل على ما جناه الأسبانيون على المدنية في قضائهم على العرب . ولهذه المدنية موقع فريد لا تشـــاركها فيه مدينة اخرى . فهي مبنية على كوم من الصخور مرتفع عن الأرض . والنهر محيط بها من ثلاث جهات . وفي القرن العاشر كان يعيش في تلك المدينة (٢٠٠,٠٠٠) نسمة في غبطة وسعادة . وسيوف طليطلة مشهورة عند كل مؤرخ وخبري . لأن قيونها كانوا أمهر القيون في العالم وعند الكلام على قرطبة يمكن أن تجمع شيئاً من اخبار طليطلة المدينة العربية العظيمة . واليوم بعد مرور ثمانية قرون من استرداد طليطلة ، ترى سكانها نحو (٣٠,٠٠٠) ألفاً من الكسالى . يدبون دبيباً في شوارعهـا المهجورة الهامدة . ويعيشون على كرم الزائرين . ولما ركب الأسبانيون ودخلوها ، يتقدمهم رئيس أساقفتهم . حين رفست المدنية تحت الأقدام وتلاشت . شيدوا فيها كنيسة فخمة فيما بعد . ولكن من جهة اخرى انحطت المدينة إلى حال أنها صارت قرية كبيرة . فكأنما بنيت الكنيسة لخراب المدينة . والجسر العظيم الذي على النهر متين جداً ومفيد كثيراً فلذلك لم يقدروا على تدميره . وباب المدينة العجيب ، باب الشمس . قد أبقوا عليه . فهو يظهر اليوم تذكاراً محزناً لماضٍ مجيد . ينظر إلى الخراب . ويندب مجده البائد . وأما سائر المدينة

القديمة العجيبة ، فكأنها لم تغن بالأمس . ولو بحثت بجدٍ واجتهاد عن بقايا تلك العظمة الغابرة ، لوجدتها تلاشت وصارت كأمس الدابر . وتدور مبهوتاً في شارعها الرئيس ، وهو زقاق ضيق حيث كان ربع مليون من النفوس يعيشون في نعيم ، تطلب مكاناً طيباً تستريح فيه ، فيكون خاتمة تطوافك أنك تجد نفسك في حجرة قذرة ، تتغذى بين سائقي البغال والفلاحين. وانتحى مجد العرب نحو الجنوب إلى اشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ، وكانت طليطلة لذلك المجد كالطليعة . وكان الجنوب الشامس وطناً طبيعياً للعرب . ومن العجيب أن لا نجد إلا قليلاً ممن يعرفون أن قرطبة كانت تضاهي في عظمتها ومجدها بابل وروما وبغداد ، هذا مع أن عهدها ليس ببعيد . ومنظر قرطبة اليوم منظر محزن . ولا أريد ساليوم بهذا النوح والعويل الدائم الدائم أن أهيج أو احاول ان أهيج سخط الناس على الدين الذي ألهم الاسبانيين أن يبيدوا هذه المدينة العظيمة . وأنا أشدّ تأسفاً وتحسراً على خسارة النوع البشري مني على جناية أولئك الجناة . لو أن الممالك النصرانية عملت وترقت بالعمل الصالح الذي عمله اليونان في الشرق ، والرومان في ايطاليا ، وفرنسا وإنكلترا في شمال افريقية ، وبعمل هؤلاء العرب في طليطلة وإشبيلية وغرناطة، كيف كنا نكون اليوم ؟ لم عمت أفكار قرطبة وعلومها وتهذيبها جميع اوروبا لبلغت اوج المدنيّة وتقدم العلم فيها تقدما عظيما في القرن الثالث عشر ، ولكانت امريكا وسائر بقاع الأرض قد اكتشفت قبل تاريخ اكتشافها واستعمرت بحكمة وإتقان أكثر واسبق مما وقع لها ، وكان النوع البشري اليوم متمتعاً بثروة ورفاهية ورقي وحرية وسمو فكر مثلما سيكون حوالي سنة ٢٥٠٠ م .

فهل كانت قرطبة إلى هذا الحد عجيبة ؟ نعم ، كانت كذلك بالنسبة إلى القرن العاشر وبالنسبة إلى أي عصر آخر ماعدا زماننا هذا ، وكان بامكانها أن تعلّمنا دروساً كثيرة من فنون المعيشة .

لم يبق من آثار قرطبة في القرون الوسطى إلاّ أثر واحد ، وهو جامعها الذي لايزال حتى اليوم جميع أطفال قرطبة يسمونه مسجداً . ولولاه ما تجشم أحد عناء السفر لمشاهدة قرطبة ، ولو كانت على بعد خمسة أميال منه ولكن الناس من جميع انحاء الدنيا يسافرون إليها ليشاهدوه . وهو أعظم معبد في الدنيا بعد كنيسة القديس بطرس ، وهو آية لانظير لها من الهندسة والبناء ، وظاهر هذا المسجد لايستولى على اللّب . ولم يكن العرب ، الذين كانوا يفضلون الأقامة داخل البيوت أكثر من خارجها يهتمون نسبياً ، بالمظاهر كثيراً ، وأما في الداخل ، فهناك العجائب . إذا دخلت الجامع من أيّ باب من أبوابه التسعة عشر يخيل إليك أنك تائه في غابة من أشجار المرمر ، ففيه ثمانمائة وستون سارية رقيقة من المرمر والرخام واليسب ، وفيه غير ذلك ألف واثنتا عشر سارية . وفيه تسعة عشر رواقاً ، ينتهي كل منها بباب من الأبواب التسعة عشر ، وله سقف خشبيّ منخفض نسبياً زخرف أحسن زخرفة بالأرجوان والذهب . وفي الأعياد الكبيرة توقد مائتان وثمانون ثريا من الفضة والنحاس ، ليحترق فيها الزيت المعطر . وتتلألأ فيها آلاف كثيرة من المصابيح ، فتلقى أنوارها على ذلك المشهد : وأكبر ثريا منها كان محيطها ثمانية وثلاثون قدماً ، يحمل ألفاً وأربعمائة وأربعاً وخمسين مصباحاً . ولها مرآة تعكس النور ، فيزيد شعاعه تسعة أضعاف. وفيها(٦٠٠٠) طبق من الفضة ، مسمرة بالذهب ومرصعة باللؤلؤ . وكان الجامع قد شُيِّد مع مضافاته في القرن الثامن والتاسع والعاشر . والمحراب الذي هو أقدس محل في مسجد العرب ، كان فيه حنيتان ، وكان أعظم زخرفاً من سائر المسجد . وآخر المحراب يشبه صدفة من رخام ، وله مدخل يتلألأ كالذهب الخالص أو الديباج بفسيفسائه الجميلة . وأحيل القارىء على كتب زخرفة البناء أو كتب الاستدلال ، ليرى عجائب (هذا الجامع العظيم . وكان بناؤوه من النصاري المنتمين الى الكنيسة اليونانية . وكانت بينهم وبين العرب مودة فجلبوهم ابنائه) ، وهو أثر لمدينة زاهرة لايضاهيها اليوم شيء في الدنيا كلّها . وكان عبد الرحمن الأول مؤسس هذه الدولة ، قد جعل مدينة قرطبة على مثال مدينة دمشق

التي قضى فيها أوائل عمره . وهو الذي ابتدأ بناء الجامع ،وأتمه الخلفاء الذين جاءوا بعده ، وبلغت نفقاته على ماحدّث به مؤرخوا العرب(٠٠٠و٠٠٠و٣٠٠) دولار . وإنما كان هذا آخر عمل عمله في حياته ، وقد شيّد غير ذلك هو وخلفاؤه ورجال دولتهم قصوراً فخمة ومساجد كثيرة كانت تزيد المدينة كلّ سنة جلالة وبهاء . قدّر اسكوت سكان قرطبة في أزهى أيامها بمليون ، وآخرون قدّروهم بنصف مليون ، ولكنّ مؤرخي العرب حدثونا بأنه كان فيها عشرة آلاف قصر ، عشرة منها للملك ، و (١١٣٠,٠٠٠) دار و (٧٠٠) مسجد و (٩٠) حماماً عمومياً و (٤٣٠٠) سوق و (٥٠٠٠) طاحونة على شاطئ النهر والآن بعـد تقدمنا كلّه ، فقرطبة بلدة منحطـّة حقيرة ، سكانها نحو مائة ألف ، من ذوى المناظر الكريهة الأموات ، وإن كانوا يعدون من الأحياء .

وكان للمدينة القديمة شوارع مساحتها عشرة أميال ، كلها مضاءة ومبلّطة تبليطاً حسناً ، وإلى الآن لا نزال نطأ بتبليط العرب في كثير منها ، ومجاري مياهها كانت منظّمة جيداً ، ولا تزال مئات من الدور باقية ، فيمكنك أن نتصور معيشة أهل البيت العربي : تدخل من باب حديدي ضخم جميل ، ثم تمرّ في دهليز قصير مظلم ، فتصل إلى صحن الدار ، وهذا الصحن هو وسط البيت ، فنـرى هناك أزهاراً ورياحين وبسطاً من الحرير والفسيفساء المتلألئة والنقوش العربية الجميلة ، وتجد في كلّ صحن تقريباً فسقيّـة من المرمر ، كلّ ذلك يجعل المنزل مقاماً بهيجاً تحلو فيه السكنى ويطيب فيه العيش . وقد جلبوا الماء من أميال من نهر (سيرا) ، ثمّ وزّعوه على المنازل في أنابيب من الآنك . وكانت النظافة عند المسلمين فرضاً مقدساً ، حتى أنّ النصارى حين استولوا عليهم دمّروا الحمامات ! !

وعندنا وصف دقيق ، لقصر بناه عبد الرحمن ، على ثلاثة أميال من قرطبة . وإذا ذكرنا أنّ القياس ممكن ، فسنعرف شيئاً من معيشة أهل قرطبة في القرن العاشر . بُني القصر لتكريم امرأة ، وهي محظيته الزهراء ، فجعل

لها تمثالاً جميلاً من المرمر نصبه على باب القصر ، وكان يشتغل في بناء هذا القصر عشرة آلاف رجل وثلاثون ألف دابة ، وبقوا يعملون فيه سنين ، وينبغي لنا ان نفرض أنّ هذا القصر قد بهر مؤرخي العرب في ذلك الزمان ، فلم يقدروا أن يرووا تفاصيله على الحقيقة ، لأنّ وصفهم كان لايعتمد عليه تقريباً . فقد زعموا أنّ له خمسة عشر ألف وأربعة آلاف سارية جلبت من اليونان وإيطاليا وإفريقيّة وغيرها . والأيوان الأوسط كانت سواريه من المرمر والحجر الشفاف ، وكانت رءوسها مرصّعة باللؤلؤ والياقوت ، وكان جريدة سقفه من الذهب والفضّة ، وكانت جدرانه وقبّته من العقيق اليماني ، وكان له ثمانية أبواب من الأبنوس والعاج مرصعة بالجواهر ، وكان في القصر ثلاثمائة حمام فاخر مستجمع لشروط النعمة ، وكانت الحدائق واسعة جداً ، حتىأنّ الحيتان التي كانت في حياضـــها ، وكانت كلّهـــا من (السّمك الذّهبي) كان قوتها اليومي اثنى عشر ألف رغيف من الخبز . وكان عدد الخدام الذكور (٧٥٠و ١٣) وعدد الأناث (٦٣١٤) وعدد الخصيان والوصفان (٣٣٥٠) . وقد أخبرنا بما كان يستهلك ثمّ من الطعام يومياً ، بحيث لايخفى علينا منه أوقيّة واحدة . وكان طعاماً فاخراً هنيئاً مريئاً . وكان هناك غير من ذكرنا العساكر والموسيقيون والشعراء والراقصون ورجال الدولة والأدباء لقرض الشعر والاشتغال بالموسيقى ، بل حتى المباحثات العلمية والفلسفية ، كان لهما الاعتبار التام هناك . وكان الأعجاب بهما لايقصر عن الأعجاب بقدّ جارية حسناء أو عينين كحلاوين لخريدة محظيّة بيضاء في غلالة حريرية سوداء من غواني الحريم . وكان عدد حرس الخليفة الخاص اثنى عشر ألفاً من خيرة الجنود ، يلبسون أفخر الحرير ، ولهم مناطق مذهبة وأجفان سيوفهم كذلك كانت مذهبة ومقابضهـــا مرصعة بالجوهر والأحجار الكريمة ، وكان هذا القصر عاشر عشرة من القصور الملكية . وحوله كانت مساكن جميلة لخاصة الخليفة ورجال دولته المقربين وأرباب المناصب العالية . وكذلك كانت مدينة الزهراء

مدينة تسبى الألباب وتسحر العقول بجمالها ، وإن سألت عن حالها اليوم ، فهي في حالة لاتستطيع أن تشبع قليلاً من المعز . وكلّ شيء كان هناك ملكياً، والموسيقى والمغنى الخاص لعبد الرحمن الثاني كان أديباً من أعاجيب الزمان ، وكان مرتبه (٤٠،٠٠٠) دينار من الذهب في كلّ سنة ، وهو أكثر بكثير من مرتب رئيس الولايات المتحدة . وهــذا النعيم الذي لم يمضي عليه إلاّ أقلّ من خمسمائة سنة ، لم يحفظ منه الأسبانيون مثقال ذرّة . وكان يصبّ في خزائن الملك في كلّ سنة ، نهر مفعم من الذهب ، فيفيض منها على الأشراف والأمراء والأدباء والعلماء وكبار التجار وغيرهم . وكانت القصور الفخمة ممتدّة على شاطئ الوادي الكبير مسافة عشرة أميال ، وكانت أسواقها أغنى أسواق الدنيا ، فلم يسمع سامع بشيء من التوابل أو العطور أو المنسوجات الفاخرة أو الكتب الخطيّة النادرة أو البُسط والزّرابي البديعة أو آلات اللّهو في أي رجاء من أرجاء الدنيا ، إلاّ وقد جلبت إلى تلك الأسواق . وحال أمريكا اليوم بالنسبة إلى الدنيا القديمة هي حال الأندلس في ذلك الزمان بالنّسبة إلى غيرها من البلاد ، ولكن الأندلس كانت أعظم من وجهة المدنية . وكانت الحدائق العامة المعدّة للتنزه نزهة للأبصار ، وستعلم شيئاً من ولوع العرب بالحدائق والجنّات ، إذا رأيت الحديقة المعروفة بالقصر في إشبيلية ، وكان العرب يتوخون الجمال في كلّ شعبة من شُعب المعيشة .

والعرب أنفسهم كانوا صنّاعاً ماهرين في الأدوات المعدنية والجلدية ، وأحسن المنسوجات الحريرية والكتانية . وكانوا يصنــعون الفسيفساء العجيبة ، وينقشون النقوش الجميلة على الأواني والادوات المنزلية . وكانت لهم مهارة عظيمة في دهن الأواني الخزفية ، وكانو حاملي لواء زخرفة البيوت والقصور وزينتها ، وبلغوا في ذلك درجة عالية لم يعرفها أحد في الدنيا غيرهم ، وكانت لهم معادن كافية من الرخام والمــرمر ،ومع ذلك كانــوا يجلون المرمر من اليونان وإيطاليا وإفريقيّة . وكانت سفنهم تجلب المقادير العظيمة من خشب السدر

والعاج والأبنوس وأحسن التوابل والطيب الذي يمدهم به الشرق ، وكانوا يجلبون من هناك الذهب والفضّة والجواهر والمحار والحجر الشفّاف وحجر اللآزورد وجلود السلاحف وكلّ مادة معروفة من مواد الزينة . وكانت خزائنهم المالية عظيمة بالنسبة إلى عصرهم ، إلى حدّ أنّهم كانوا يسيطرون على الدنيا كلّها من الوجهة المالية ، وقد عرفوا كيف يقفون أموالهم على فنون المعيشة ، إلى حدّ لم يصل إليه إلا قليل من الأمم . وقصور الأشراف وأصحاب المناصب والأدباء ، كانت تقارب في الفخامة والسعة قصور الخلفاء ، وحتى منازل أرباب الحوانيت كان لها جمال ورفاهية محتها أعاصير النكبة التي أنزلها الأسبانيون بالأندلس . وعلاوة على ذلك ، فمات الحمامات المحشاة أطرافها بالمرمر والفسيفساء ، والحدائق العامة البديعة التي كانت ممتدة على شاطئ الوادي الكبير . كانت نعمة ورفاهية للناس جميعاً من الخليفة إلى أدنى الطبقات . وفي كلّ أمر من تفاصيل معيشتهم ، أبدوا سلامة ذوق لايمكننا نحن أن نأتي بها . والعشرون ضاحية التي كانت حول المدينة ، لم تكن أسماؤها : (بوتس فيل Pottsville) و (نيوتن Newton) بل كانت أسماؤها هكذا : وادي الفردوس ، والوادي الجميل ، وحديقة العجائب ، وهكذا . ولقد صدقوا ، فأنها كانت كذلك ، وكانت مبثوثة بينها المنازل البيض المشرفات . وحولها غابات الاترج والنخيل والسرو الواسعة وروضات الأزهار الغضّة الباقية طوال السنة تجري من تحتها الأنهار والجداول فالبحيرات والعيون والمخابىء ، والمغارات . وصفوف الأشجار ، وكل فكرة عند الفلاحين المتفننين في الغرس والزراعة ، وقد استعملت هناك مما تشتبهيه الأنفس وتلذّ الأعين . واذا اعتبرت النهر على الجسر العجيب الذي يبلغ طوله (١٢٠٠) قدم وارتفاعه فوق الماء (٩٠) قدماً ، تجد ضاحية حفت بالحدائق البهيجة والروضات الجميلة ، تسحر الألباب ببهائها . ولو لم يكن هناك سواها ، لكانت المثل الأعلى في المدن

وإذا انقضى العمل في كل يوم ، كانت قرطبة ترى معترك ضحك وغناء وذنوب يفوح عطرها ومباحثات عقلية دقيقة وموسيقى شجية بجميع الآلات التي كانت معروفة لذلك العهد . وكان العباد والزهاد في قرطبة كثيراً ، لأنهما كانت تحوى أعظم المعابد العلمية والدينية وفطاحل العلماء في الدنيا . وقد (سنّ) أحد الخلفاء ، وكان دينا — قانوناً يقضي ببناء مسجد في كل اثني عشر بيتاً ، ونفذ قانونه ، إلا ان الظرف واللطف كان هو الغالب . وأكثر الناس كانوا يلتزمون بالعبادات الأسلامية التي ينص عليها الاسلام ، ولكن لم يكونوا متعمقين في أصولها النسكية التقشفية . فلا دمشق ولا بغداد وحتى إنطاكية في اوج مجدها ، لم تكن مركزاً للسرور مثل ما كانت قرطبة ، في حين كانت اوروبا متدثرة بالخرافات الموحشة ، ولم تكن في الدنيا قط بلاد اسعد ولا أجمل ولا أنعم عيشة من الأندلس في القرون الثلاثة : العاشر والحادي عشر والثاني عشر للميلاد .

و أعظم مزية يمكننا أن نمدح بها عرب الأندلس ، هو أن نذكر أن شغفهم بالشهوات واستهتارهم باللّذات ، كان متحدا على نسبة سواء مع ولوعهم بالتمتع بالعلوم العقلية والمعارف الدقيقة المحققّة التي كانت منتشرة بصورة اوسع مما كانت عليه في روما او أثينا . ولم يكن في الدنيا كلّا ، ولا هو كائن اليوم ، بلد يكرم فيه العلماء والأدباء ويكافئون بالجوائز العظمى ، مثل ما كان في الأندلس . ولم يكن في الدنيا بلد غير الأندلس ، يحوي خرائز الكتب العجيبة والمدارس والكليات العامرة ، وجمعاً عظيماً من خيرة والكتّاب البلغاء وذوقاً عاماً في المباحث العقلية مثل ما كان في الأندلس ، والحلقات أو الدوائر الصغيرة من الرجال والنساء المهذبين الذين كانوا في إيطاليا يبحثون في الفنون والآداب في بدء النهضة ، إنما كانت تقليداً ضئيلا للعرب .

٤ ــ علوم العرب وآدابهم :

هناك حقيقة محزنة ودليل يملأ النفس غمّاً وأسًى ، يدل على أن الفكر البشري لايزال ناقصاً وبعيداً عن الرقي الحقيقي ، وذلك أن الذين يعرفون كيف يعيشون في كل عصر قليل ، وبعد مضي ملايين من السنين على وجود الانسان وستة آلاف سنة على حدوث المدنية والشعور بالوجود ، ونحن الآن نختصم في ما هو الأعلى للمعيشة ، وأكثر الناس لا يعرفون كيف يستعملون نعمها استعمالا موزونا . وتبعة ذلك معظمها يعود إلى النصرانية ، ولكن الطبقة العليا من اليونان والمثقفون المفكرون وصلوا إلى قريب من المثل الأعلى . وعندهم أن الحكمة كل الحكمة أن نعرف كيف نعيش – وذلك إنما يكون بترقية الجسم والعقل والأخلاق بعناية سواء وحماسة ســـواء . لا يفضل واحد من هذه الثلاثة على قسيميه بشيء ، وحتى أثينا كانت فيها معركة مستمرة لا نهاية لها بين الفلاسفة الاشراقيين أتباع زينو اعداء الاستهتار اللد وخصومهم السايبراتيين أنصار الاستهتار بالشهوات وزعمائه ، حتى أبو قراط نفسه لم يكن يعطي للجسم حقه خلافاً لما يعتقده فيه عامة الناس . ولا نقول : إن العرب وصلوا إلى درجة الكمال ، لكن مثلهم الأعلى كان معقولا وممتازاً ، والنصارى الذين يطعنون فيهم ينقبون في تواريخهم الواسعة ، وفي الاكثر في التواريخ الخسيسة التي ألفها اعداؤهم الأسبانيون غير الموثوق بهم – حتى إذا ظفروا على سبيل الندور بشيء من القسوة أو الخيانة او الفجور ، أخذوه فرحين . وأطالوا في شرحه بقصد التشفي والتشنيع . وكل مدنية تشعّ على عشرين مليوناً من النفوس السعيدة المغتبطة ، لابد أن يوجد فيها أمثال تلك الهفوات النادرة ، ولكن إنما يستغلها ويتجاهل الأخلاق الحسنة التي كانت غالبة عليهم ، المؤلفون المخادعون الذين يُضلون مَن يقرأ كتبهم ، بذكر أعمال استثنائية وقعت على سبيل الشذوذ والندور . لقد قرأت جميع التأليف التي ألفت في سيرة العرب مستند على ما كتبه المعاصرون لهم ، فرأيت يقيناً لاريب فيه ، أن أخلاقهم كانت

سامية . ومن فضائلهم انهم تجاهلوا الزهد والتقشف ، وتمتعوا في حياتهم بجميع اللذات التي يقض بها الاستعمال الحكيم للنساء والشعر والموسيقى . وأما غيرتهم على شرفهم وشهامتهم ، فهناك ألف قول وألف عمل يجليها في أكبر التأليف التي أُلفت في تاريخهم ، وقد ظهرت آثارها في شهامتهم المعروفة في الحروب .

وليس ظهورها بأقل من ذلك في تسامحهم مع السكان والزوار من النصارى مادامو مستقيمين في سلوكهم ، وفي معاملتهم ليهود بمقتضى الأخوة التامة ، وكرمهم الذي هو كنار على علم على المرضى اليتامى والأرامل والفقراء وكانوا يلتزمون بأوامر القرآن الأنسانية في الأحسان إلى المرضى والمحتاجين . وقد التزموا بتلك الأوامر تديناً وكرماً أكثر من الزام النصارى بمواعظ عيسى في مجلس وعظه بالجبل . واذا درست التواريخ حق دراستها ، ترى أنما يتبيجح به النصارى من كونهم متمسكين بأعمال الخير والأخوة التي جاء بها الوحي تراه يتضاءل ويتلاشى أمام ما عمله العرب المسلمون من ذلك ، كان عصر ملوك الرواقيين أتباع زينو في روما عصراً عظيماً في الخيرات والمبرات ، وكان عصر المسلمين في الأندلس عصراً عظيما في الأحسان والبر وأعظم منهما عصرنا هذا الحالي . وأما نصيب النصارى من عمل الخير والاحسان إلى المحتاجين من النوع البشري في سجلات التاريخ في القرون التسعة عشر الأخيرة فضئيل ناقص إلى حد يجعله مسخرة للساخرين ، والحاصل ان الطاعنين في العرب لا يستطيعون أن يغمزوهم إلا بالانهماك في الشهوات ، ولكن ذلك العيب المزعوم، سيكون مزية فخر إذا علمنا أن العرب كانوا يزنون مطالب النفس والعقل كليهما بقسطاس مستقيم ، وجيلنا الحاضر على ماورثه من تجارب سته الآف سنة من سير حكامها وروايات أديانها ، حتى اجتمع له في ذلك ما لم

يجتمع لجيل قبله ، منقسم إلى فريقين – ما عدا البؤساء الكومستوليين (٨٤). فريق يجدون في تهذيب النفس وترقية العلوم العقلية والفنون العالية ، ويحتقرون الشهوات ويواجهونها بوجه عبوس . والفريق الثاني قوم ذوو دماء حارة ، انهمكوا في الخمر والفسق ، وأطلقوا لأنفسهم العنان ، وأعطوها أقصى ما تريد من شهواتها ، حتى صاروا كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وكلا الفريقين معجب بنفسه ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وكل منهما يعيب الآخر ويرميه بالمثالب ، وكلاهما في ضلال مبين .

ومن المزايا التي اختص بها العرب ، أنهم يرون أن السعادة وكمال النعمة إنما هي في المعيشة التي كانت تكفل حظ النفس والعقل في التهذيب على السواء . وكانت الدرجة العليا التي أدركوها في الشعر ناشئة عن ذلك الرقي الموزون . وكل الطبقات من أصحاب الحوانيت إلى الخلفاء كانوا ينشئون وينشدون الشعر . وكثيراً ما ترى جماعة من الرجال والنساء في ليالي الصيف في حديقة غناء تعبق روائح رياحينها في ساحات البيوت الجميلة ، جالسين يتباحثون في الأشعار ، ويتنازعون بلطف في المساجلة في منتوجات أفكارهم . وكان ولعهم بالموسيقى ودرسهم لها يساوي شغفهم بالعلوم والآداب ، وكانت الأندلس حقيقة في تلك الأيام ارض غناء وغرام وأزهار ونوافح طيب .

ولكن هذا الشغف بالموسيقى كان مزدوجاً مع شوق أعظم منه إلى استقراء العلوم العقلية إلى حد كدنا نعجز عن فهمه فأين يوجد في عالمنا شخص يداني

---

(٨٤) طائفة فى امريكا ،استها انقونى كومستوك (Anlhony Comstoc) (١٨٤٤ – ١٩١٥) ، وكان متقشفاً ، وكان جندياً فى الحرب الداخلية الامريكية ، وكان يريد ان يصلح اخلاق الجيش . ثم دخل فى سلك الانساء وصار زعيماً للثورة على فساد الاخلاق ، ولكنه كان جاهلاً ، لانه كان يعظم امر الجزئيات ويهمل الكليات ، ومن المعلوم انه لم ينجح فيما حاوله .

زرياب القرطبي (٨٥) . الموسيقى الشهير الذي كان مرتبه (٤٠,٠٠٠) دينار ذهباً في كل سنة ، يعرف عشرة آلاف صوت من نغمات الغناء . وأنا لا أدري هل ذلك فوق مقدرة المغنين في عصرنا أم لا ؟؟ ولكني أعلم أنما عندهم هو جزء مما كان عند زرياب ، وكان عالماً بالعلوم العالية في ذلك الزمان ، كالجغرافية والطب والفلسفة مثلما كان عالماً بالموسيقى ، فاخترع عطوراً جديدة وأدهاناً لتجميل اللون ، وجلب الأغذية والعقاقير ، ووضع طرازاً صحياً للملابس ، وأصلح النظام السياسي ، وأوجد في الناس تهذيباً في الوجهة الاجتماعية ،وكانت نوادره وحكمة تروى حكماً وأمثالا في جميع بلاد الأندلس .

وأين يوجد حتى في هذا العصر الحديث ، ملك مثل الحكم الثاني ، الذي كان له شغف في العلوم ، حتى إنه كان له رجال يجمعون الكتب من جميع النواحي في إسبانيا واوربا ، حتى صارت خزائنه الخاصة تحتوي على أقل تقدير (٤٠٠,٠٠٠) وبعض المؤلفين يقول (٩٠٠,٠٠٠) كتاب خطيّ . وقد أضافوا الى الأشعار العربية والفارسية تراجم اشعار اليونانيين . وترجموا إلى العربية كتب ارسطو وأفلاطون وأقليدس وسائر كتب المتقدمين . وألفوا كتباً كباراً تبهر العقول في الطب والجغرافية والفلسفة والفلك والكيمياء والتاريخ . ومؤرخو ذلك العصر يريدوننا أن نعتقد أن الحكم كان عالماً بمضامين الخمسمائة ألف كتاب التي كانت تشتمل عليها خزائنه . وكانت تأليفه محل الأعجاب في جميع العالم ، ولم يكن مستبداً ارستوقراطياً من الوجهة العقلية ، وأنشأ في قرطبة عشرات المدارس غير ما كان بها من قبل ، وأمر أخاه (وزير المعارف) أن يسهل على جميع الناس اكتساب العلوم . والمؤلفون الذين يتجاهلون الحكم الثاني ويخوضون فيما وقع من عبدالرحمن الأول من القسوة على سبيل النذور والقلة ويفيضون في قسوة عبدالرحمن الثالث، يخدعون قراء كتبهم .

(٨٥) أصله من بلاد فارس ، سافر الى العراق وتتلمذ على اسحق الموصلى ، وقرّبه هرون الرشيد ، ثم سافر الى الأندلس ، ودخل قصر عبد الرحمن الثانى ، وتوفى بالأندلس فى حدود سنة ٨٥٢ هـ .

وهذه الغيرة على بث العلم كانت عامة في ملوك العرب ، ونظام التعليم عندهم يذكر بما كان من ذلك في روما الوثنية ، ويبشر بنظام التعليم في هذا الزمان . وكان ذلك وادياً خصيباً في صحراء الجهل الكبرى التي امتدت من القرن الرابع إلى القرن التاسع عشر ، لأن النصارى الاسبانيين اخرجوا مدارس الأمة ، كما فعل اسلافهم النصارى . واسكوت الذي هو أقوى برهاناً وأكثر تفصيلاً ، أخبرنا مراراً أن المعارف كانت منتشرة في جميع الطبقات : « كان في كلّ قرية مدارس كافية لحاجة أهلها وكان التعليم فيها قائماً على أفضل التسهيلات وأنفعها ، كل الأطفال الذين قعد بهم العدم عن التعليم ، كانت الحكومة تعتني بهم وتؤسس لهم مدارس مجانية على نفقتها (الفصل الثالث – ص ٤٩٧) .

وعلى هذا نقول : انه يتعذر أن يوجد فلاح أندلسي لا يعرف القراءة والكتابة ، في حين كان ملوك بقية اوربا لا يقدرون أن يكتبوا اسماءهم في توقيعاتهم ، وكذلك اشراف الروم من أعلى الطبقات لم يكونوا يقتدرون على القراءة والكتابة ، وتسع وتسعون ءفي كل مائة من أهل الممالك النصرانية كانوا أميين تماماً ، وكانوا على غاية من الجل لا يمكن تصورها ، أضف ذلك أن المعارف عند العرب كان معناه اوسع بكثير جداً مما كان في روما الملكية ، وكان لهم من الغيرة على العلوم مثل ما كان لهم من الغيرة على الشعر .

وكانوا يعتنون بالتعليم العالي ويعضدونه أكثر من التعليم الابتدائي ، فقد كان في قرطبة ثمانمائة مدرسة ، وكان التلاميذ يأتون من أقاصي الأرض ليتعلموا فيها ، وكانت للفقراء منهم دور اقامة اعدتها الحكومة مجاناً لهم ، ولهم فيها ارزاق من بيت مال الدولة تقوم بحاجتهم من طعام وشراب ولباس ، وكانوا يعطون زيادة على ذلك شيئاً من الدراهم معلوماً لكل واحد منهم ولم يكن هناك اختصاص في التعليم الا لمن يريد الختلص من بعض التبعات . وقد قال اسكوت : « إن الجامعات والكليات الأندلسية كانت متسامحة : ترحب باليهود والنصارى

والمسلمين على حدّ سواء » . وللعرب مثل سائر : « افترق العالم فريقيق : فريق لهم علم بلا دين ، وفريق لهم دين بلا علم ء» (٨٦) .

مَن ذا الذي لم يقرأ يوماً من الأيام ، في مدرسة العمر العجيبة ، تأسيس الجامعات الأولى الذي ألهمته النصرانية بزعمهم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؟ وفي سائل والعجب آخذ مني كلّ مأخذ : كم واحداً ممن قرأ كتابي هذا ، قرأ قط أن إسبانيا المحمديّة كانت قبل ذلك بثلاثة قرون ، كانت متعطشة حرى ولا حرارة المحموم للعلم ا للعلم الحقيقي — لالترهات مكاتب القرون الوسطى القشرية ، وكان العلم هناك بلاشك — عند العرب — مائة مرة أكثر انتشارا ، وكان هو الملهم الحقيقي لحركة المدارس والجامعات التي قامت في القرون الوسطى ؟ فانظر كيف يكتب التاريخ إلى اليوم متبعاً فيه هوى الدين يعني النصراني .

ولم تكن حرية الفكر في الأندلس ، التي أقل ما يقال فيها إنها كانت حالها أعلى وأجل بكثير منها في الممالك النصرانية ، لم تكن هي وحدها تغذي حبّ العلم والولوع به ، بل كان يثيره إجلال العلماء الذي زال من الدنيا بزوال دولة الأندلس ، ولم يرجع بعد إلى الدنيا ، ولم يكن الخلفاء يقتصرون على إكرام أكابر العلماء بالجوائز والصلات العظام من المال ، بل كانوا يتخذونهم أصدقاء خاصة وأصفياء ويولونهم أجلّ المناصب في الدولة والقصر . وكان لملوك العرب رأي صائب ينبغي أن يكون قدوة لجميع المدنيات ، وهو الرجال اللائقين بتدبير المملكة وإدارة شئوونها ليس البلغاء في الأقوال أو المكرة ذوي الكيد والدسائس ، بل رجال العلم الذين برهنوا على كفاياتهم بسمو أفكارهم

(٨٦) يريد ذلك قول الشاعر :

أصبحت فيمن له دين بلا ادب ... ومَن لـه ادب خالٍ من الدين
بقيت فيهم غريب الشكل منفرداً ... كبيت حَسان فى ديوان سحنون

وثقوب أذهانهم . ولم يكن العلماء في الأندلس يعيشون في المعامل المظلمة ، ونظر الناس واعتبارهم منصرف إلى الأشراف والأجناد ورجال السياسة . بل كان العلماء من أكثر الناس مالاً ونعمة ، وكان الناس لهم أشد حسداً ، ولم يكونوا يحسدونهم على قصورهم الملكية وكثرة خدمهم وحشمهم ، بل على علمهم . وهذا يدلنا على أن الأمة كلها كانت محتلفة بالعلم والأدب عارفة قدرهما . ولم تكن النساء محرومات من المشاركة في ذلك ، وتجد في تألف أسكوت كثيراً من فضليات الأديبات منهنّ . وترى أن النساء كن يساجلن الرجال في المحافل العامة ، حيث كان الحائزون قصب السبق في النظم والنثر ينالون جوائرز عظيمة .

ولاينبغي للأنسان أن يغلو ويتجاوز الوسط إلى الطرف الآخر ش فيزعم إن العلم في الأندلس كان قاصراً على زخرف القول والتطفّل الظريف ش أنّ الماهر في نسج الألفاظ . كان أسعد الناس حظاً يعيش الترف والكسل ! كلا ش فأنّ نشاط العلماء في أعمالهم كان مدهشاً فقـد وصلت إلينا أمثلة رائعة من بدايات علومهم التي تفوق نهايات غيرهم . وجريدة اعمال المشهورين من علمائهم بلغت من العظمة إلى حدٍ يكاد المرء ألاّ يصدّقها . ولكن أسكوت أخبرنا بأن كتّاب العرب – مع سعة خيالهم وإبداعهم في الوصف وتأنقهم فيه – صادقون فيما يذكرونه من الحوادث .

وقد نسبوا الى ابن الطفيل ألفاً ومائة كتاب في الفلسفة والتاريخ والطب ، وأنّ ابن حزم ألف اربعمائة وخمسين مجلداً في الفلسفة والقانون (الفقه) ، وكانت لهم معلومات عدّة تزيد مجلدات إحداهن على خمسين مجلدا . وعدد المؤرخين منهم يزيد على ألف على ما قيل . فللّـه كم ضاع من علم وأدب كان طعمة للنيران التي أوقدتها أيدي الرهبان حين : « طرد الأسبانيون الكفار من أوروبا » كما يزعم المدرسون . وكان قسم من تلك الكتب في علم الكلام ، فلا تستحق أن تعتبر هنا . كان علماء المسلمين قد جاءوا الأندلس من كل رجا

من أرجاء الدنيا، وأحياناً كان يتسرب إليها المتعصبون من أهل إفريقية فيؤيدون السلفيين الجامدين وينشأ غمام مظلم في سماء الوجهة العقلية الأسبانية بتافه قول من قال : « إنّ الضعف الوحيد الذي كان في أهل الأندلس إنما أتاهم من قبل دينهم » ، ومن الواضح أنّ أكثر علمائهم اختصاصاً بامور الدين هم الفلاسفة ، وإنهم صرحوا جهرة بذم علم الجدل الكلامي حتى الأسلامي منه . وكانوا يعرفون جميع ضروب الفلسفة : هنديّة كانت أم يونانية ، إلاّ أنّ أرسطو كان هو المعلمّ الأكبر في نظرهم . لما تكلم الشاعر الكاثوليكي دانتي في القرن الثالث عشر على الفلسفة لم يذكر ولا رجلاً واحداً نصرانياً ، إلاّ ذكر بعده ابن سينا وابن رشد ، وساوى بينهما وبين المعلم الأكبر في الشرف ، حيث سمى الجميع : « آل بيت الفلسفة » ، وذلك يدلنا على أنّ الفضل في النهضة الفكرية في أوروبا يرجع إلى العرب الذين أحيوا فلسفة اليونان بعد دروسها ، قبل النهضة الأخيرة الأوروبية بأربعة قرون .

وكان أرسطو يكره الهراء الذي يسمى فلسفة إفلاطون في الألاهيات وماوراء الطبيعة ، وكان أرسطو أفضل من عرفت العرب من الحكماء المتقدمين ، وأعظم تحقيقاً للمسائل العلمية . وإنه ليزيدنا عجاباً بهذه الأمة — أمة الشعراء وعشاق الجمال ، أنّهم قدسوا أرسطو حتى كادوا يؤلهونه . وما بلغ عمر ابن سينا ستة عشرة سنة ، حتى صار من كبار العلماء ، وصار وزيراً عظيماً وهو ابن ثلاثين . وأفيروس واسمه الحقيقي : ابن رشد ، هو الذي ألّف الشرح الشهير لكتاب أرسطو ، وذكره دانتي (٨٧) في كتابه : الكوميديا الألهية ، وهو الذي أثنى عليه حتى الراهب (سافونارولا Savonarolla) وقال فيه : « رجل كانت له عبقرية ربانية ، وكان مكباً على الدرس ومنهمكاً فيه ، حتى إنه لم يترك الدرس إلا ليلتين في حياته : ليلة عرسه ، وليلة وفاة والده » .

---

(٨٧) انظر لمحة من سيرته في الموسوعة العربية الميّسرة (٧٧٨) .

وكان ابن رشد ، وهو من فلاسفة العرب ، طبيب الأمير ورئيس قضاة قرطبة ، وقد خدم فلاسفة العرب العلم والفلسفة سـواء ، وكان على ذلك المتخصصون في العلوم هم الذين خدموا العالم أعظم خدمة ولا سيما الرياضيات والفلك والكيمياء والطب .

الفصول الطوال الثمانية والعشرون التي يحتوي عليها كتاب أسكوت ليست إلاّ إشارة مختصرة لأعمال العرب العظيمة ، ولا ينصفهم بأعاهم إلاّ مجلد ضخم .

وكان علم الهيأة من أجلّ علومهم التي هذّبوها ، وكان علماء الفلك في بغدادهم الوارثين لعلوم بابل والأسكندرية ، وانتقل ذلك إلى الأندلس . وكانت بيوت العبادة — المساجد — تستعمل مراصد لمراقبة حركات الأجرام السماويّة، كما كان في إبابل . فكانوا يرصدون النجوم على رءوس المنائر . ولعل الكدانيون علماء الفلك منهم . قد اكتشفوا كلّ مايمكن اكتشافه بالعين المجرّدة . ولكن علماء الفلك من عرب الأندلس . كانت لهم آلات ذات دقّة وإحكام ، مركبّة على رءوس المنائر . ولم يكن عندهم (تلسكوب) طبعاً ، وإن كانوا هم الذين وضعوا أساس علم النور والمرئيات . وروجربيكى (Roger Bacon ١٢١٤ — ١٢٩٢) الفليسوف العالم الأنكليزي ، مدين لهم بأكثر مما يتصّور المعجبون به من الكاثوليكيين . وكانت عندهم عشرة أنواع من الاسطرلاب وعدّة آلات أخرى عدا ما عندهم من الكرات الأرضيّـة والسماويّـة . وقد اكتشفوا أنّ (الصّاعقة) . وتسمى في غير إسبانيا من بلاد أوروبا : (النجم الثاقب) كتلة كثيفة تدخل جوّ الأرض . ولهـم رأي صائب في ارتفاع الهواء وقلة كثافته . ووضعوا جدول لحركات النجوم ، ووضعوا أوّل استنباط مدقّق لطول السنة . وأدركوا السّذوذ الواقع في مدار الأرض . ووضعوا رقوماً للتعاقب الاعتدالين .

والكيمياء الأولى لفظ عربيّ ، وكذلك الجبر . وهناك ألفاظ أخرى عربية تذكرنا بما للمسلمين علينا من فضل في الوجهة العلمية . لقد استنبط العرب المسلمون قواعد الكيمياء ، ولو أنّ مدنيتهم أبقى عليها واستمرّ تقدم ثقافتهم لكنا اليوم نعيش في عالم أعجب وأرقى مما نحن فيه . والعرب هم الذين اخترعوا البارود لا أهل الصين كما يتوهّم العامة ، ولست أعنى أنّ اختراع البارود نعمة ، وإنما ذكرته آية على خصب عقول العرب وأنّه من ثمرات علومهم ، وهم أول مَن صنع البندقيات ، وصُنعت المدافع في القرن الثالث عشر . ولا شك أنّ الكيمياء القديمة هي الصورة الابتدائية للكمياء الحديثة . ولقد كان فيها ضياع عظيم للأوقات في تتبّع الأوهام ، ولكن من الواضح أن يجتاز ذلك الطور قبل أن يصل إلى تحليل المركبات المادية وردّها إلى عناصرها الأولى .

ولهم فضل عظيم في السّبق إلى خدمة الطبيعيات لمهارتهم في الرياضيات ، ورسموا جداول للثقل النوعي أو الجاذبيّة الأرضيّة . وقدّروا تخميناً دقة الجاذبيّة الشّعرية نسبة إلى الشعرّة لدقّتها — وهم المخترعون الحقيقيون لبيت الأبرة المسماة عند العامة بالبوصلة ، وأمّا أهل الصين فأنما أوصلوا إلى العرب علم مناسبات الأبرة المغنطيسيّة ، والعرب هم الذين ركبوها في دائرتها ، واتحفوا الملاّح بهذه الآلة التي لاثمن لها عنده . واخترعوا الساعة الكبيرة ذات (البندول) والعجلة . واتقنوا الميزان ، وهم الذين أبدلونا الرقوم العربية بالرقوم الروميّة الثقيلة المتعبة ، وهم الذين استنبطوا قواعد علم النور والمرئيات التي هذّبها فيما بعد روجر بيكن ، ووضعوا قواعد الكهرباء التي بني عليها جربرت (Gerfert) مباحثه . وحتى علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) قد اشتغلوا في أساسه ، ووقفوا على السنّة الكونية في التفتّت ودرسوا طبيعة الصخور .

وأما علم المعادن ، فقد خدمه حكماء العرب في القرن العاشر . قال الدكتور وود ورد (Woodward) في كتابه (تاريخ علم طبقات الأرض (History of Geology) : « ومن الذين ألفوا في صورة المعادن وتركيبها الطبيب « ابن سيناء » ، « على حين كان العرب هم قادة العلوم في الغرب » . وقال الأستاذ فوربز (Forbes) في كتابه : تاريخ علم الهيأة (History of Astronomy) : « وابن رزفلة من أهل طليطلة أضاف تحسيناً عظيماً إلى الجداول الشمسية » . وقال الأستاذ ميال (Miall) في كتابه : تاريخ علم الحياة (History of Biology) : « عند الكلام في العلوم على وجه عام ، لقد تقدمت العلوم بسرعة تحت حكم الخلفاء » . وقال السير ادوارد ثورب (sir Edward Thorpe) في كتابه : تاريخ الكيمياء (History of Chemistrys) : « لقد تقدم علم الكيمياء الحديثة تقدماً معتبرا » ، والحقيقة أنك لا تجد علماً من العلوم إلاّ والفضل الأكبر فيه للمسلمين من أهل المغرب وأهل الأندلس . وأعظم من ذلك كله أنّ لهم الفضل علينا في إحياء العلوم وبثّ روحها وعزمهم العظيم على أن يجدوا قواعد صحاحاً لسنن الطبيعة الحقيقية ، وإن كانت منعت من التقدم بضعة قرون بسبب ضغط الكنيسة ، ولكن لم يمكن محوها من ذهن الأنسان .

وسجيّة الأنسانية الكاملة التي كانت متمكنة من العرب المسلمين ، حملتهم على أن يعنوا عناية خاصة بعلم الطب ، وكان علم الكيمياء عندهم في أوّل الأمر إنما هو علم إضافيّ لتكميل علم الطب ، أي علم العقاقير . ووجد العرب المسلمون في هذه الوجهة أمامهم عقبة كئوداً بسبب المتعصبين في التصدي لتشريح أموات البشر . ولكن لاشك في أنّ كبار مدرسي الطب العرب شرّحوا الحيوان ، بل لانستبعد أنهم شرحوا أجساد الأناسيّ خفية . وعلى كلّ حال فخدمة الأطباء العلمية ، كانت قد ارتفعت هناك إلى مستوى عالٍ ، وكانت بقية أوربا في الحضيض الأسفل وكان أكثر العلماء كيفما كان علمهم

ماهرين في الطب ، ويروى أنّ دور الأطباء ، حتى أكابر الأغنياء منهم ، كانت مفتوحة في كلّ وقت للفقراء ، وهم الذين أدخلوا كثيراً من العقاقير إلى أوروبا .

ولم يكونوا في خدمة التاريخ ، أقلّ حماسة منهم في خدمة العلوم والفلسفة والشعر . وتقدم علم تخطيط البلدان (الجغرافية) عندهم تقدّماً أساسياً ، لأنّ العرب كانوا ملاّحين شجعاناً حذّاقاً في الملاحة في وقتهم . فكانت رحلهم واسعة على قدر طموحهم وولعهم الشديد بحيب الاستطلاع والتنقيب . وليس فضلهم في خدمة علم النبات بأقلّ مما سبق ، لأنّ الخلفاء بعثوا العلماء لمراقبة الأعشاب والبقول عن كثب في جميع نواحي اسبانيا . وكانت حدائقهم غنيّة على مقتضى علم النبات تحتوي على طرائف الشرق والغرب . وكانت عندهم أيضاً طرائف أنواع الحيوان ، لدرس علم الحيوان ، ولهم ملاحظات وتنميهات في التاريخ الطبيعي تختلف عن القصص الجاف الذي يرويه أهل البلدان الأخرى .

وهذه الأخبار – وإن كانت مختصرة جداً ، فهي كافية في دلالة القارىء على أن العرب المسلمين هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة في أهم نواحيها . والحق أقول : إن هلال ثقافتهم الذي يبدي ويعيد المقررون في تقريره ببلاغة ، ويسمونه : « طرد الكفّار » ، قد اوقف رقي النوع البشري مدة من الزمان . ومهما كان ، فلم يمكن إطفاء أنوار علومهم كلّها ، ولهم اولا ، ثم لليونانيين الأقدمين بواسطتهم ، يرجع الفضل في ايجاد طلائع العلم من النصارى ككربرت وروجر بيكن وألبيرت الكبير (Albert she Great) ١١٩٣–١٢٨٠ م ، وكروسست (Robert grosseteste) ١١٧٥–١٢٥٣، فهم الذين علّموهم .

فاقرأ مثلاً سيرة كربرت ، تجده قد ولد في جنوبيّ فرنسة ، وتعلم في برشلونة ثم في جامعة قرطبة فكل ذرة من علمه المعبر جاءت من العرب المسلمين . فتح كربرت مدرسة في ايطاليا ، فقامت قيامة الرهبان وأثاروا الرعاع عليه ، فأحرقوا مدرسته وكسروا ادواته وشتتوا شمل تلاميذه . والحكام الماديون ، لم يسعهم إلا أن يكونوا عالمهم النصراني الذي ليس لهم غيره ، فمساعدتهم صار أسقفاً ، ومن مساخر التاريخ انه صار بعد بابا وسمّى : (سيلفيستر الثاني) وكان ذلك في أسفل عصور البابويّة . وبعد اربع سنين مات ، وهناك تهمة قويّة أنه مات مسموما ، فلعنت الكنيسة ذاكراه ، ثم هي اليوم تفتخر به .

لكنّ روح علوم العرب المسلمين الحقيقية لم يمكن قتلها ، فثقب نور مدنيتهم المشرق ضباب الخرافة والجهل ، ونتج شيئاً من الحياء ومكارم الأخلاق ، وحرّك رغبة اوروبا في العلوم العقلية . وفي القرن الحادي عشر (التالي لعصر قرطبة الذهبي) أخذت اوروبا تخرج من بربريتها ، ومعظم أسبابه التقدم السياسي الذي نشأ عنه التقدم الاقتصادي ، فصارت القرى مدنا ، والمدن الصغيرة امصارا ، والعامة احرزوا قسطاً من العلم ، والأشراف طمحوا إلى المعالي . ولما حصلت اليقظة الفكرية في الممالك النصرانية ، كان لزاماً أن تؤثر فيهم المدنية الأندلسية الزاهرة آثارها .

وليس هناك موضع ، اسفت على ضيق المجال فيه طبقاً لبرنامجي ، مثل ما أسفت عليه في هذا الكتاب ، لأن تاريخ العرب المسلمين العلمي عظيم ، وخدمتهم للنوع الأنساني عظيمة جداً ومهمة . وقد غمط أكثر المؤرخين حقهم ولعبت أيدي المؤلفين المتعصبين لدينهم – يقصد النصارى – دوراً ظعظيماً ، ومكروا مكراً كبارا في إخفاء فضلهم ، فوجب عليّ أن اقف وقتي أؤلّف على الأقل ستة كتب على الأقل ، مثل هذا في الأشادة باثارهم .

ذلك ما قاله مؤلف نصراني هو العالم الشهير المصنف الكبير جوزيف مككيب (Joseph maccab) الـذي ولـد سنـة ١٨٦٧ م وألف (٢٥٠) كتاباً من أهم الكتب في الفكر الحديث ، فيجلّه الأمريكيون حتى جعلوه أكبر عالم في الدنيا .

ولست أجهل أن المعلومات الواردة في كتابه متيسرة في المصادر الأندلسية ، ولكنني آثرت أن أنقلها عن كاتب غير عربي ولا مسلم ، حتى لا يتهم بالتحيز والانحياز ، وإنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نرى .

الكارثة

ولما ضعف أمر العرب المسلمين في الأندلس ، بسبب تفرقهم واختلافهم وتنازعهم ، غزاهم الأسبانيون ، وأخرجوهم من الأندلس مدينة بعد مدينة . ولا اريد أن استصغر من شأن الغزاة الأسبان وأعمالهم ، ولكن إذا حللّناها نرى أنها لا تشتمل على شيء من الخوارق ، إذ أعلنت الحروب الصليبية — أي الغزوات الدينية — وكانت من الفضاعة والقسوة مثل الحروب الصللليبية التي غزا فيها البابا أنوسنتا الثالث الألبجينيين (٨٨) . فالصلبان التي يزين

(٨٨) نسبة إلى (البجنس Albigens) ، وكانوا خوارج على الدين المسيحى ومبتدعين فيه فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وكانت عقيدتهم مشبعة بالزهد والتقوى ، ولكنهم كانوا يخالفون القسيسين ، وينقمون عليهم ماكانوا يرتكبونه من الفساد ، فاتحد القسّيسون وفى مقدمتهم البابا ، وعذّبوهم أشدّ العذاب ، وكانت غاية هؤلاء القسيسين الاستيلاء على الماديات من متاع الحياة الدنيا لاغير ، وبضوا مجازر ذبحوا فيها خلقاً كثيراً وقتلوهم تقتيلاً فضيعاً . وكان الألبجينيون قد اخذوا بشيء من ، المدنيـة ، ولكنّ المذهب الكاثـوليكى وقف عقبـة كئوداً في طريقهم ، وكان الباب انوسنت الثالث المغرور ، قد أعلن الحرب الدينية عليهم ، فظهرت حينئذ صفحة من افجع صفحات التاريخ ، وابرزت العصبية نفسها فى افضع صورة واحلكها ، وقتلوا آلافاً من اولئك المساكين . ومن المعلوم أنّ الألبجينيين دافعوا عـن انفسهم دفـاع المستميت ، ومع أنّ الكنيسة حشدت جميع قواها عليهم ، فقد خسرت كثيراً من العدد ، حتى كسرت شوكتهم واحرقت منهم مائتين فى يوم واحد ، واصبح تاريخهم احلك صفحة فى العصور المظلمة .
(جوزيف ماك كيب فى كتابه : حضارة العرب فى الأندلس ص (٦٤)

الأمراء والجنود صدورهم بها من الانكليز والفرنسيين والقشتاليين ، كانت هي الأذن في إطلاق العنان للنفوس الأمارة بالسوء في النهب والسلب والأعمال الوحشية (٨٩) .

تقدّم الصليبون ، وهم مزيج من كل جنس إلى قرطبة وإشبيلية في القرن الثالث عشر الميلادي ، ومن ذلك العهد أخذت قرطبة التي كانت في علياء المجد تتقلص وتتضاءل ، حتى صارت قرطبة القرن التاسع عشر الميلادي قرية حقيرة . ودمّر هؤلاء الصليبيون كل آية من)آيات العرب المسلمين في الأندلس وإن دقّت ، كما دمّروا ذكريات فنونهم ، حتى سووا كل ذلك بالتراب . نعم ، بقيت هناك منارة صغيرة ولكنها فخيمة ، تسمى : (جيرالدا) ، لتخبر العالم ماذا خسره في الأندلس . وقد عمد اولئك الهمج إلى الآلات العلمية فحطموها وجعلوها رميما ، لأنهم كما قال اسكوت : « كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً ، أن تلك الآلات خطرة ، ويظنون أنّها آلات جهنميّة لأعمال السحر واستخدام العفاريت » . وأخرجوا الكتب ، وكانت لا تُحصى كثرة ، وجعلوها أكوماً في الأزقة ، واوقدوا فيها التنيران . وأسلمت القصور المشيدة الجميلة والحدائق البهيجة لأيدي الخراب والضياع . ولما رأى الملك الأسباني أنه ليس له قصر ملكي في المدينة التي كانت أكثر المدن مساكن عالية وقصوراً فخيمة ، آفاق من سِنته . وبعث في طلب الصنّاع المتفننين والعَمَلة من العرب المسلمين ، فبنوا له : « الكزر » القصر الذي نزوره اليوم ، وحجراته مثل المقصورة المسماة : « مقصورة السفراء » ، تخبرنا أن العرب المسلمين كانوا يعرفون كيف يعيشون .

---

(٨٩) يعنى انه بمجرد حمل الصليب والتوجه لغزو المخالفين ، يحمل للغازى كل شيء يريده فيمن يغزوهم ، والصليب يشفع له وينقذه من آثامه وظلمه .
(جوزيف ماك كيب فى كتابه : حضارة العرب فى الأندلس ص (٦٥)

استراح الأسبانيون قرنين كاملين إلى جوار العرب المسلمين ، وبقي الشعبان عائشين في سلم وأمان كالأخوين ، وكان الاسباني بطبعه يحب أن يعيش مع جيرانه في سلام ، ويعظم الشعب الذي كان يراه بالغاً ذروة العبقرية . ولكن القسيسين الذين بلغوا في العصبية الحضيض الأسفل ، كانوا يضادون ذلك الميل ، فما زالوا يفتلون للحكّام في الذروة والغـــارب ، ويحرّضونهم على عدم التسامح في المدن النصرانية الجديدة مع القوم الذين كانوا هم بناتها وهم مزينوها ، وأخيراً نجحوا في مطلبهم ، وهو أن كل مسلم يوجد في بلدانهم يُخير بين أمرين : إما التعميد والتنصر ، وإما الجلاء(٩٠) فاختار العرب المسلمون الجلاء فرراً بدينهم وشعبهم ، ليعيشوا في جو أمانٍ واطمئنان ، فنشأت منهم مملكة في غرناطة عدد نفوسها ثلاثة ملايين نسمة ، وكان ذلك في القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو من مخازي الأمم النصرانية ، فالبلاد التي نشاهدها اليوم في غاية الفقر والخراب ، كانت هي فردوس اوروبة في أيام العرب المسلمين .

وقد جلب العرب المسلمون مياه كثيرة من الجبال وأعالي الأنهار ، بسبب علمهم ونشاطهم اللذين ليس لهما نظير ، فوصلت الفلاحة والغرس بذلك إلى أوج رقيهما . قال اسكوت : « للقد فاقت في علوّ قدرها وأهميتها في نتاجها العملية ، جهود جميع الأمم المتقدمة والمتأخرة » ، ومقابلة زراعة العرب

(٩٠) ويناسب هذا المقام ، ماورد فى كتاب : (ماذر أمريكا = الأمّ أمريكا) للدكتور بوز الهندى ، فيمـا نقله عن القسيس الأمريـكى : (كيلكى Gilkey من اكابر علمـاء أمريكا ، وهذا معناه : « هـل نحن الأمريكيين نصارى حقيقة ، أم الشرقيون هم النصارى حقاً ؟ نـرى أنّ الشرقيين يؤمنون بالمسيح ويتبعون أوامـره ، ويستنكفون عن اتباع مذاهب الغربيين ، فيجب علينا معاشر الأمريكيين اما ان نثبت ادعاء اننا ، واما نتركها نهائياً ، لأننا نرى فى الشرق أنّ الأجنبى يعامل بكلّ لطف واحترام ، ويبذلون كلّ جهد فى اِسعافه بما يحتاج اِليه . وكم منا يعامل الشرقيين كما ينبغى أن يعامل به البشر » .
(جوزيف ماك كيب فى كتابه : حضارة العرب فى الأندلس ص (٦٦)

المسلمين بما كانت عليه اوروبا من البؤس والعدم على وجه العموم ، تجعل لها اعظم وقع في النفس والنتجية أن الأقوات كانت كثيرة ورخيصة في الأندلس ، وكانت أنواعا مختلفة ، وصارت غرناطة مثل قرطبة غنية وجميلة جداً . وكانت جنات الكرم والتوت الواسعة تؤتى أهلها أحسن الخمور وأجود الحرير . وكانت الفُرَضُ (٩١) التي وراء الجبال على المحيط ، تمدهم بجميع الطرف ومواد النعمة والرفاهية النادرة التي كانت توجد في قرطبة . وكانت الصناعات العربية الاسلامية أيضا في اوج ارتقائها ، وكانت هناك مقادير عظيمة من الجواهر تجعل فيها من الزينة والزخرفة مالا يأني عليه الوصف ، وكان ذلك الزخرف في الأسلحة البديعة والحلل الفاخرة والأثاث النفيس .

ومن حسن الحظ ، بقي قصر الحمراء الملكي ، ليرينا الجلالة والتألق والابداع في فنون العرب المسلمين الأندلسيين ، وحتى هذه الدرّة ، أصابها ما أصابها على يد الأسبانيين ، وكانت سائرة في طريق الخراب ، لولا أن بقية أوربا وأمريكا أجبروهم على أن يقنوا شيئاً من الحياد ، وحتى في هذا اليوم يجد فيها الأنسان معنى لفظ : « ارض عبقر » حين يخرج من دهليزها المظلم إلى عرصة الأسود ، فيرى سواري المرمر الدقيقة كأغصان البان ، ويتملىّ بالنظر إلى سطور الأساطين المستقيمة وسقوفها المصبوغة بالألوان الزاهية ، إذا نظرت إليها خلتها زرابي أعجمية مرقّشة ، او رياض ازهار بهيجة ، قد اشتبكت فيها اشجار الصناعة العجيبة . ولها طنوف مشرفة ، قد أُفرغت في قوالب بديعة ، يحار الواصف في وصفها . أما جدرانها ، ففيها من الترقيش العربي والتشجير والزخرف والأمثال والحِكَم المسطورة بأجمل شكل يذهل العقول ويروّع الناظرين . ولكن ينبغي لنا أن نتصورها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، حين كانت الثياب التي تُرى فيها كلّها من الحرير الخالص

---

(٩١) تعرف عند العامة بالموانى .

وحين كانت جدرانها تتلألأ بالألوان اللازوردية والأرجوان والذهب ، وحين كان الآس والاترج والورد ومباخر الفضة يحترق فيها عود الطيب تفعم جوّها بالروائح الطيبة . وكانت على الجبل المجاور لها وسهوله الواسعة الأرجاء عشرات الألوف من القصور الفخام التي لا تقل جمالا وإبداعاً في الذوق عن الحمراء ، إلا أنها أقل تلألؤاً بالذهب والفضة والجواهر . قال اسكوت : « ماذا عوّضنا الغازي الصليبي القشتالي الهمجي تلك القصور ؟ وأي فائدة يجنيها النوع البشري من وراء تخريبها ؟ ! فليجب عن هذا السؤال أولئك الذين يمجدون طرد (الكفّار) من اوروبة . وكان الأسبان قد حشدوا جنداً عظيماً . أما العرب المسلمون فقد نقص عددهم من ثلاثين مليوناً إلى ثلاثة ملايين . ولم يكن ملك الأسبان فرديناند (٩٢) وملكتها إيزابيلا (٩٣) عديمي

(٩٢) فردينـاند الخامس (Ferdinand) ملك قشتالة وليون (١٤٠٥ – ١٥١٦م) تزوج بابنة عمه أيزابيلا سنة ١٤٥٩ م ، وكانت ابنة الملك هزى الرابع ، وانما تزوج بها ليتخذ ذلك وسيلة الى نيل الملك بلامشقة . ولما مات الملك المذكور اجتهد فرديناند ان ينادى بنفسه ملكا ، ولكن ايزابيلا كانت داهية مكارة ، فرأى فرديناند أنه لا يتمكن من اخضاعها ، فاتفق معها على أن يتشاركا في الحكم ، وكانت اخلاقه سيئة ، يدل على ذلك أعماله الرذيلة التى ملأ بها حياته ، وكان يفخر انه خدع لويس الثاني عشر ملك فرنسا اثنتي عشرة مرة . كما نقض عهـده الذى اعطاه الى كريستوفر كولومبوس ومن المحقق انه كان كلما عقد معاهدة مع اى شخص كان ، يترك فيهـا الفاظاً يمكنه أن يتخذها وسيلة لنقض العهد . وكان يضطهد العلماء الذين لا يوافقونه ويقتالهم ، (انظر جوزيف ماك كيب – حضارة العرب في الأندلس ص ٦٨ .

(٩٢) ايزابيـلا (Jsabella) (١٤٥١م – ١٥٠٤م) ملكة قشتـالة ، استولت على الملك سنة ١٤٧٤م ، داهية مكارة متعصّبة ، بذلت جهدها في تجديد المحنة وتعذيب المسلمين ، وارتكبت خطايا كثيرة باسم الدين . واما أحوالها الخاصة فلا تغبط عليها ، لانها كانت تفتخر بأنها لم تغتسل في حياتها الا مرتين : يوم ولادتها سنة ١٤٥١م ، وليلة عرسـها سنة ١٤٥٩م ، وغسّلت حين ماتت سنة ١٥٠٤م ، فتمت لها الغسلة الثالثة ، والحقيقة أنها لم تغتسل بأرادتها الا مرة واحدة ، وهى في ليلة عرسها ، لأن غسلها يوم ولادتها وغسلها يوم موتها ليس من عملها .
جوزيف ماك كيب – حضارة العرب في الأندلس (٦٩) .

شهامة وعظمة كشهامة العرب المسلمين وعظمتهم فقط ، بل لم يكن لهما شيء من المروءة العامة والحياء ، أغار هذا الملك على اموال العرب المسلمين ، فنهبها وتركهم يموتون جوعاً ، وبذلك قهرهم وألجأهم إلى التسليم . حتى المسيحية الليدي تشارلون بونج ، رق قلبها لما أصاب العرب المسلمين ، فقالت في ص (١٩٠) عن كتابها تذكر العهود والمواثيق التي اعطاها اذلاسبانيون العرب المسلمين والشروط التي اشترطها العرب المسلمون عليهم ما نصته : « تكون غرناطة حرماً آمناً لكل من يلتجيء إليها من المسلمين من جميع الأقطار ، ويكوش لأبي عبدالملك (الملك) ضيعة في ارض البشرات (البوجارا) ، وأن جميع السكان حتى الذين اسلموا من النصارى يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبيوتهم وسلاحهم وخيلهم ، ولا يُسَلِّمون إلا اسلحتهم النارية ، وأن يتمسكوا بشريعتهم وعاداتهم ولغتهم ولباسهم ، وأن تكون مساجدهم مصونة من أي استعمال في غير عبادتها . وأن دعاويهم تفصل على أيدي قضاتهم الحكمين من قِبَل الحكام الأسبانيين ، وأنهم يؤدون لملك قشتالة من الخراج مثل ما كانوا يدفعونه لملوكهم لا غير ، وأنهم يعفون من دفع الخراج مدة ثلاث سنين ، ليستجمعوا ويستردوا ما فقدوا من أموالهم بسبب الحرب والحصار (٩٤) .

ثم أخذت المؤلفة النصرانية المسكينة تتململ في سائر ما بقي من صفحات كتابها ، من أجل غدر الملك والملكة الأسبانيين ونقض عهودهما التي أعطياها العرب المسلمين ، إذ لم تشعر الملكة الناسكة بوجوب معاملة العرب المسلمين بمقتضى الشرف ، بل لم تشعر إلا بشيء واحد ، وهو أنه يجب أن تؤسس « مملكة نصرانية » ، كاد الناس يتميزون من الغيظ كيف يتولى عليهم حاكم محمّدي كافر ! أخذ من المسلمين أحد مساجدهم ، وجعل كنيسة : « وكان ذلك نقضاً للعهود » كما قالت المؤلفة النصرانية ، ونفى المسلمين وعوملوا بأقسى معاملة بربريّة .

(٩٤) انظر التفاصيل في نفح الطيب (٦١٥/٢ — ٦١٦) وانظر النص الاسباني في : نهاية الأندلس (٢٣٠ — ٢٣٩) .

ولم ينجح القسيسون في تنصير العرب المسلمين ، مع أنهم احرقوا مصاحفهم وكتبهم كلها علانية ، وجُعل أمر المسلمين من الوجهة الدينية إلى رئيس أساقفة طليطلة « المقدّس » زيمنس . وباختصار فقد نقض كل سطر ممن سطور المعاهدة ، وغدر الأسبانيون وأهانوا عهودهم ، فهاجر قسم عظيم من المسلمين تاركين واراءهم كلما يملكونه ، ورحلوا إلى إفريقية ، ولكن القسم الأعظم بقوا هناك ينافقون بأظهار النصرانية ، ومَن لم يقبل النفاق منهم صاروا عبيداً للنصارى الغادرين . ثم جاءت المحنة : «محاكم التفتيش» ، فحرم عليهم كل شيء من امور دينهم ، حتى الاغتسال في حماماتهم ، ونهبت مئات من بيوتهم وطردوا من البلاد التي مدّنوها وعمروها ، ولم يبق منهم هناك إلا العجزة الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فكانوا يسجدون للمسيح في الملأ ، ويبصقون عليه في خلواتهم ، لأن الكاثوليكيين لم يحسنوا معاملة المسلمين ، ولم يكن لهم علم ، فكانت أعمالهم وأقوالهم ناشئة عن الجهل المطبق بعيد عن التحقيق والعدل .

يقول ستانلي لين بول المؤرخ اليقظ ، بينما كان زيمنس (٩٥) رئيس محاكم المحنة في اسبانيا يصدر اوامره بمنع المسلمين من الاستحمام ، واختيار صفة الوسخ التي يتصف بها مستعبدوهم ، كان نصف أهل اوروبة يرفضون دعاوى الفاتيكان ويتخذونها سخرياً ، وكان العلماء يضعون العلم الحديث .

---

(٩٥) زيمنس (Ximens) _ (١٤٣٧ _ ١٥١٧م) ، كان رئيس الأساقفة ، وفي اوائل ايامه وقعت عداوة بينه وبين المطران الكبير في طليطلة ، فحبس مدة من اجل مكايده ، ثم تعين قسيساً خاصاً لسماع اعترافات ايزابيلا ، وكان يتظاهر الزهد والتقشف والورع الكاذب ، ولما استولى فرديناند وايزابيلا على غرناطة ، دعواه ليكون في خدمتهما هناك ، وهو الذى اشار عليهما بالكيد للمسلمين والغدر بهم ، ولم يقتصر على اتلاف جميع النسخ التى ظفر بها من القرآن ، بل كان يتلف كل ما وصلت اليه من الكتب العلمية والأدبية ، وهو الذى امر بنصب محاكم المحنة ←

ذلك ما ذكره جوزيف ماك كيب في كتابه حضارة العرب في الأندلس ، وما ذكره معروف بالتفصيل في المصادر العربية القديمة والحديثة ، ولكنني أثرت أن اقتبس ما ذكره هذا المؤلف المسيحي وغيره من المؤلفين المسيحيين ، لأنهم مسيحيون يتحدثون عن جرائم الأسبانيين المسيحيين في التخريب والتدمير واكتساح الحضارة والظلم والقتل والنهب والسلب والتنصير قسراً ، خلافاً لما فعله العرب المسلمون بالأسبانيين النصارى أيام الفتح الأسلامي للأندلس ، فما أكرهوا أحداً على اعتناق الاسلام ، ولا ظلموا أحداً ولا خانوا عهداً ، وتركوا أهل أسبانيا النصارى يمارسون عبادتهم بحرية في كنائسهم ، وكان بأمكانهم في أيام الفتح الا يتركوا اسبانيا واحداً يصر على التمسك بالمسيحية ، ولكنهم لم يفعلوا ، إذ : « لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشد من الغيّ » .

وهذا هو الفرق العظيم بين المسلمين إذا حكموا وقدروا ، وبين غيرهم إذا حكم وقَدَرَ ، كأن الشاعر حَيْصَ بَيْصَ أرادهم بقوله :

حَكَمْنَا فكانَ العفوُ مِنا سَجِيَّةً
فلما حكمتم سال بالدم أبطحُ
فحسبكمُ هذا التفاوت بيننا
وكلّ إناء بالذي فيه يَنضح

(التفتيش) وتعذيب المسلمين تعذيباً كاد يحدث ثورة . وحينئذ ظهر بمظهره الحقيقي ، فأخذ يعيش عيشة الملوك . حتى انه لما مات فرديناند ، قام زيمنس ونصب نفسه نائباً للملك شارل ، لانه كان غائبا . وتمتع برئاسة الوزارة عشرين سنة ، ثم عزل ، فمات غماً من أجل عزله . وكان قاسي القلب ، شديد الحقد لكل من يخالفه في الرأى ، ولو كان من اهل دينه . وكان رئيساً لمحاكم التفتيش ، فقتل لفين وخمسمائة شخص ، وتحمل اثم دمائهم في ذمته ، ولا شك ان اعماله القاسية احدثت ثورة ، ولكنه قضى عليها بمكره . وكان لا يستنكف ان يكون قائداً للجيش بنفسه ، متى اقتضت المصلحة ذلك ، انظر جوزيف ماك كيب ـ حضارة العرب في الاندلس (٧٢ ـ ٧٣) .

وليس من الممكن اتهام الامريكي جوزيف ماك كيب بالافتراء على بني جنسه ودينه والانحياز للعرب المسلمين ، لذلك آثرت اقتباس أقواله في هذه الدراسة .

وحريّ بي أن أنقل تلك العبارة الموجزة القويّة ، التي يُجمل فيها الدكتور (لي) ، وهو من أحدث الباحثين في هذا الموضوع ، مأساة العرب المتنصرين ، إذ يقول في مقدمة كتابه : « إن تاريخ الموريسكيين (٩٧) لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء التي اتحدت لتنحدر بأسبانيا في خلال قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس ، إلى ذلتها في عهد كارلوس الثاني » (٩٨) .

---

(٩٦) نظافة البدن التى كان الأقدمون يعتنون بها كل الاعتناء ، اهملت كل الاهمال بعد انقراض دولة الروم ، حتى أن أهل أوروبا لم يكونوا يغتسلون الا في أحوال خاصة ، وناهيك نهم كانوا يفرضون الغسل على من يريد الدخول في جماعة (تايتس) وهم أمراء الحروب الصليبية ، ولذلك كانوا يسمونهم : فرسان الحمام . وكان الملوك والملكات يقتدون برعاياهم في عدم النظافة ، حتى أن الملك العظيم لويس الرابع عشر لم يغتسل قط ، بل كان يكتفي بالادهان بالعطور ، ولم تكن توجد حمامات في قصور الأمراء والأغنياء ، الا في القرن التاسع عشر الميلادى ، انظر جوزيف ماك كيب ــ حضارة العرب في الأندلس (٧٣) .

(٩٧) الموريسكيون Morisques هم النصارى الذين تدينوا بدين الاسلام عن رضى وطيب خاطر ، بعد دخول المسلمين الى الاندلس ، فلما تغلب المسيحيون على المسلمين وارادوا اعادتهم الى ملتهم الأولى ، فضلوا الهجرة الى بلاد الاسلام في المشرق والمغرب . اما كلمة : (مستعرب Mozarabe) فكانت تطلق على المسيحين الذين كانوا يعيشون تحت سلطة المسلمين ، وكانوا مع ذلك يستعملون اللغة العربية في جميع شئونهم العادية . اما كلمة : مُدَجَّر فتطلق على (Mudejar المسلمين الذين كانوا يعيشون تحت نفوذ المسيحيين ، انظر مقال : مع الموسكيين في بلاد الغربة ــ محمد محى الدين المشرقي ــ العدد ٢٤٩ من مجلة دعوة الحق المغربية ــ ص (٣١) ــ ١٤٠٥هـ .

(٩٨) نهاية الأندلس (٤) ــ محمد عبدالله عنان ــ ط ٢ ــ ١٣٧٨هـ ــ القاهرة .

ويعلق النقد الغربي الحديث على موقف الاسبانيين من العرب المسلمين بقوله : « ولو نفذت هذه العهود (العهود التي قطعت لمسلمي غرناطة) بولاء ، لتغير مستقبل إسبانيا كلّ التغيير ، ولجمع الامتزاج الرفيق بين الأجناس ، ولغاض الإسلام مع الزمن (٩٩) ، ولتفوقت المملكة الأسبانية في فنون السلم والحرب ، وتوطد– قوتها ورخاؤها . ولكن ذلك كان غريباً على روح العصر الذي انقضى ، وأفضى التعصب والجشع إلى المطاردة والظلم ، وأنزلت الكبرياء القشتالية بالمغلوبين ذلة مروعة ، فاتسعت الرشوة بين الأجناس على كرّ الزمن ، حتى استعصى الموقف ، وادى إلى علاجٍ كان من جرائه أن تحطم رخاء اسبانيا » (١٠٠) .

وعلى نفسها جنت براقش ، فقد كانت الأندلس بالمسلمين أستاذة الدول الاوروبية علماً وحضارة وفكرا ، وصناعة وزراعة وثراء ، فأصبحت إسبانيا بدونهم في الدرك الأسفل من دول اوروبة علموحضارة وفكراً ، وعصناعة وز راعة وثراء ، وكانت الأندلس أقوى دولة اوروبية بالمسلمين ، فاصبحت من بعدهم أضعف دولة اوروبية على الأطلاق . وقد خيل للذين طردوا المسلمين وشردوهم وفتكوا بهم في الأندلس أنهم احرزوا على الأسلام نصراً حاسماً ، ولكنهم تيقنوا بعد أن سبق السيف العَذَل أنهم احرزوا على أنفسهم لا على الأسلام نصراً حاسماً . وانهم خربوا بلادهم بأيديهم جهلاً وتعصباً وغرورا .

والدرس الذي ينبغي ان نتعلمه من مأساة الفردوس المفقود ، أن المسلمين انتصروا بعقيدتهم الراسخة ووحدتهم الصلبة : فلما تهاونوا بعقيدتهم ، وتفرقوا شيعاً . خسروا بلادهم وخسروا أنفسهم وذلّوا .

ذلك ما ينبغي أن نتعلمه من مأساة الفردوس المفقود ، ولا ينبغي أنْ ننساه أبدا .

(٩٩) في ذلك نظر ، ولا أتفق مع راى المؤلف في هذا .

Dr. lea : the Miriscos, P. 22

وقفة عند المقالة الرابعة
في كتاب الفهرست لابن النديم

الدكتور نوري حمودي القيسي
عميد كلية الاداب/جامعة بغداد

أن اية دراسة لمفهوم التراث ، ومحاولة استقصاء المراحل التي قطعتها مسيرته لا يمكن ان تحقق الغاية المطلوبة اذا لم تقف على الاسس السليمة التي قامت عليها حركة التدوين الاولى والركائز القويمة التي اعتمدتها والمنهجية الدقيقة التي اخذت بها فلكل بعد من تلك الابعاد منهج له اصوله ، وطريقة لها وسائل بحثها ، وقواعد ، احكمت ضوابطها ، ولعل دراسة جادة وتحليلا علميا دقيقا لطريقة الاسناد التي اعتمدت في نقل هذه العلوم تؤكد الدقة والضبط والاحكام الذي هيأ لهذه العلوم الوسائل الكفيلة بالابتعاد عن كل وضع وحفظ أصولها من كل تحريف وقطع الاسباب التي تبيح لكل الوضاع ان يعبثوا بتراث هذه الامة . ممن لم يتجاوزا ايمانهم حناجرهم . ولعل في قصص ابن ابي العوجاء (١) وما قيل في احاديث التفسير وما صنعه البخاري الذي اختار احاديثه الصحيحة من ستمائة الف حديث كانت متداولة في عصره تضع امامنا المهمة الشاقة التي تحمل اعباءها العلماء الاجلاء وهم يتابعون الخبر ويحققون السند ويستقصون

---

(١) عبدالعلي محمد ابو العياش ، شرح مسلم الثبوت (لكنو ١٨٧٨) وابن طاهر البغدادي الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم (ليدن دائرة المعارف الاسلامية ١٣٢٨ هـ) ص ٢٥٦ (القاهرة د.ن ١٢٩٤ هـ) ص ٦٣

اخبار الرواة ويلزمون انفسهم الكشف عن معايب اداة الحديث وناقلي الاخبار مجرحين بعضا ، ومعدلين البعض الاخر .

واذا كانت طريقة جمع الحديث او العلوم المتصلة به قد اخذت هذا الاتجاه وسارت في هذه المسالك حماية لها وحفظا على صحتها ، فأن علوم العربية الاخرى قد خضعت لهذا الضبط وهي تؤخذ نقلا عن الرواة وتدون عن الاعراب الذين كانت تخرج اليهم قوافل العلماء . وفي رواية ثعلب عن ابي عمرو الشيباني مايؤكد هذا القول وهو يقول عنه«دخل البادية ومعه دستيجتان من حبر فما خرج حتى افناهما بكتب سماعه عن العرب (٢) .

ان البداية الاولى لجمع هذا التراث تمثل الحلقة الاولى لجمع الرصيد المتوفر والنقلة الاساسية لتحقيق الوجود الذاتي الذي بدأت اجزاؤه تتوحد في في اطار مراحل الرواية والتدوين بعد ان ظل فترةطويلة يروى شفاها ويتناقل على الالسنة . وان المحاولات التي بذلت كانت تأخذ طريقتين ، يتأكد في الطريقة الاولى العامل الديني الذي تدخل فيه كل اسباب الحرص والمحافظة على اللغة والتاريخ والادب . ويتجلى في الثانية العامل القومي الذي يحرص على بقاء اللغة نقية من اللحن بعيدة عن انتشار الغريب والدخيل بعد ان ازدحمت موجات الموالي الذين خيف من لسانهم على فصاحة العربية لغة القرأن الكريم . وفي حدود هذين العاملين كانت اسباب التدوين تأخذ طريقها . وعوامل التأليف تشد عناصرها لتظل حركة الاحياء التي يشهدها القرن الثاني والثالث الهجريان البداية الثابتة للحركة العلمية الكبيرة التي شهدتها العلوم المعرفية وعرفتها الحضارة العربية التي قدمت اعدادا كبيرة من التآليف التي كانت تدور في اطار الاهتمامات الاولى للتأليف .

---

(٢) ابو البركات عبد الرحمن الانباري ، نزهة الالباء في طبقات الادباء/٦٣ .

وتؤدي الاغراض التي توختها (٣) وبعدها شهدت الثقافة العربية تنوعا في التأليف الطبقي لمختلف العلوم امثال كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد وكتاب اهل العلم والجهل وطبقات الرجال للبرقي وطبقات الشعراء لابن سلام وطبقات الشعراء الجاهليين لابي خليفة وكتاب الطبقات الصغير للواقدي وطبقات الفقهاء والمحدثين للهيثم بن عدي وطبقات القراء لخليفة بن خياط وكتاب طبقات الكتاب للانباري وطبقات المغنين للمديني وطبقات النحويين والبصريين للمبرد ، فأرخوا للعلماء والادباء والشعراء وكان لابد من ان يصاحب هذه المرحلة التي توسعت فيها دائرة التأليف حركة تضيف لهذه العلوم وفهرسة كتبها التي اصبحت بحاجة الى حصر لتعدد فنونها واختلاف ابوابها وكثرة مكتباتها العامة والخاصة وكان لكتاب الفهرست لابن النديم النصيب الاوفى في سد هذه الحاجة وهو لايزال يؤدي دوره للباحثين في معـرفة الكتب المؤلفة والمترجمة في القرون الاسلامية الاولى .

وتكشف لنا طريقة ابن النديم التي اتبعها في تأليفه وهو يقسم الكتاب الى عشر مقالات ويقسم كل مقالة الى فنون تتفرع منها الدرجة المعرفية الدقيقة التي قطعتها الثقافة العربية وهي تتوج بهذه التآليف وتجمع هذه الكتب وتصنف ابوابها وفق العلوم التي ألفت بموجبها والفنون التي توزعتها .

وتبقى محاولة فيلسوف العرب ابي اسحاق الكندي المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة في تأليفه كتابيه اقسام العلم الانسي وماهية العلم واصنافه ومحاولة

---

(٣) ذكر السيوطي نقلا عن الذهبي في سنة ١٤٣ شرع علماء الاسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنف ابن جريج بمكة ومالك الموطأ بالمدينة والاوزاعي بالشام وابن ابي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن وسفيان الثوري بالكوفة وصنف ابـن اسحاق المغازي وصنف ابو حنيفة في الفقه والراي وكثر تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ ايام الناس وقبل هذا العصر كان الائمة يتكلمون من حفظهم او يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة .

ابي زيد البلخي المتوفي سنة ٣٢٢ في تأليف كتاب في اقسام العلوم التي لم تصل الينا البدايات المبكرة لهذا الضرب من التأليف الذي حاول حصر الكتب تمهيدا لوقوف الباحثين عليها ومعرفتهم بما قدمته العقلية العربية في مرحلة معقدة من مراحل التأليف والتدوين .

لقد كانت حركة التدوين التي نشطت في هذين القرنين بداية رائدة في تسجيل التراث العربي ومحاولة جادة للتمسك بهذا الموروث الذي اعتبرته الامة رصيدها الثقافي وذخيرتها التي تقوي بها على انتماء الحركة العلمية ومدخرها المعبرعن المرحلة التي قطعتها وهي تبني اصول ثقافتها وتحدد طريق بنائها العلمي وتضع الخطوط العامة لمستقبلها الحضاري ودورها في الحضارة الانسانية وهي ترى المساحة الثقافية تزخر بتيارات الفكر وقنوات الثقافة تصب فيمجالات المسائل الكبيرة التي شهدها القرن الثالث وعرفتها مجالس الاجتهاد وقد ارتفعت في رحابها اصوات المعتزلة واخوان الصفا والعلوم النقلية التي تؤخذ عن الواضع الشرعي والعقلية التي اعتمدت معقولية الحقائق وامتحانها متخذة من المنطق او التجربة الحقائق وامتحانها عمليا طريقا لقبولهـا ومن الطبيعي ان تزدهر في هذا العصر صناعة الوسائل الكفيلة بالمعرفة كصناعة الورق وان اقتران نشاط هذه المصانع وكثرتها ورخص اثمانها بحركة التدوين وازدهار المؤسسات والمكتبات كان امرا لابد منه في وصول العلم الى ما وصل اليه لاكتمال الاسباب الموجبة . أن هذه اليقظة الفكرية التي اتسعت لضروب المعرفة واتجهت لوضع الاسس الثابتة لقواعد البحث والدرس والمناقشة كانت الصورة الاولى للمعارف التي بدأت تأخذ طريقها علوما ينظرون دقائقها ويبحثون اجزاءها ويتوسعون في النظر والبحث في كل ما يتصل بهاويجمعون بين الاشباه والنظائر ويستخرجون وجوه الفروق والموافقات معتمدين الادلة والبراهين المقنعة بعد ان اعطى العقل حريته في البحث والنظر في اطار المسلمات العامة التي اعتبرت قواعد الايمان اساسا فأقروا بصحتها وآمنوا بها ثم اتخذوا ادلتهم العقلية للبرهنة عليها ووقفوا

بكل قوة يدحضون حجج خصومهم بما اوتوا من براهين وتوصلوا اليه من مسائل .

وتمثل محاولة ابن النديم في وضع كتاب الفهرست استكمالا لمحاولات سبق بها ودواعي ملحة كانت بدايتها الاولى واضحة في كتب الطبقات وتصنيف العلوم واحصائها وغيرها من المؤلفات التي حاولت ان تقف على اسماء الكتب المؤلفة واصحابها ان طبيعة العصر اقتضت تبويب المعرفة وفهرست العلوم بعد ان كثر التأليف واتسعت المكتبات وانتشرت اسواق الوراقة وازدهرت حركة صناعة الورق واصبح العصر عصر ازدهار ثقافي ونشاط علمي لتسهيل سبل المعرفة والاهتداء الى ابوابها والوقوف على فنونها ومعرفة ما ألّف في كل باب بعد أن اصبح العلم فريضة وعبادة والمعرفة نورا وهداية فعظم شأن العلم وسمت منزلة العلماء واصبحت لهم مواقفهم المرموقة ومنزلتهم الكبيرة في بناء الدولة وهيكلها الاداري والقضائي .

ولم احاول في حديثي هذا ان اعرض لابن النديم الذي بقيت ذكراه عزيزة على كل نفس وعمله موضع تكريم كل باحث ودقته تذكر العاملين في حقل الفهرسة بالجهد الذي بذله . اقول لم احاول في احياء ذكراه الا ان اقف على زاوية ضيقة من زوايا كتابه الجليل لاسجل بعض الملاحظات التي تعطي هذا السفر دوره في احياء التراث وتوثيق الشعر العربي وتحديد المسالك الرائدة لكل محقق وباحث وتضع امامه الدروب واضحة لتقويم عمله ومعرفة ما يقف عليه او يهتدي اليه

اقول حاولت أن اتحدث عن المقالة الرابعة التي تحدث فيها عن اخبار العلماء واسماء ما صنفوه من الكتب وتحتوي على الشعر والشعراء وكانت ملاحظتي مقتصرة على بعض الجوانب التي وردت في هذه المقالة .

١ – كانت محاولة ابن النديم في مقالته الرابعة (في اخبار العلماء واسماء ماصنفوه من الكتب ويحتوي على الشعر والشعراء) محاولة علمية دقيقة ومحددة وضع غرضها في مقدمة المقالة حيث بين ذكر صناع اشعار القدماء واسماء الرواة عنهم ودواوينهم واسماء اشعار القبائل ومن جمعها وألفها وبذلك حقق ابن النديم القاعدة الاساسية المعتمدة في دراسة الشعر والشعراء بعد ان حدد مقادير حجم كل شاعر والمكثر منهم والمقل وقد الزم نفسه بذلك (٤) وقد ابتدأ بذكر اسماء رواة القبائل واشعار الشعراء الجاهلين والاسلاميين الى اول دولة بني العباس وحين يعرض لرواية من هؤلاء الرواة لايُعيد تفاصيل ذكره بسبب وقوفه عليه في حديثه عن اخبار العلماء (النحويين واللغويين والكوفيين) ويكتفي بعبارة (مضى ذكره) (٥)

وقد صنع مثل هذا عند ذكره ابي عمرو الشيباني وخالد بن كلثوم الكوفي ومحمد بن حبيب والطوسي والاصمعي وابن الاعرابي .

٢ – ان تحديد ابن النديم لرواة الشعراء توثق صحة الديوان بعد اجماع الثقات على هذه الرواية ويستخدم مصطلح (رواه) وللرواية في علم التحقيق ومصطلح الحديث دلالة باعتبارها طورا لغويا متأخرا سبقه طور ذو دلالة مادية حسية (٦)

ومجاز استخدامها مثل حمل الشعر او الحديث ورواية الشعر وهو من يحمل شعر الشاعر وينقله ويذيعه وفي بيت النابغة الذبياني اشارة واضحة الى هذا المعنى حيث يقول (٧)

ألكني ياعيين اليك قولا — ستهديه الرواة اليك عني

(٤) الفهرست/١٧٧ .
(٥) الفهرست/١٧٧ .
(٦) الدكتور ناصر الدين الاسد . مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية/١٨٧ .
(٧) النابغة الذبياني/الديوان/٧٩ .

ولم يطلق لفظ الرواية الا على رواية الشعر في الاغلب اما من يروي الحديث فهو العالم ويبدو ان معنى الرواية في الحديث جاء لاحقا بعد ان اكتملت اصول هذا العلم وارسيت قواعده وعني فيه بالاسناد وتصدر المحدثون للتحديث في مجالس العلم من حفظهم (٨) حتى اصبحنا نجد للمحدثين رواة كما كان للشعراء رواة وابن النديم في استعمال مصطلح (رواه) كان دقيقا وملتزما بما تعارف عليه علماء الشعر والتزموا به .

ويبدو ان مصطلح (الصنعة) جاء تاليا لمصطلح الرواية وكانت بدايته عند الطبقة الثانية من الرواة وهم الاصمعي وابو عبيدة وابو عمرو الشيباني وترسخت اصوله عند الطبقة الثالثة فكان ابن الاعرابي ومحمد بن حبيب وابو حاتم ـ السجستاني ويتصدر السكري قائمة الصناع فيقدم ابن النديم قائمة بأسماء الشعراء الذين عمل ابو سعيد السكري اشعارهم فجود واحسن .

ويعقب ابن النديم بقوله من عمل ما عمله السكري فقصر أو جود (٩) .

وتتضح دقة ابن النديم في تحديد الرواة الذين صنعوا هذه الدواوين فيذكر في حديثه عن ديوان الحطيئة مثلا وعمله الاصمعي وابو عمرو الشيباني والطوسي وابن السكيت (١٠) .

وكذلك في حديثه عن لبيد فيقول وعمله ابو عمرو الشيباني والطوسي وابن السكيت (١١) .

---

(٨) الدكتور ناصر الدين الاسد . مصادر الشعر الجاهلي وقيمها التاريخية / ١٨٩ .

(٩) الفهرست / ابن النديم / ١٧٨ .

(١٠) الفهرست / ابن النديم / ١٧٨ .

(١١) الفهرست / ابن النديم / ١٧٨ .

ومثلهما في حديثه عن الاعشى الكبير (١٢) واعشى باهلة (١٣) والعباس بن مرداس والنمر بن تولب والنابغة الجعدي وتميم بن ابي بن مقبل ومهلهل بن ربيعة ومتمم بن نويرة وبشر بن أبي حازم وغيرهم من الشعراء(١٤)وحين يكثر صناع الدواوين يضيف عبارة (جماعة) (١٥) ولما يتجاوز عددهم ما وقف عليه يقول (وغيرها) كما هو الحال في حديثه عن الزبرقان بن بدر والخنساء واذا اقتصرت صنعة الديوان على واحد ولم يقف عليه قال (وغيره) .كما جاء في حديثه عن مضرس بن ربعي وابي حية النميري والمتلمس ولم تات مصطلحاته مجردة او تكون وقفته عابرة وانما يتبعها بتقويم نقدي يحدد فيه الجودة او التقصير او الزيادة وهي ملاحظات توحي بتمحيص العمل وتمييزه فحين يذكر ديوان الطرماح ويشير الى صانعه الطوسي يقول (فجود)(١٦) وحين يذكر ديوان النابغة والاصمعي الذي عمله يقول (قصّر) (١٧) وابن السكيت (فجوّد) (١٨) وفي حديثه عن ديوان الكميت يقول وعمله الاصمعي (وزاد فيه) ابن السكيت (١٩) وكذلك عند ذكره لديوان ذي الرمة حيث يقول : ورواه جماعة والذي عمله ابو العباس(الاحول)من جميع الروايات وعمله السكري (فزاد فيه) على الجماعة (٢٠) وتتكرر هذه التقويمات النقدية الدقيقة في حديثه عن كل ديوان من دواوين الشعراء .

---

(١٢) الفهرست / ابن النديم / ١٧٨ .
(١٣) المصدر نفسه .
(١٤) تنظر الصفحة ١٧٨ مع الفهرست .
(١٥) ينظر ديوان عدي بن الرقاع والمسيب ن علس وعدي بن زيد العبادي ومزاحم العقيلي وذي الرمة .
(١٦) الفهرست / ابن النديم /١٧٨ .
(١٧) المصدر نفسه ١٧٨ .
(١٨) المصدر نفسه / ١٧٨ .
(١٩) المصدر نفسه / ١٧٨ .
(٢٠) المصدر نفسه / ١٧٩ .

ويلحق قائمة اسماء الشعراء الذين عمل ابو سعيد السكري اشعارهم بقائمة اسماء القبائل التي عملها السكري من خط بعض العلماء وعلى الرغم من قائمة ابي القاسم الحسن بن بشير الامدي المتوفي سنة ٣٧٠ التي ذكر فيهـا ستة وستين ديوانا من دواوين القبائل الا انه لم ينسب الامدي شيئا من هـذه الدواوين الى جامع او صانع من الرواة العلماء وانما جاءت غفلا الا ديوانين منها الاول شعر بني تغلب والثاني اشعار الرباب (٢١) .

اما ابن النديم فقد ذكر في فهرسته سبعة وعشرين ديوانا من دواوين القبائل وكلها منسوبة الى السكري وكرر اشعار عدوان مرتين حيث ذكرها مع اشعار فهم مرة ومع اشعار مُزينة مرة اخرى (٢٢) ومع ان هذا العدد الموثق من دواوين القبائل التي وقف عليها الامدي وابن النديم الا انها لاتمثل الا جزء مما ذكرته المصادر وهي تشير الى العلماء الذين صنعوا تلك الدواوين ومن الطبيعي ان لاتمثل قائمة ابن النديم التي ذكرها للسكري القبائل العربية كاملة وابن النديم نفسه يشير الى ذلك حيث يقول وعمل السكري اشعار الجماعة من الفحول وقطعة من القبائل (٢٣) .

ومع ان ابن النديم لم يشر الى دواوين القبائل التي صنعها أبو عمرو الشيباني في المقالة الرابعة التي اشار فيها الى السكري الا انه كان ينقل اخبارا في تراجم العلماء يشير فيها الى صنعهم لدواوين القبائل ففي ترجمة ابي عمرو الشيباني يذكر حديثا لعمرو بن ابي عمرو يقول فيه لما جمع ابي اشعار العرب كان نيفا وثمانين قبيلة فكان كلما عمل منها قبيلة واخرجها الى الناس كتب مصحفا وجعله في مسجد الكوفة حتى كتب نيفا وثمانين مصحفا بخطه (٢٤)

---

(٢١) ينظر كتاب مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ٥٤٣ ــ ٥٤٥ حيث يذكر ان عددها ستون ديوانا الفهرست .

(٢٢) ابن النديم / الفهرست / ١٨٠ .

(٢٣) ابن النديم / الفهرست / ٨٦ .

(٢٤) ابن النديم / الفهرست /٧٥ .

وفي ذكره لخالد بن كلثوم الكلبي يقول وله صنعة في الاشعار والقبائل وله من الكتب كتاب اشعار القبائل ويحتوي على عدة قبائل (منها) (٢٥) .

ولكننا لم نجد ظلا لهذا الحديث في هذه المقالة ولعله لم يعثر على الدواوين التي وردت في التراجم عند تسجيله لما وقف عليه من دواوين وهي قضية اخرى تستحق التأمل في دراسة مدى ثقته في النقل واعتماده على الكتب التي وقف عليها او توثق من ذكرها .

١ ـ حاول ابن النديم ان يبتعد عما طرقه السابقون في بعض ابوابه لانه لايستحسن ذلك لاعتقاده بان العلماء والادباء قد سبقوه وتقدموه ولان هذا التطويل لايدخل في الغرض الذي من اجله الف الكتاب وانما اكتفى بايراد اسماء الشعراء ومقدار حجم شعر كل شاعر منهم سيما المحدثين والتفاوت الذي يقع في اشعارهم ليعرف الذي يريد جمع الكتب والاشعار . ويكون على بصيرة منه وقد حدد لنفسه قاعدة ومقياسا اوضح فيه ذلك فاعتمد الورقة السليمانية ضابطا لحجم الدواوين وذكر ان هذه الورقة تضم عشرين سطرا وزيادة في الحيطة قال اعني في صفحة الورقة وقد تركت هذه الملاحظة لكل المحققين الذين يعملون في جمع الشعر ان يقارنوا بين مايجمعونه من اشعار او يقفون عليه من نسخ الدواوين مع النسخة التي وقف عليها ابن النديم او شاهد نسخة منها بخط المؤلف ليعرف مقدار الضائع منها او المطابق لما ورد في الفهرست او المضاف اليها (٢٦) .

٢ ـ حدد ابن النديم دواوين الشعراء الذين لم يجتمع شعرهم لاحد ولم يحتو عليه ديوان (٢٧) فذكر بشارا وابا العتاهية .

(٢٥) ابن النديم / الفهرست / ٧٣ .
(٢٦) الفهرست / ١٨١ .
(٢٧) الفهرست / ١٨١ .

٣ – يحدد ضياع الدواوين بشكل دقيق واعمالهم في الدواوين ويشير الى اسقاط المنحول والطريقة التي عملت بها فعند حديثه عن ابي نواس يذكر من عمل شعره على غير الحروف التي صنف فيها روايته ومن فسره ومن عمله ولم يتمه ومقدار ما عمل منه ومن عمله على الحروف ومن عمل اخباره والمختار من شعره ومن تكلم عن محاسنه ومساويه (٢٨) ويحدد المقلين من الشعراء (٢٩) والمقلين جدا (٣٠) .

٤ – وينفرد في ذكر العوائل الشعرية كما صنع في آل رزين وآل ابي العتاهية وآل طاهر بن الحسين (٣١) وآل ابي امية وابان اللاحقي واله وآل ابي عيينة المهلبي وآل المعذل (٣٢) ويبدو ان استخدام ابن النديم لفظة (مقل) تعني ان شعره اقل من عشر ورقات لانه اشار الى بعض من وجد له شعرا وذكر عدد الاورق فقال : أمير المؤمنين المهدي (عشر ورقات) (٣٣) والرشيد (عشر ورقات) (٣٤) وابو الينبعي (عشر ورقات) (٣٥) والكسائي (عشر ورقات) (٣٦) ولم نجده يشير الى اقل من هذا العدد ولكن عدد الاوراق يأخذ الفاظ العقود دائما فحين يذكر غالب بن عثمان الهمداني يقول (عشرون ورقة) (٣٧ ، ٣٨) وعند ذكره بعض الشعراء يقول (مقل)

(٢٨) الفهرست / ١٨٢ .
(٢٩) الفهرست /١٨٢
(٣٠) الفهرست / ١٨٢ .
(٣١) الفهرست / ١٨٣ .
(٣٢) الفهرست الصفحات ٩٨٤ – ١٨٩ .
(٣٣) ابن النديم / الفهرست /١٨٤ .
(٣٤) ابن النديم / الفهرست /١٨٧ .
(٣٥) ابن النديم / الفهرست /١٨٩ .
(٣٦) ابن النديم / الفهرست / ١٨٩ .
(٣٧) ابن النديم .
(٣٨) تنظر الصفحات ١٨٤ – ١٨٩ .

وتأتي مفردة (ديوان) دون تحديد (٣٩) وقد يتبعها مفردة ديوان بعدد الورقات فيقول (ديوان خمسون ورقة) (٤٠) واحمد بن المدبر (ديوان) خمسون ورقة (٤١) ويذكر بعض اسماء الشعراء ثم يعقبها بعبارة لم ير شعره كما جاء حديثه عن ابي عبد الله حكم بن معبد الاصبهاني والاغلب الاعم انه يذكر عدد الاوراق مجردة .

وتتجلى خصيصة اخرى من خصائص الفهرست والمتمثلة في ذكر مقادير اشعار من ذكره من غيره وممن لم يصل الينا كما صنع في ذكر كتاب الورقة(٤٢) واذا جاء على ذكر آل بيت من البيوتات ولم يذكر في كتاب الورقة اشار الى ذلك (٤٣) .

وفي حديثه عن الخبز ارزي يقول من شعراء البصرة رقيق الالفاظ غير بصير بصناعة الشعر وقد تحمل شعره على الحروف ونحل الى الصولي (٤٤) .

وفي ذكره لابي منصور بن براك ذكر انه شاعر مجود وان السري الرفاء سرق شعره وانتحله (٤٥) وحين عرض للسري قال شاعر مطبوع كثير السرقة عذب الالفاظ مليح المآخذ كثير الافتتان والاوصاف طالب لها ولا يحسن من العلوم غير قول الشعر . وفي اشارته الى ابن الزمكوت قال كان غواصا على المعاني (٤٦) وعن الخباز البلدي كان مجودا (٤٧) .

---

(٣٩) ابن النديم / الفهرست / ١٩١
(٤٠) ابن النديم / الفهرست / ١٩١ .
(٤١) ابن النديم / الفهرست / ١٩١ .
(٤٢) الفهرست / ١٨٣ .
(٤٣) الفهرست / ١٨٥ .
(٤٤) الفهرست / ١٩٥ .
(٤٥) الفهرست / ١٩٥ .
(٤٦) الفهرست / ١٩٥ .
(٤٧) الفهرست / ١٩٥ .

وعن الخالديين قال اذا استحسنا شيئا غصباه صاحبه حيا كان او ميتا لاعجز منهما عن قول الشعر ولكن كذا كانت طباعهما (٤٨) . وعن الخليع الرقي قال شاعر مجود يسلك في شعره التجنس والتطبيق وقلَّ ما خلا له بيت من ذلك (٤٩) .

ويتبع بعض اخباره احيانا بعبارات نقدية نافعة ونفي حديثه عن ابي حشيشة الطنبوري يقول ولا شعر له يقول عليه (٥٠) ويذكر بعض الشعراء الذين يرمون بالزندقة كما فعل في حين ذكر صالح بن عبد القدوس (٥١) ويفرد للنساء الجرائر والمماليك جانبا (٥٢) ويفرد بابا للشعراء الكتاب (٥٣) .

---

(٤٨) الفهرست / ١٩٥ .
(٤٩) الفهرست / ١٩٦ .
(٥٠) الفهرست / ١٨٥ .
(٥١) الفهرست / ١٨٥ .
(٥٢) الفهرست / ١٨٧ .
(٥٣) الفهرست / ١٩٠ .

المُصطَلَحُ الكيمِيَائِيّ

مشاكله وحلولها

الدكتور جابر الشكري
عضـو المجمع

تمهيـــد :

إن المصطلح الكيميائي احدى الدعائم الأساسيّة في تعريب الكيمياء ، وعليه يعتمد الباحث في تدوين بحثه ، والمترجم عند ترجمته لكتب العلوم الحديثة من اللّغات الأجنبيّة الى اللّغة العربيّة . وقد مرّ العرب في أوّل نهضتهم في هذا الطريق . واجتازوا الصعوبات بكل جدارة ، وخلّفوا مصطلحات في مختلف العلوم والفنون ، ومنها المصطلحات الكيميائية .

معنى المصطلح(١)

المصطلح في اللغة من مشتقات الفعل « صَلُحَ » ومنه اصطلح ، ومصدره « الاصطلاح » والمصطلح هو ما تعارف عليه العلماء في علم من العلوم او في فنّ من الفنون . وهو عبارة عن اتّفاق القوم وتصالحهم على وضع الكلمة لمعنى معيّن مراد منهم . ولابُدّ في كلّ مصطلح من تجاوز المعنى اللّغوي ، والخروج منه الى معنى خاص ليكون مصطلحا ، والاّ بقي معنىً لغوياً عاماً غير خاص بعلم . والمسوّغ عادة لنقل اللّفظ من معناه اللّغوي الى معناه الاصطلاحي وجود مناسبة بينهما .

ويقابل لفظة مصطلح في اللّغة الانكليزية Terminology , Term أي وضع الأسماء والحدود . وفي اللّغة الفرنسية Expression . وفي اللّغة الألمانية Fachausdruck , Ausdruck .

نستدل من التعريف المذكور على ان المصطلح عُرفٌ خاصٌ ، ويُتّفق عليه ، ويؤخذ من المعنى اللّغوي مُعطياً المعنى الأصلي المراد تعريفه . ولو دقّقنا في المصطلحات العلمية او الفنية التي جاءت في كتب الحضارة العربيّة وجدناها مطابقة لهذا التعريف .

ونرى ان العلماء العرب اتّبعوا طرقا كثيرة لاختيار المصطلح الكيميائي ونستطيع أن نحصرها بنقاط ستّ هي : —

أولاً : — مصطلح اشتقّ من فعلٍ منصرف ، ومثال ذلك : ذَهَبٌ ، من الفعل ذَهَبَ ، وذَهِبَ ، فيقال ذَهِبَ الرجل يذهب ذهباً ، هجم في المعدن على ذهب كثيرٍ فزال عقله وبَرِقَ بصره . وذَهَّبَهُ وأذهبه طلاه بالذهب فهو مُذَهَّب . وفي التنزيل العزيز « ذَهَبَ الله بنورهم وأبصارهم » أي أزاله (سورة البقرة) وقيل ذهب لأن من رآه بهت له ويكاد عقله يذهب لجماله ، فسُمّي « الذهب » ويقول عامّة الناس « الذهب مذهوب » .

ثانياً : — مصطلح اشتق من اسم جامد ، ومثال ذلك : نُحاس ، وهو أوّل المعادن التي عرفها الانسان . وفي اللّغة هو الصُفْر التي عرفها الانسان . الجيّد الذي تعمل منه الأواني . والصفّار صانع الصفر . ويقال للدُخان الذي فيه لهبٌ نحاسٌ . وجاء في القرآن الكريم « يُرسَلُ عَليكُما شُواظٌ من نارٍ ونُحاسٌ فلا تَنْتَصِران » وقد أجمع المفسّرون على ان النحاس هو الدُخان الذي يعلو وتَضْعُف حرارته ويخلص من اللّهب . ويقال النُّحاس (بالضّم) هو الصفر نفسه . والنِّحاس (مكسور) دُخانه ، كما يقال الدُخان هو النحاس وربّما جاءت كلمة الصُفر من الكلمة الأكدية Sipparu ، سيبارو او سيفارو .

ثالثا : — مصطلح أخذ من لفظٍ غير عربيّ ، ثم أدخل عليه تحوير جعله مناسباً للنطق العربيّ ، ومثال ذلك : سِتُّ الحسن او حسن يوسف ، وهو

نبات يلتوي على الأشجار ، كان يستعمل في الطب وفي التجميل – يوسّع حدقة العين ويجعلها جميلة . واسمه في الايطالية . Belladonna ، أي السيّدة الجميلة وربما نقل هذا النبات من اوربا او انه كان معروفاً عند العرب بغير هذا الاسم وقد وضع العرب له مصطلحاً جميلا هو « ست الحسن او حسن يوسف » ومن هذا النبات استخلص الأتروبين Atropime وهو عقّار لفحص العيون .

رابعاً : – مصطلح انحدر من لغة موغلة في القدم . كالمصطلحات الموروثة والباقية من حضارة وادي الرافدين او حضارة وادي النيل او غيرهما . ومثال ذلك :

أ – زعفران : وقد عرفت هذه النبتة عند البابليين واستعملت في الصباغة ، وفي صناعة العطور . كما استعملت في الطب وفي تحضير التوابل – ولايزال الزعفران شيخ الافاوية .

والاسم الأكدي للزعفران a - zu — pi — ru ، آزو – في – رو . والاسم السومري Sam - azupiru . ومن هذا الاسم جاء المصطلح العربي زعفران . ونقل الى اوربا بهذا الاسم Safron ، ومنه المركب الكيميائي سافرول Safrol .

ب – كُركُم : من التوابل الطيّبة . واسمه البابلي Kurkanu ، وكان مستعملا – ولايزال كذلك – عند القدماء بكثرة في عمل التوابل ، وصباغة الحرير والقطن بلون أصفر . وبقي الاسم على ما هو عليه مع تحوير بسيط . فقيل كركم . ومنه جاء المصطلح اللآتيني Curcuma ، ويستخلص منه مركب يعرف باسم « كوركومين Curcumine » يستعمل في الكيمياء التحليلية (دليل) .

خامساً : مصطلح عُرِّب من اللّغات القديمة ، كالاغريقية او السنسكريتية أو غيرهما ، ومثال ذلك :

أ – الكافور ، وهو مركب كيميائي يستخلص من اشجار الكافور ، وله نَوْرٌ أبيض كنور الاقحوان .

والكافور أيضاً أخلاطٌ من الطيب تجمع من الطيب ، تَركّب من الكافور وغيره من الأطياب . وجاء ذكره في القرآن الكريم «إنّ الأبرار يشربون من من كأسٍ كان مزاجها كافورا » .

وكلمة « المادة » كافور مشتقة من اللّغة السنسكريتية كاربورا Karpura ، ثم سمّاه سكان الملايو والهنود Kapur ، وأخذه العرب من الهنود فقالوا كافور Kafur ، ومن هذا الاسم أخذه الاوربيون فقالوا Camphor . ولايزال الاسبان يصطلحون عليه مع الـ « التعريف العربيّة AL-Camphor .

ب – القونيون : اسم عشبة طبيّة معروفة ، سامّة جداً ، والجوهر فيها هو سمٌّ زُعاف ، شربه سقراط ، عندما حكم عليه بالاعدام ، ولذا سُمّي القونيون « سم سقراط » .

والاسم قونيون معرب عن الاغريقية Coniun ، وللنبتة أسماء كثيرة في العربيّة ، منها شَوْكران أو شوكران البساتين ، وقونيون البساتين ، وبقدونس كاذب ، وبقدونس المجانين ، والحَقَوُقة (بلغة أهل الأندلس) وذكر الاسم شوكران في اللّغة البابلية القديمة Kam SaLali ، وربما كان القونيون الذي نحن بصدد الحديث عنه .

سادساً : – مصطلح وَضَعه عالم في العربيّة من دون سابِق وضعٍ من غيره ، وهذا في العادة بسبب وقوف الواضع على شكل الشيء أو لونه أو طعمه . ومثال ذلك : زيت الزاج : وضع هذا المصطلح جابر بن حيّان في أغلب الظن ، إذ لم يَرِدْ له ذكر من قبل . وقد استعمله الرازي بعد جابر

أيضاً . فعندما حضّر من الزاج الأزرق (كبريتات النحاس) سائلاً زيتي القوام ، اطلق عليه اسم « زيت الزاج ، او الزيت المذيب » وهو حامض الكبريت $H_2 \ SO_4$.

نرى من هذا العرض الموجز بعض السبل التي سلكها العلماء العرب في وضع المصطلح الكيميائي للمواد التي كانت معروفة لديهم . وهنا يأتي السؤال الآتي !!! كم كان عدد هذه المواد ، وهل كانت من الكثرة بحيث أنهم أتعبوا أنفسهم في دراستها بقصد إيجاد السبل لتيسير عملية تعريب الكتب القديمة . وترجمتها الى اللغة العربيّة ؟؟

ونقول : إن المواد التي كانت لديهم غير كثيرة ـ وقد تكون كثيرة في حينها ـ بالنسبة الى مالدينا الآن .

وهذه بعض الاحصاءات الطريفة :

العناصر التي ذكرها جابر بن حيّان ، وبقيت على هذه الصورة مدّة طويلة جداً ، وحتى أوائل النهضة الاوربيّة : ـ

العناصـــر

١ ـ الذهب
٢ ـ الفضة
٣ ـ الرصاص
٤ ـ الخارُصين
٥ ـ النحاس
٦ ـ الزئبق
٧ ـ الحديد
٨ ـ الزرنيخ
٩ ـ الكبريت

١٠ — القصدير

١١ — الإثمد (عُدّ من العناصر وهو مركب)

١٢ — القِلْي —

١٣ — الكلس —

١٤ — الماء (عدّه جابر بن حيان من العناصر)

١٥ — الملح —

الاملاح والزاجات والأحجار

لا يتجاوز عددها المئة مادة ، ومنها الزاج الأزرق ، والزاج القبرصيّ ، والنوشادر ، والاسفيداج ، والياقوت ، والزُمرّد ، والدُر (الماس) ، والرخام ، والبِلّوْر .... الخ .

الاصباغ

وعددها بحدود الثلاثين صبغاً ، و منها الفُوّة ، والنيل ، والكركم ، والعُصْفُر ، والحِنّاء ، والزعفران ، والقِرْمز .... الخ .

العطـور

وعددها نحو خمسة وعشرين عطراً (ويقصد بذلك المواد التي بحدّ ذاتها عطراً ، ولا يقصد العطور المركّبة . ومثال ذلك المساك ، والعنبر ، والكافور ، والخِيري ، .... الخ .

الأعشاب الطبية والعقاقير الحيوانية والمعدنية

لقد جمع ابن البيطار هذه المواد في كتابه « مفردات الأدوية والأغذية » وعدّ نحو (١٤٠٠) مادة ، بما فيها المواد التي ذكرناها سابقاً . ولا يفوتنا ان « ديسقوريدس » ذكر في كتابه « هيولي علاج الطب ، أو مفردات ديسقوريدس » نحو (٦٠٠) مادة فقط .

ولو قلنا ان ابن البيطار لم يذكر جميع المواد ، لكان هذا وارد جداً . لذا يجب ان نضيف اعداداً أخرى ، وليكن العدد (٣٠٠٠) مادة بدلاً من (١٤٠٠) . وإذا اردنا الزيادة قلنا خمسة الاف مادة (٥٠٠٠ مادة) ، أي كان عند العرب خمسة آلاف مصطلح من المصطلحات الكيميائية والصيدلانيّة .

بدأ الغربيون بنقل الكتب العربية في اوائل القرن الثاني عشر للميلاد ، وأخذوا جميع المصطلحات العربية ، وأضافوا اليها ونحتوها بحسب متطلّبات اللّغة ، فما كان من أصل يوناني ، أرجعوه الى أصله ، وإذا كان المصطلح الذي نحته العرب أفضل أبقوه على الصيغة العربيّة مع تحـرير بسيط طبقاً لمستلزمات اللّغة اللاتينية التي حلّت محلّ اللّغة اليونانية القديمة ، وصارت لغة العلم في اوربا .

ولابُدّ لنا أن نشير الى الأمانة العامية التي تحلّى بها العلماء والفلاسفة العرب عندما نقلوا العلوم الأجنبية (الدخيلة) الى العربيّة . فقد أشاروا الى ان المصطلحات التي لم يجدوا ما يقابلها في العربية مأخوذة من الأصل الاغريقي أو الهندي .... الخ . وقد اعترف المنصفون من الاوربيين بمثل ذلك ، ودوّنوا الأصل العربيّ بجانب المصطلح الجديد الذي وضعوه في كتب الكيمياء او الصيدلة او الطب او غيرها من العلوم والأمثلةُ على ذلك كثيرة جداً .

أخذت النهضة الاوربيّة تسير بخطىً سريعة للغاية ، وأخذت العلوم تتطوّر تطوّراً ملحوظاً . وكان الأعتماد في بادىء الأمر على الكتب العربيّة التي ترجموها الى اللاّتينيّة ثم الى اللغّات القومية ، كالالمانية او الفرنسية ، أو الايطالية ، او الاسبانية ، أو الانكليزية .... الخ . فضلاً عمـا كان لديهم من كتب اليونان .

وفي أواسط القرن السابع عشر للميلاد بدأت في اوربا حركة كيميائية جديدة ، حيث أخذ العلماء يدرسون المواد الطبيعيّة ، كأعشاب وخامات

المعادن وغيرها ، من حيث تركيبها الكيميائي ، وقد نجحوا في ذلك . ثم أخذوا يعملون على تعيين الصيغ الكيميائية للمواد التي تستخلص من مصادرها الطبيعيّة ، وكان البون شاسعاً بين المواد التي هي من مصدر حيواني (أي عضوي) ، والمواد التي هي من مصدر غير عضوي . فقد كان الاعتقاد سائداً ، بل جازماً ، انه لا يمكن تحضير مادة مّا ، الا ّ من مصدرها . فالمواد العضوية لا يمكن تحضيرها الا ّ من العضو الحي ، نباتاً كان أم حيواناً . والمواد غير العضوية لا يمكن تحضيرها الا ّ من أصل غير عضوي (معدني) . وبقي الحال على هذه الصورة حتى سنة ١٨٢٨ م . وكان عدد المواد العضوية المستخلصة لا يتجاوز المئتين مادة (٣) .

تُعدّ سنة ١٨٢٨ م الحدّ الفاصل بين الكيمياء القديمة ، أي كيمياء الاستخلاص ، والكيمياء الحديثة ، أي كيمياء البناء والتركيب . ففي هذه السنة استطاع العالم الألماني « فريدك فوهلر 6 F. Woehler ١٨٠٠ – ١٨٢٢ م » تحضير جوهر البول (٤) « اليوريا urea (H_2 N—co—NH_2)) من مواد غير عضوية بطريقة البناء او التركيب « ((Synthesis)) » ومن هنا أخذ الكيميائيون يحضّرون مواد عضوية من غير مصادرها الطبيعية بطرق البناء والتركيب . Total Synthesis ، وتسارع الكيميائيون والشركات الكيميائية بتحضير مواد جديدة ، فضلاً عن المواد التي تستخلص من المصادر الطبيعية . وأخذت الأبحاث تجري لأدخال ما يمكن ادخاله في شتّى المجالات الطبية او الصناعية .

كان عدد المواد – كما قلنا – قبل سنة ١٨٢٨ م نحو مئتي مادة ، وبعد ذلك قفز هذا العدد قفزة سريعة حتى بلغ قبل الحرب العالمية الأولى نحو مئتي ألف مادة . ومنذ الحرب الأولى حتى نهاية سنة ١٩٣٨ م سُجّل نحو (٧٥٠ ألف) مادة (٥) . ومن الحرب العالمية الثانية حتى الآن يقدّر عدد المواد بنحو

خمسة ملايين مـــادة كيميائية ، وهي في تزايد مُستمر ، مُحَضَّرة بطرق التركيب او بطرق الاستخلاص .

مؤتمـر جنيف للتسميات

لقد ازداد عدد المركبات الكيميائية زيادة هائلة بعد سنة ١٨٢٨ م ، ولهذا السبب حاول الكيميائيون ايجاد السبل السليمة لتسمية هذه المركبات الجديدة . و باقتراح من الكيميائي الألماني « هوفمان – A.W. Hofmann » عقد مؤتمر لدراسة الموضوع في سنة ١٨٩٢ م في مدينة جنيف بسويسرة ، حضره نخبة كبيرة من علماء الكيمياء آنذاك . وكان شعاره « مؤتمر جنيف لتسمية المواد الكيميائية ، Geneva Nomenclature » .

لقد وضعت في هذا المؤتمر ضوابط وأسس ومصطلحات للتسمية . ثم توالت المؤتمرات كلّما دعت الحاجة . ففي سنة ١٩٣٠ عقد الأتحاد الدولي الكيميائي ((International Union of Chemistry I.U.C)) مؤتمراً في مدينة « لييج Liége البلجيكية » واقرت فيه قواعد جديدة مكمّلة لما جاء في مؤتمر جنيف ، عرفت باسم « قواعد لييج Liége Rules » وفي سنة ١٩٣٦ م عقد مؤتمر ثالث في مدينة « لوتسرن السويسرية » ورابع في روما سنة ١٩٣٨م(٦) .

الأيوباك(٧) I.U.P.A.C.

في سنة ١٩٤٧ م عقـد مؤتمـر في لنـدن لاعـادة النظـر في التسميات وتهذيبهـا ، وهو امتدادٌ للمؤتمرات السابقة ، واطلق عليه اسم « الأيوبـاك ، الاتحـاد الـدولي للكيميـاء الصـرفة والتطبيقيـة ، International Union of Pure and Applied Chemistry))

لقـد أصبحت قـرارات الأيوباك المعـول عليهـا في جميع التسميات الكيميائية . وأخذ الاتحاد يُصدر النشرات والكتب تباعاً كلّما دعت الحاجة الى ذلك ، وتمشياً مع الزيادة المُطَّرِدة في نشر المركبات الكيميائية الجديدة .

إن تسميات وقواعد الأيوباك ملزمة للكيميائيين ، وأخذت المجلاّت الدوريّة الكيميائية تسير على نمطها ، وغالبها يرفض نشر البحث ما لم يكن مقيّداً بمنهج الاتحاد .

التسميات

١ ـ الاسم الكيميائي

من المعروف ان لكل مركب كيميائي تسمية خاصة به حصراً ، وهي التي تسجّل في الملخّصات Abstracts ، وهذه التسمية تضمّ الصورة الواضحة للتركيب والبناء الكيميائي للمركب ، أي صيغته الكيميائية .

إن هذه التسمية لا يمكن تغييرها البتّة ، ويصطلح عليها « الاسم الكيميائي Chemical Name » .

إن الاسم الكيميائي خاضع لضوابط وقواعد كيميائية محدّدة بشروط وأسس علمية مُتَّفقٌ عليها دولياً ، وحسب نظام الأيوباك . لذا لايمكن كتابة الاسم الكيميائي الاّ بموجب هذه الشروط .

إن الكيميائي مُقيّدٌ بهذه التسمية ، والاّ لن يسجّل المركب بالدوريات الرسمية ، ومعنى ذلك يفقد المكتشف او المخترع حقّه ـ المعنوي والمادي ، في المركب الذي حضّره . ولهذا يجب كتابة اسم المركب طبقاً لصيغته وبغير تحوير .

وعندما نريد تعريب الاسم لا نستطيع الاّ كتابته بحروف عربيّة ، مع مع تحوير بسيط لتقريب لفظه الى الصيغة العربيّة ـ إن أمكن ذلك .

٢ ـ الاسم المشاع او العادي

كثيراً ما يصطلح على المركب الكيميائي باسم يُطلق عليه الاسم المشاع او الاسم العادي ((Commen Name; Trivial Name)) وهذا الاسم قد يكون تجارياً او مُسجلا بدوريات براءات الاختراع . وهناك مركّبات

معقّدة التركيب جداً ، ومن الصعب تثبيت أسمائها الكيميائية ، لذا تُسجّل مثل هذه المركبات باسمائها المشاعة ، ويمكن التعبير عنها بأيّ شكل شرط الاحتفاظ بالصيغة العامّة لها ، لكي لا تفقد صوابها . فيقال مثلاً كافور بالعربية ، أو كامفر Camphor بالانكليزية .

إن الكيميائيين يدعون أصحاب اللّغة العلماء الأعلام والمتخصّصين في وضع المصطلحات العلميّة لأن يتّفقوا على رأي لايجاد قاعدة لكتابة اسماء مثل هذه المواد بصيغة عربيّة سليمة .

قال الدكتور أحمد عبدالستار الجواري ، عضو المجمع العلمي العراقي ، وعضو مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة ، وهو أحد الثقات في وضع المصطلحات ونحتها : « إن كثيراً من أسماء المواد الكيميائية – إن لم تكن كلّها – هي أسماء أعلام ، وتعريبها يتّفق مع قواعد تعريب الأسماء الأعجميّة » ... فياله من قولٍ حكيم ، يثلج قاوب الكيميائيين ، ويحلّ لهم مشاكل لا يحصى عددها بالنسبة لاسماء مركّبا تهم الجديدة .

لقد وجدنا في كثيرٍ من أبحاث السادة الأفاضل أنهم يتناولون أبسط المركبات الكيميائية، ويجعلون منها أنماطاً للأبحاث التي تتعلّق بالمصطلحات والتسميات ، وماشاكل ذلك من أمور الترجمة والتعريب في علم الكيمياء .

وإذا اردنا أن نُعطي أصحاب اللّغة فكرة واضحة عن المركبات الكيميائية لابد لنا من تنويرهم بصورة واضحة للمركبات المعقّدة الكبيرة التركيب . فالكيمياء ليست الميثان CH_4 أو الايثان $CH_3 - CH_3$ .... الخ ، فهذه المواد البسيطة أصبحت الان أقّل من المبادىء الأولية للكيمياء العضوية . وهذا ينطبق على المركبات غير العضوية التي سنتناول دراستها في بحث لاحق إنشاء الله .

لقد اخترنا عشرين مادة كيميائية عضوية معروفة لغير الكيميائيين حتى لايصيبهم الملل من سماع أسماء ومواد لا علاقة لهم بها ، رغم ان المواد

الكيميائية تدخل في كل مطلب من مطالب الحياة اليومية ، ولكن لا يهتم بها من لا علاقة له بالكيمياء ، سوى انه يريد فوائدها واستعمالاتها .

فيريد الشخص مثلا ، أن يكون لون قميصه بنياً ، ولكنه لا يسأل كيف يكون ذلك ، وكيف يصبغ النسيج ، وبأيِّ نوع من الأصباغ ، إذ لا علاقة له بذلك . وقد يريد المريض أخذ دواء مُعيّن ، ولكنه لا يعلم كيف صنع هذا الدواء ، وما هو جوهره الكيميائي (٨) .... وهكذا .

جـدول بالمواد الكيميائية(x)
من رقم ١ الى رقم ٢٠

A) General Formula, or Molecular Formula — أ – الصيغة العامة او الصيغة الجزئية

Chemical Formula, or Structural Formula — الصيغة الكيميائية او الصيغة التركيبية

B) Chemical Name — ب – الأسم الكيميائي

C) Common Name — جـ – الأسم المشاع

١ – آلانين

B) — Aminopropionic acid — ألفا – أمين حامض البروبيون

C) Alanine — ألانين

هذا الحامض الأميني أساس في بناء الزلال في الجسم الحي .

٢ – غاز الخردل

B) 2, — dichloroethylsulfide — ٢ – ٢ – ثنائي كلوري سلفيد الأثيل

C) Mustard Gas — غاز الخردل

غاز معروف ، سام جداً .

٣ – ايزوبرين

B) 2 — Methyl — 1, 3 — butadiene — ٢ – مثيل-١،٣-بوتادايئين

C) Isoprene — ايزوبرين

المادة الأولية لصناعة المطاط الصناعي .

٤ – حامض الليمون

B) 2 — Hydroxy, 1,2,3, propane — tricarboxylic acid.

٢ – هيدروكسي ، ١ ، ٢ ، ٣ – بروبان – ثلاثي حامض الكربوكسيل .

C) Citric Acid — حامض اللّيمون

وهو بلغة اهل العراق (ليمون دوزي) .

٥ — مانيتول

B) b — Hexitol — يمن — هكسيتول

C) Mannitol — مانيتول

الاسم مشتق من المنّ (منّ السماء) والمانيتول كحول من السكر السداسي (مانّوز) ويوجد في منّ السماء ، وهو المسبب لحلاوته . والاسم واضح في اشتقاقه من العربية .

٦ — انيسول

B) Methyl — phenylether — فنيل ومثيل الإيثر

C) Anisol — أنيسول

هو أحد المواد الأساسية في الينسون، والأسم مشتق من الينسون Anis العربيّة.

٧ — ت . ن . ت

B) 2,4, 6—Trinitrotoluene — ٢ ، ٤ ، ٦ — ثلاثي نتري التولوين

C) T. N. T. — ت . ن . ت

هذه المادة هي الأساس في عمل المفرقعات ، وبها تقاس قوّة الأنفجارات مثل قوّة انفجار القنبلة الذريّة .

٨ — سكّرين

B) 2 — Sulphobenzoic acid — ٢ — سلفو حامض البنزوئي الإميدي

C) Saccharin — سُكّرين

السكرين من أشهر المواد الكيميائية وأكثرها انتشاراً واستعمالاً يومياً ، وهو أحلى من سكر القصب بنحو (٥٠٠) مرّة .

٩ — بنزين

٢ ، ٢ ، ٤ — ثلاثي مثيل البنتان B) 2:2:4 — trimethylpentane

بنزين (بانزين) C) Benzine

هذا المركب سائل زيتي القوام ، يقطرّ من النفط الخام. وهو بنزين السيّارا ت .

١٠ — كونيئين

ألفا — بروبيل بيبريدين B) ∝ — propylpiperidine

كونيئين C) Coniine

الجوهور الأساس في العشبة المشهورة بأسم « شوكران ، او قونيون » وهو سام جداً ، والقونيون مشهور في التاريخ بـ « سم سقراط » .

١١ — كافئين

١ ، ٣ ، ٧ — ثلاثي مثيل الزانثين B) 1:3:7 — Trimethylxanthine

كافئين أو تَئين C) Caffeine, (Theine)

هذا المركب يستخلص من القهوة او الشاي .

١٢ — أسبرين

أستيل حامض السالسيل او (حامض الصفصاف) B) Acetyl salicylic acid.

أسبرين C) Aspirine

إن كلمة الحامض « سالسيل » مأخوذة من Salix ، وهو الصفصاف . وأصل الكلمة صفصاف بابلية . وقشور الصفصاف من العقّارات العربيّة المشهورة في الطب .

١٣ — أدرنالين

B) 1 — [3,4 — dihydroxypenyl] — 2 — methylaminoethanol.

١ — [٣ ، ٤ — ثنائي هيدروكسي فنيل] —٢— مثيل أميني الإيثانول .

أدرنالين C) Adrenaline

هذا هو هورمون غُدّة الكُضْر (الغدّة فوق الكليتين) وهو أوّل هورمون حُضّر في المختبر .

١٤ — نيكونين

B) 1 — Methyl — 2 — [B — pyridyl] — pyrrolidine.

١ — مثيل ٢ — [بتا — بيريديل] — بيروليدين

C) nicotine نيكوتين

سائل زيتي القوام ، مائل الى الصفرة ، يستخلص من أوراق وسيقان نبتة التبغ ، وهو من أشدّ السموم .

١٥ — لاوسون

B) 2 — Hydroxy — 1 : 4 — naphthaquinone

٢ — هيدروكسي — ١ : ٤ — نفثاكينون

C) Lawsone لاوسون

هذا هو الصبغ الذي يسبب لون الحنة عندما يصبغ بها ، وهو مشتق من اسم النبتة اللاتيني Lasonia ، أما اسم الحنة باللّغات الاوربية هو Henna ، كما في العربية وأصل الاسم بابلي أو مصري .

١٦ — دي . دي . تي

B) p, p—Dichlorodiphenyl — [trichloromethyl] — methane.

مقابل ، مقابل َ — ثنائي كلوري ثنائي الفنيل —]ثلاثي كلوري المثيل]— الميثان .

C) Neocid, Gesarol, D. D. T. دي . دي . تي

هذا المركب مشهور جداً . وهو من أشهر المعقّمات الكيميائية . والمعروف عنه أنه قضى على بعوض الملاريا في كل ارجاء المعمورة . ولأسباب صحيّة منع استعماله مؤخراً منقبل الصحة الدولية .

١٧ – مسكون

B) 3 — Methylcyclopentadecanone ٣ – مثيل بنتاد بكانون

C) Muscone المُسْكون

هذه المادة هي جوهر رائحة المسك ، ويلاحظ الأصطلاح العربيّ بوضوح .

١٨ – ثيازول ر . ص . ح .

B) 4,4 — (di — B — naphthyl) — 2,2 — dithiazolyl.

٤ ، ٤َ – (ثنائي نفثيل) – ٢ ، ٢َ – ثنائي الثيازوليل .

C) Thiazole R. S. H. ثيازول ر . ص . ح

من بحث شخصي مسجل .

(أبحاث في الكيمياء العضوية ، مجلة المجمع ج ٤ ، م ٣١ – ١٩٨٠ م .

١٩ – ساينسول أ . ع . س

B) 2 — (— pyridyl) — 4 — [p—phenylazo) —4— (N—N—dimethylaniline)] — thiazole.

٢ – (بتايير يديل) – ٤ – [(مقابل – فنيل آزو) – ٤َ – (ن – ن – ثنائي مثيل الأنيلين)] – ثيازول .

C) Indicator A. A. S. , Scienzole A. A. S.

دليل أ . ع . س . أو ساينسول أ . ع . س .

مستل من اطروحة ماجستير في كلية العلوم . وبراءة اختراع عراقية سنة ١٩٧٩ . (مجلة المجمع ، ج ٤ ، م ٣١ – ١٩٨٠ .

٢٠ – فيتامين ك

B) 2 — Methyl — 3 — phenyl — 1; 4 — naphthaquinone

٢ – مثيل –٣– فنيل – ١ : ٤ – نفثاكينون

C) Vitamin K_1 , ($\propto$ — Phylloquinone)

الفا – فيلوكينون أو فيتامين ك ١ .

١- آلانين $C_3H_7ON_2$

$CH_3-CH(NH_2)-COOH$

٢- غاز الخردل $C_4H_8Cl_2S$

$Cl-CH_2-CH_2-S-CH_2-CH_2-Cl$

٣- ايزوبرين C_5H_8

$CH_2=C(CH_3)-CH=CH_2$

٤- حامض الليمون $C_6H_8O_7$

CH_2-COOH
$HO-C-COOH$
CH_2-COOH

٥- مانيتول $C_6H_{14}O_6$

CH_2OH
$HO-C-H$
$HO-C-H$
$H-C-OH$
$H-C-OH$
CH_2OH

٦- انيسول C_7H_8O

$C_6H_5-O-CH_3$

٧- ت.ن.ت $C_7H_5N_3O_6$

CH_3, O_2N, NO_2, NO_2

٨- سكرين $(C_7H_5NO_3S)$

$CO-NH$, SO_2

٩- بنزين C_8H_{18}

١٠- كونيئين $C_8H_{17}N$

١١- كافئين $C_8H_{10}N_4O_2$

١٢- اسبرين $C_9H_8O_4$

١٣- أدرنالين $C_9H_{13}NO_3$

١٤- نيكوتين $C_{10}H_{14}N_2$

$C_{14} H_9 Cl_5$

Cl—⟨O⟩—CH—⟨O⟩—Cl
Cl-C-CL
Cl

١٦ ـ دي.تي.دي.

$C_{10} H_{16} O_3$ ١٥ـ لاوسون

O, OH, O

$C_{16}H_{16} N_2 S_2$

HC—S S—CH, C, N, C, C, N, C

١٨ ـ ثيازول ر.ص.٢.

$C_{16} H_{30} O$ ١٧ ـ مسكون

$CH_2-CH_2-CH_2-CH_2-CH_2-CH-CH_3$
CH_2
CH_2 CH_2
$CH_2-CH_2-CH_2-CH_2-CH_2-C=O$

$C_{22} H_{19} N_5 S$ ١٩ ـ سايندول أ.ع.س.

S—CH, C, N, C—⟨O⟩—N=N—⟨O⟩—N—CH_3, CH_3, N

$C_{31} H_{46} O_2$ ٢٠ ـ فيتامين ك

O, CH_3, CH_3, CH_3, CH_3

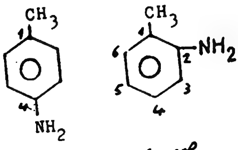
$-CH_2.CH=C-(CH_2)_3-CH-(CH_2)_3-CH-(CH_2)_3-CH-CH_3$

CH_3, O

من هذا العرض الموجز نرى انّنا نستطيع فعلا تعريب اسماء ومصطلحات المركبات الكيميائية والمحافظة على اسسها العلمية المتّفق عليها دولياً ولا يمكن تغييرها .

الأرقام

لاحظنا وجود ارقام في المركبات المار ذكرها ، ونقول ان لهذه الأرقام مدلولات كيميائية . فلكل رقم محلٌ خاصٌ في المركب ، ولا يمكن تغييره ، إذ ان التغيير يسوق الى مركب آخر . ومثال ذلك : (صورة ١)



صورة ١ .

إن المركب ٢ – أمينوتولوين . هو غير المركب ٤ – أمينوتولوين . وإذا قلنا ٣ – هيدروكسي – ١ : ٤ – نفثاكينون (المركب رقم ١٥) بدلا من ٢ – هيدروكسي – ١ : ٤ – نفثاكينون لا يكون اللّوسون (صبغ الحناء) ، وهكذا.

الأقواس

إن للأقواس في الصيغ الكيميائية معنى معيناً . ولا مجال لتغييرها أيضاً . وقد شاهدنا ذلك في المركبات رقم ١٤ و ١٦ و ١٨ . وكذلك في المركب رقم ١٩ . وتدل هذه الأقواس بصورة عامة عطف مجموعة في قوس ما على مجموعة أخرى في قوس آخر . أو جذر . وهذه أساليب كيميائية تقود الى قراءة اسم المركب بصورة صحيحة . ويحتاج الكيميائي ، في كتابة أسماء المركبات المعقدة . الى الأقواس الهلالية (   ) والى العضّادات . الأقواس المعقوفة [   ] أيضاً .

الصيغ الكيميائية

إن الصيغ الكيميائية أساس تشخيص نوع المركب الكيميائي . وقد تشترك مركبات عدّة في الصيغة العامة ، ولكنها تختلف بحسب موقع المجموعات او الجذور التي تدخل في المركب الأصلي (المركب النواة) لذا ترقم ذرات الكربون عاد في النواة الأصيلة ، ثم تتفرّع منها الجذور والأغصان . وهذه المركبات تدعى عادة « النظائر او المتماثلات ، Isomers » ومثال ذلك : البنتان (٥ ذرات كربون) وهو :

$$CH_3 \cdot CH_2 \cdot CH_2 \cdot CH_2 \cdot CH_3 \cdot$$

ويكون بهذه الصورة : (مثيل بروبان)

$$CH_3 \cdot CH_2 \cdot \underset{\displaystyle CH_3}{\underset{|}{CH}} \cdot CH_3$$

أو بالصورة الآتية (رباعي مثيل الميثان)

$$CH_3 - \overset{\displaystyle CH_3}{\overset{|}{\underset{\displaystyle CH_3}{\underset{|}{C}}}} - CH_3$$

فاذا تغيّرت مواقع جذور المثيل $- CH_3$ مثلا او واحد منها فقط في المركب (رقم ٩) لا يحصل عندنا البنزين .

وخلاصة القول : ان لكل مركب كيميائي صيغة خاصة به حصراً .

السوابق واللّواحق

السوابق

أدخل الكيميائيون السوابق على اسماء بعض المركبات للدلالة على موقع مُعيّن في المركب . فمثلا — ortho (O—) مُتابع ، و — meta (m—) مُعاقب ، و — para (p —) مُقابل .

وقد تدلّ السوابق على تعيين صورة المركب ، مثل — iso نظير . وقد درس المجمع العلمي العلمي هذه السوابق ووضع لكثير منها مايقابلها في العربيّة . والمعروف انها سوابق قد نأتي في كثيرٍ من مصطلحات غير كيميائية. وهي بعرف الكيميائيين مسألة لغويّة في أغلب الأحيان ، ولا يناقشون فيها كثيراً ، ويأخذون بما يقرّره اللّغويون بشأنها .

اللّواحق

هناك بعض اللواحق تدخل على الاسم الكيميائي مُعطية مدلولاً علمياً جديداً للمركب . وقد أُقرّت هذه اللواحق في مؤتمر جنيف والأيوباك ، وأصبحت عند الكيميائيين من الأسس العلمية في التسميات ولا يمكن مناقشتها . وهذه أنماطٌ منها : —

١ — آن، an — ane —. إذا دخلت هذه اللاحقة (آن) في الاسم فمعنى ذلك ان المركب مُشبَع (أي ليست فيه آصرة مزدوجة (C — C) ، فيقال :

CH_4 Methane — ميثان

$CH_3 — CH_3$ Ethane — ايثان

$CH_3 — CH_2 — CH_3$ Propane — بروبان

$CH_3 - CH_2 - CH_2 - CH_3$ Butane بيوتان

Cyclohexane هكسان حلقي

H_2
C
H_2C CH_2
H_2C CH_2
C
H_2

صورة ٢

٢ — اين ، ين ، en — ane —

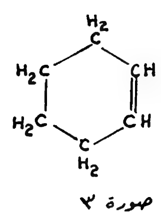
إذا دخلت هذه اللاحقة (اين ، ين) على الاسم فمعنى ذلك ان المركب غير مشبّع (أي فيه آصرة مزدوجة) (C = C) .

فيقال :

$CH_3 - CH = CH_2$ Propene بروبين

$CH_3 - CH_2 - CH = CH_2$ Butene بيوتين

Cyclohexene هكسين حلقي



صورة ٣

٣ — إين ، ين ، ine —

ومعنى ذلك ان المركب غير مشبّع ، وفيه آصرة ثلاثية ($C \equiv C$)

مثال ذلك :

استيلين Acetyline $CH \equiv CH$

٤ — — ول ، OL —

إذا دخلت هذه اللاحقة على الاسم ، فمعنى ذلك ان المركب كحول ، أي يحتوي على مجموعة الهدروكسيل (— OH) . وتوجد بعض الشواذ في هذه القاعدة .

ومثال ذلك :

ميثانول $CH_3 . OH$ Methanol

ايثانول $CH_3 \; CH_2 . OH$ Ethanol

هكسانول حلقي Cyclohexanol

H_2C — $C H_2$ — $CH . OH$ — CH_2 — $C H_2$ — H_2C (حلقة سداسية)

صورة ٤

٥ — — آل ، al —

إذا دخلت هذه اللاحقة على الاسم ، فيكون المركب الدهيد ، أي يحتوي

على المجموعة (CHO —) وهي تسمى مجموعة الألدهيد.ويقرأ اسمه مع اللاّحقة ، مثال ذلك :

ميثانال CH_3 . CHO Methanal

ايثانال CH_3 . CH_2 . CHO Ethanal

٦ — — ون ، on — one — .

وهذه اللاحقة تسمى اللاحقة الكتونية . فاذا دخلت المجموعة (c = o).
على الاسم الكيميائي ، يقرأ مع اللاحقة ، فيقال مثلا :

استون CH_3 . CO.CH $_3$ Acetone

أستوفنون Acetophenone

صورة ٥

٧ — — وز ، Ose — .

إذا دخلت هذه اللاحقة على اسم المركب فيكون سكّراً . مثال ذللم :

سكر خماسي pent ose

سكر سداسي hexose

منوز (سكر المنّا) Mann ise

٨ — آزو — (azo —)

إذا دخلت هذه المجموعة (— N = N —)في الاسم الكيميائي حصلنا منه

على مركب يدعى « مـركب آزو Azo — compound » مثـل أصبـاغ الآزو Azo — dyes ، أي الأصباغ التي تضم في تركيبها الكيميائي مجموعة الآزو — N = N — . وتدخل هذه المجوعة عادة في وسط الصّغة الكيميائية (راجع رقم ١٩) .

٩ — إيد ، يد ، ide — .

أ — تدخل (— يد ، ide —) لاحقة في مصطلحات أقرب الى اللّغة منها الى الكيمياء ، كقولنا نوائي الشكل ، صفة او تصغير Nucleoide .

ب — وتدخل في الأسماء المشاعة لمركبات طبيعية مهمة للغاية تتكون في بعض النباتات ، ويطلق عليها المصطلح « كلوكوزيد Glucoside » ويقصد بهذا المصطلح مركبات تتكون من جزئين هما : سكّر مع مركب كيميائي غير السكر . مثال ذلك :

كلوكوزيد الايزاتين ، الذي يستخرج منه صبغ النيل .

كلوكوزيد الأميجدالين . الذي يسبب الطعم المر في اللوز .

جـ — وتدخل هذه اللاحقة على أسماء مجموعة أخرى من المركبات يطلق عليها Alhaloide ، وهي مواد تستخلص من نباتات معينة (مثل النيكوتين رقم ١٤) ولها أهميّة كبيرة جداً في الكيمياء والطب والصيدلة . (راجع الكونيئين رقم ١٠ أيضاً) .

ولهذه المواد خواص قاعديّة ، إذ تحتوي في تركيبها على ذرة او أكثر من ذرات النتروجين (N) .

إن المصطلح Alkaloid مشتق من الكلمة العربيّة القِنْي Aekali ، وباضافة اللاّحقة oid — أصبح الاسم Alkaloid .

لقد اختلف أهل اللّغة وأصحاب المعجمات بتعريب هذا المصطلح ، فمن قال شِبْه قِلَوي . أو شِبْه قِلْواني . ومن قال قلويد أيضاً .

إننا معشر الكيميائيين نرى أن يتّفق اللغويون الأفاضل على هذا المصطلح ، ولا نعارض مطلقاً كيف ينحتونه . ولابد لنا من القول ان هذه المواد تسمى « قواعد نباتية أيضاً Plant Bases » أو شبه قواعد .

الرموز الكيميائية للعناصر

الرمز الكيميائي هو الاشارة التي تدل على العنصر . وقد أخذ الرمز دوراً طويلاً في تاريخ الكيمياء حتى استقر على الصورة الحالية ، وأصبح دولياً ، ويرسم في جميع اللّغات بشكل واحد ، ولا فرق في صورته عندما يكتب بالانكليزية او الفرنسية او الالمانية أو الاسبانية او الايطالية او الروسية او الصينية او اليابانية .... الخ .

اما اسم العنصر الذي يشير اليه الرمز فقد يقرأ بحسب اللّغة القوميّة . وقد بلغ عدد العناصر المسجلة في الجدول الدوري حتى الآن نحو مئة واثني عشر عنصراً . مثال :

رمز الفضة	Argentum Ag
رمز الحديد	Eisen, Iron, Ferum Fe
رمز الكالسيوم	Potasium, Kalium K
رمز النتروجين	Azote, Nitrogen N
رمز النتريوم	Sodium, Naterium No
رمز اليورانيوم	Uranium U

نبـذة تاريخيّة

يعتقد المؤرخون ان الأشكال التي رسمها « زوسيموس ، القرن الثالث للميلاد ، أيّام مدرسة الاسكندرية » تُعدُّ أوّل إشارة الى استعمال الرموز في الكيمياء ، وقد اطلق عليها « الرموز السرطانية (٩) » (صورة ٦) .

ثمّ جاءت رموز العناصر بحسب الأبراج ، واليها تعود أيام الاسبوع (صورة ٧) .

المعدن	اليوم	البرج	الرمز
الذهب	الاحد	الشمس	☉
الفضة	الاثنين	القمر	☽
الحديد	الثلاثاء	المريخ	♂
الزئبق	الاربعاء	عطارد	☿
الخارصين	الخميس	المشتري	♃
النحاس	الجمعة	الزهرة	♀
الرصاص	السبت	زحل	♄

صورة ٧

كان الكيميائيون العرب يكتبون اسم العنصر كاملاً ، ولم يستعملوا الرمز . كما هي عادتهم في الأرقام والترقيم . قبل دخول الارقام ، اللّهمّ الاّ بعض الصور البسيطة التي استعملها جابر بن حيّان ، فرسم – في بعض الأحيان – للذهب قرص الشمس . وللفضّة الهلال .

ولما انتقلت الكيمياء الى اوربا ، وأخذ بعض العلماء والفلاسفة يعملون بها ، زاد عدد العناصر ، فحاروا في أمرها ، وحاولوا إيجاد السبل لكتابة رموز العناصر التي اكتشفوها . فالرمز يُسَهّل كتابة المعادلة الكيميائية ، لان المعادلة لغة في نظر الكيميائيين .

أخذ الغربيون الأسلوب العربي في تسمية المركبات التي حضّروها بطرق

التركيب ، او بطرق الاستخلاص ، وكانت طريقتهم مطابقة لحدّ ما الاسلوب العربي الذي حُدِّد في النقاط الستّ السابق ذكرها . فقالوا مثلا : —

حامض الساليسيل (من الصفصاف Salix) وحامض الليمون من الليمون الحامض (Citrus) . وقد استعمل الألمان اسلوب الاضافة في الغالب ، فقالوا Salicyl Saere ، و Citronem Saere . وأخذ الانكليز اسلوب النسبة ، فقالوا Salicylic acid Citric acid

لكن المشكلة كانت تنصب على الرموز الكيميائية ، وكيفية كتابة أسماء العناصر ، فهل تكتب الأسماء كاملة أم تختصر ؟؟؟؟

لقد وجد بالتجربة ان في كتابة الأسماء كاملة صعوبة من حيث تشابك العناصر واشتراكها في بناء المركب . فمثلا حامض الليمون يتكوّن من ست ذرات كربون وثمان ذرات هدروجين وسبع ذرات أوكسجين (رقم ٤) ... وهكذا .

لذا وجد من الأفضل اختصار الاسم ، ولذلك برزت فكرة « الرمز » ولاسيما انها كانت واردة منذ زمن بعيد . وعلى هذا اتّفق منذ زمن بعيد . وعلى هذا اتّفق على استعمال الرمز للعنصر لتسهيل عملية كتابة المعادلة الكيميائية. ومن هنا ظهر شيء آخر ، وهو كيف يكتب الرمز ، وبأيّ يشكل يصوّر ؟؟

لا نريد أن نطيل الحديث في تاريخ الرموز ، ونكتفي بعرض نماذج من الأشكال التي اقترحت سابقاً ، حتى رست في الأخير على الصورة الحالية . وهي كتابة الحرف الأول من الاسم كبيراً ، واذا تشابه عنصران بالحرف الأول فيكتب اسم أحدهما بالحرف الاول مع حرف آخر صغير . فيقال مثلا للنتروجين N وللنتريوم Na ، وللهدورجين H وللهيليوم He .

لقد أصبحت صيغ رموز العناصر دولية ، وتكتب بشكل واحد في جميع لغات العالم مهما تنوّعت القوميّات والجنسيات ، وسجّلت في الجدول الدوري للعناصر الكيميائية بهذه الصورة ، ولا نقاش فيها إطلاقا .

لقد حلّ الاوربيون مشكلة « الرمز » فبدأ وا من الصعب حتى وصلوا الى الأسهل والأفضل . أمّا نحن فنتزيد الآن أن نبدأ من السهل والأفضل لكي نصل الى الأصعب والأعقد .

A Table of Chymicall & Philosophicall Characters with their significations as they are usually found in Chymicall Authors both printed & manuscript

Saturne Lead
Iupiter Tinne
Mars Iron
Sol Gould
Venus Copper
Mercury Quicksilver
Luna Silver

Acetum
Acetum distillat.
Æs
Aer
Alembicus
Alumen
Amalgama
Aurum
Antimonium
Aqua
Aqua Fortis
Aqua Regis
Aqua Vitæ
Arena
Arsenicum
Auripigment.
Aurichalcum
Amalgamare

Balneum Mariæ
Balneum Vaporis
Bora
Borax
Calcinare
Calx
Calx vive
Calx ovorum
Caput mortuum
Cementare
Cera
Christallum
Cineris
Cineres clavellati
Cinnabar
Coagulare
Cohobare
Crocus Martis
Crocus Veneris
Æs ustum
Crucibulum
Cucurbita
Dies
Digerere
Dissolvere
Distillare
Filtrare
Fimus Equinus
Ferrum
Flegma
Fluere
Gumma
Hora
Ignis
Ignis rotæ
Lapis calaminare
Lapis
Lutare
Lutum Sapientiæ
Magnes
Marchasita
Materia
Menstruum

Mensis
Mercur. Saturni
Mercur. Sublimat.
Nox
Oleum
Præcipitare
Pulvis
Pulvis Latericius
Purificare
Putrefacere
Quinta Essentia
Realgar
Regulus
Retorta
Sal commune
Sal Alkali
Sal Armoniac
Sal Gemmæ
Sal petræ
Sapo
Spiritus
Spiritus Vini
Stratum super stratum
Sublimare
Sulphur
Sulphur Philosophorum
Sulphur nigrum
Tartar
Calx tartari
Sal tartari
Talcum
Terra
Tigillum
Tutia
Vitriolum
Vitrum
Viride æris
Urina

Johannes Worlidge

Name.	Formel.	O=100.	H=1.
Sauerstoff	O	100,000	16,026
Wasserstoff	H	6,2398	1,000
	$\bar{H}$	12,4796	2,000
Stickstoff	N	88,518	14,186
	$\bar{N}$	177,036	28,372
Schwefel	S	201,165	32,239
	$\bar{S}$	402,330	64,478
Phosphor	P	196,155	31,436
	$\bar{P}$	392,310	62,872
Chlor	Cl	221,325	35,470
	$\bar{C}l$	442,650	70,940
Jod	J	768,781	123,206
	$\bar{J}$	1537,562	246,412
Natron	$\dot{N}a$	390,897	62,646
Natriumsuperoxyd	$\dot{\bar{N}}a$	881,794	141,318
Kali	$\dot{K}$	589,916	94,541
Kaliumsuperoxyd	$\ddot{K}$	789,916	126,593
Schwefelsaures Kali	$\dot{K}\dddot{S}$	1091,081	174,859
— Eisenoxydul	$\dot{F}e\dddot{S}$	940,378	150,706
— Eisenoxyd	$\ddot{\bar{F}}e\dddot{S}^3$	2481,906	397,754
Eisenchlorür	$Fe\bar{C}l$	781,863	125,303
Eisenchlorid	$\bar{F}e\bar{C}l^3$	2006,376	321,545
Quecksilberchlorür	$\bar{H}g\bar{C}l$	2974,295	476,666
Quecksilberchlorid	$HgCl$	1708,472	273,803
Cyaneisenkalium	$Fe\bar{N}C+2K\bar{N}C$	2308,778	370,008
Alaun	$\dot{K}\dddot{S}+\dot{\bar{A}}l\dddot{S}^3+24\dot{\bar{H}}$	5936,406	951,378
Feldspath	$\dot{K}\dddot{S}i+\ddot{\bar{A}}l\dddot{S}i^3$	3542,162	567,673

Irgendein Metall:	S. M. (substance métallique).
Wasser:	▽
Säure:	∿
Sauerstoff:	[symbol]
Stickstoff:	[symbol]
Salpetersäure:	[symbol]
Eisen:	♂

Auflösung des Eisens in Salpetersäure: (♂)(▽ [symbol])
(als Beispiel einer Reaktion)

Ausgeschriebene Gleichung: (♂)(▽ [symbol])

صورة ١٠ – آديت – هاسنفراتس

Sauerstoff:	—
Stickstoff:	/
Wasserstoff:	)
Kohlenstoff:	(
Schwefel:	◡
Phosphor:	∩
Kalkerde:	▽ C
Baryt:	▽ B
Soda:	△ S
Kupfer:	Ⓒ
Blei:	Ⓟ
Silber:	Ⓐ usw.

صورة ١١ – لا فوازية الفرنسي ١٧٤٣ – ١٧٩٤ م

H =	= 1 gr Wasserstoff (1)[1]		
N =	= 5 gr Stickstoff (14)		
C =	= 5 gr Kohlenstoff (12)		
O =	= 7 gr Sauerstoff (16)		
P =	= 9 gr Phosphor (39)		
S =	= 13 gr Schwefel (32)		
Hg =	= 167 gr Quecksilber (200)		
Cu =	= 56 gr Kupfer (65)	usw.	

H_2O oder HO =	= Wasser	Binäre Atome
NH_3 =	= Ammoniak	
NO =	= Stickstoffoxyd	
C_2H_4 =	= Aethylen (ölbildendes Gas)	
CO =	= Kohlenmonoxyd	
N_2O =	= Stickoxydul	Ternär
H_2S =	= Schwefelwasserstoff	Quaternär
$C_2H_4O_2$ =	= Essigsaure	Sextenär
	صورة	usw.

تعريب الرموز

بدأت فكرة تعريب الرموز في مصر منذ عشرات السنين ، وأخذ تلامذة المدارس الثانوية المصرية يكتبون بها . وكانت . طبعاً ، أسماء مواد بسيطة تتناسب ومنهج الدراسة . وقد تناولت المعجمات العربيّة هذه الرموز ، مثل معجم شرف ، فكتب مثلا :

نيكوتين ك ١٠ يد ١٤ ز ٢ مقابل $C^{10}H^{14}N^{2}$ حامض السالسيل
ك ٧ يد ٦ ١ ٣ مقابل $C_7H_6O_3$

وهذه الصيغ هي العيغ العامة — كما مرّ بنا سابقاً— وليست الصيغ التركيبية.

إن الفكرة لم تنتشر في البلاد العربيّة ، وحتى في مصر نفسها . فالدراسة الجامعيّة بقيت محافظة على كتابة الرموز بالصيغة الدولية ، ولا نقول بالصيغة الانكليزية او الفرنسيّة او الألمانية ، او غيرها من اللّغات .

الرموز العلميّة واشكال الحروف العربيّة

إطلعنا على ماورد في الندوة (١٠) التي عقدها مجمع اللّغة العربيّة الأردني الموقّر في ٣١–١–١٩٨٣ م . ولما كان النقاش يدور حول الموضوع الذي نحن بصدده ، فضّلنا أن نجعله أساساً لبحثنا فيما يخص الرموز .

وقبل مناقشة الموضوع نرى من الواجب أن نتقدّم بوافر الاحترام للمجمع الأردني الجليل على اهتمامه بالتراث العلمي العربي ، وعلى ما ينتجه من مترجمات وكتب علميّة قيّمة ، فبارك الله بعلمائه ، وبمن أسهم في هذه الانتاجات الممتازة .

لقد دار الحديث في هذه الندوة حول تعريب الرموز الكيميائية ، أي كتابة الرمز الكيميائي بالحرف العربي . وقد اقترح لذلك ستّ مجموعات من أشكال الحروف العربيّة ، قابلة للزيادة ، وهذه أشكالها : — (صورة ١٣)

الحروف الاعتيادية : ا ب ت ث ج ح خ . . . .

الحروف المستقلة : ا ب ت ث ج ح خ . . . .

الحروف المميزة : ا ب ت ث ج ح خ . . . .

الحروف المستندة : ا ب ت ث ج ح خ . . . .

الحروف المذيلة : ا ب ت ث ج ح خ . . . .

الحروف المجوفة : ا ب ت ث ج ح خ . . . .

والآن لندرس هذه الحروف مجموعة فمجموعة .

١ ــ الحروف الاعتيادية ، وهي الحروف العربية الواضحة .

٢ ــ الحروف المستقلّة . نقول لماذا وضعت الركزة في نهاية الحرف ، وما فائدتها ، وما المقصود منها ؟

٣ ــ الحروف المميزة . لقد لاقينا صعوبة في رسمها ، والله على ما نقول شهيد ، لأنها أشبه ماتكون بالمفتاح الموسيقي . ولا معرفة لنا باللغة الموسيقية .

٤ ــ الحروف المستندة . نقول ساعد الله الطالب في تعلّمها .

٥ ــ الحروف المذيّلة ، نقول ما فائدة هذه الأشكال المعقّدة وما جداوها !

ونرى في الأشكال الواردة في ٣ و ٤ و ٥ صوراً – غير محمودة – من سرطانيات زوسيموس ، ورموز فالنتينوس .

٦ – الحروف المجوّفة ، ومعنى ذلك ان الطالب يكتب الحرف مرتين ، فمثلا يكتب (ب) ثم (ب) أخرى ، حتى يكمل الرمز ، ونحن في عصر السرعة .

نقول للسادة الأجلاء ، نحن في عصر غير عصر « كيميا»ء الصنعة » وان جابر بن حيّان والرازي وغيرهما لم يكتبوا بمثل هذه الرسوم . ققد كانوا يكتبون الاسم كاملا ، وهو اسلوب أسهل لنا نحن معشر الكيميائيين ممّا تقترحون .

لقد اعترض الدكتور الفاضل عادل الجرار – عضو لجنة الرموز – على موضوع تعريب رموز الكيمياء . وممّا يؤسف له اننا لم نجد له تعقيباً على أشكال الحروف المقترحة ، لنفيد من آرائه القيّمة . ولكننا نعتقد انه لا يريد الحديث فيها إطلاقاً . فبارك الله فيه .

لقد ردّت اللجنة المحترمة على مقولة الدكتور الجرار ، وممّا قالته : –

إن الكيمياء لا تختلف عن الفيزياء او الرياضيّات ، بل هي متداخلةمع العلوم جميعاً ، وأخيراً ان تعريب العلوم الأخرى وترك رموز الكيمياء أجنبية ليس له مُبَرِّر منطقي ، ويؤدّي الى بلبلة وعزل الكيمياء العربيّة عن العلوم الأخرى .

نقول : –

نعم إن الكيمياء لا تختلف عن العلوم الأخرى ، ولكن الرموز والصيغ الكيميائية تنفرد بها الكيمياء حصراً . فالصيغ لغة الكيمياء ، وليس لها مثيل في باقي العلوم . فهل توجد في الفيزياء مثلا صيغ للبنيسلين أم للنيكوتين ام للثيازول ؟؟؟

تقول اللجنة المحترمة : ليس هنال صعوبة في عمليات التعريب ، ونقول :ــ

نعم هناك صعوبة في عملية تعريب الرمز ، لانه هو الذي تكتب به الصيغة الكيميائية . فحاولوا ان تكتبوا الصيغة التركيبيّة للكولسترول أو للكلوروفيل أو لفيتامين ك (الرقم ٢٠) ، وبأيّ شكل من أشكال الحروف العربيّة التي اقترحتموها .

وتقول اللجنة الفاضلة : إن ابقاء الرموز الأجنبية يعني وضع المعادلات بالصيغة الأجنبية .

نقول : ــ

نعم وهو كذلك . ولكن ليس في الأمر من حيلة . فهذا علم جديد ، وضع العرب اسسه ونالوا حقّهم منه ، وخلّدوا ذكرهم فيه .

لقد شرحنا تطوّر الرمز الكيميائي شرحاً وافياً ، حتى أصبح عالمياً ، وأصبحت المعادلة الكيميائية لغة عالمية لا تنحصر بقومٍ من الأقوام ولا بجنسٍ من الأجناس.

وعندما نقول (ه) للهدروجين . فهل يعني ان الهيدروجين اسم عربيّ. أو عندما نقول (ك) للكربون ، فهل يعني ذلك ان الكربون من لغة العرب ، وفسّره ابن منظور او الجوهري ؟

ألم يأخذ العرب كلمات ومصطلحات من لغاتٍ أعجميّة وأدخلوها في معجماتهم ؟ ولنا في ذلك شواهد كثيرة . ولا نريد أن نتطرّق الى أكثر من ذلك.

قرأنا مذكرة الدكتور عادل الجرار المحترم الواردة في « الصفحة ٢٤٥ من مجلة المجمع الأردني » وتحفّظه ومخالفته لفكرة كتابة الرموز بالعرزية . وقد ناقشنا جانباً من ملاحظات اللجنة على ماورد في هذه المذكرة . ونرى لزاماً علينا أن نوضّح ما ورد فيها ، ونضيف بعض الملاحظات اليها ، ونوجز ما شرحناه سابقاً بنقاطٍ مُحدّدة ، حتى لو تكرر الحديث ، لاهميته في نظر الكيميائيين .

١ — قلنا مراراً وتكراراً ان الرموز والصيغ الكيميائية لغة خاصة بالكيمياء ، وصارت كذلك بعد عناءٍ مشاقٍ ، وبحث طويل للفلاسفة والعلماء منذ القرن السادس عشر للميلاد ، وقد أخذها العالم كلّه .

فهل نريد الآن أن ننفرد بلغة كيميائية خاصة بنا ؟؟ نأمل أن يأتي اليوم ليكون لنا ذلك .

٢ — اننا نعتزّ بلغتنا ، وقد قدّمنا للانسانية من خلالها خدمات لا ينكرها علينا أحد ، ولكن الكيمياء اليوم ورموزها وصيغها جديدة ، ليس علينا فقط ، بل قد تكون على اللّغة الانكليزية عندما تكشف الألمانية شيئاً جديداً ، وعلى اليابانية عندما تخترع الروسية مركباً جديداً .... وهلّم جرّا .

وقد رأينا ان جميع لغات العالم اتّفقت من حيث الرموز والصيغ على لغة كيميائية واحدة . فلماذا ننفرد نحن ؟

٣ — إذا استطعنا ان نكتب الرموز والصيغ بالحروف العربيّة ، فمن يقرأها من غير العرب ؟ وكيف تنشر البحوث الجديدة ؟ وهل ستُسجّل في مجلات الملخّصات الدورية Abstracts ?? ؟

٤ — لكليّات العلوم الطبيّة رأي مهم في الموضوع ، والحديث حولها عميق ، ولها في الكيمياء فصول وموضوعات في غاية الأهمية ، والمركبات الكيميائية في هذه الكليّات من أعقد ما في الكيمياء الحديثة . فما ذا يقولون في تعريب صيغ مواد الخليّة والتفاعلات الحيويّة (البيولوجيّة) والأدوية والعقّارات المركبة وما شاكل ذلك ؟

نترك الجواب للمتخصّصين في الكيمياء الحيويّة وكيمياء العقاقير وتراكيبها .

٥ – اننا نصرّ على تعريب الكيمياء ، فهذا واجب قوميّ لا مجادلة فيه ، ولكن لا نريد أن ننفرد بمنهج و بصيغة لا يعرفها الاّ العربيّ . فالمصطلح الكيميائي والصيغ الكيميائية والرموز الكيميائية كلّها ملك العالم ، وفيها لغة واحدة ، يكتب بها كل الكيميائيين في جميع ارجاء المعمورة .

٦ – لا نرى أيّ صعوبة البتّة في كتابة المعادلات والرموز والصيغ من اليسار الى اليمين ، فالطالب يعتاد على ذلك بسهولة ، ولنا فيها تجارب وخبرة قرابة نصف قرن من الزمن ، ولم نر فيها مشكلة او تعثُّر .

٧ – ساعدونا أيّها اللّغويون الأفاضل بتعريب الكيمياء ، لنعلّمها الى أبناء أبنائنا بلغة عربيّة سليمة . ودعونا وشأننا في مسألة الرموز والصيغ الكيميائية – ولو لحين –

ونرجو من الله أن يأتي اليوم الذي تعود فيه الكيمياء الى موطنها الأصلي . مُردّدين الآية الكريمة : « هذه بضاعتنا ردّت الينا » .

شكر وتقدير

القي البحث في مجلس المجمع العلمي العراقي في جلسته الخامسة عشرة المنعقدة بتاريخ ٥–٥–١٩٨٧ م وارى من واجبي تقديم وافر التقدير والاحترام الى السيد رئيس المجمع الاستاذ الدكتور صالح أحمد العلي على تقييمه لهذا البحث المتواضع .

كما أشكر الأخ الاستاذ الفاضل الدكتور جلال محمد صالح عضو المجمع على مراجعته لمسوّدات البحث وملاحظته القيمة التي أبداها ، حيث اراد بحث المصطلحات غير العضوية وتسمية الحوامض . وقد أيّدناه في ذلك ، وقلنا : اننا خصّصنا في هذا البحث ناحية واحدة من نواحي الكيمياء العضوية ، وسوف نلبي رغبة العالم الجليل في بحث لاحق انشاء الله .

ولا يفوتني ان أقدم الشكر الجزيل للأخ الاستاذ الدكتور هاشم طه شلاش ، رئيس قسم اللغة العربية في كلية التربية – جامعة بغداد – ، لماأبداه لي من مؤازرة في اكمال البحث .

المصـــادر

١ – كاتب البحث – المصطلح الكيميائي في التراث العربي – مجلة المجمع ، ج ١ – م ٣١ – بغداد ١٩٨٠ م .

٢ – المصدر السابق .

٣ – كاتب البحث – تأريخ العلم ، ص ١٦٦ بغداد ١٩٨١ م .

(4) P. Karrer : Organic Chemistry p. 23/Elsev.

(5) P. Karrer : Schweizer Chemiker Zeitunng/No.6 (1942) Zuerich.

(6) IUPAC / Nomenczature / 1979/ Pergamon Press.

٧ – المصدر السابق .

(8) Fierz — David / Dic Entwicklungs-geschiehte der Chewie/S. 47/1945 Basel.

٩ – كاتب البحث – الكيمياء عند العرب – ص ١٨ ، بغداد – ١٩٧٩ م .

١٠ – مجلة مجمع اللغة العربية الأردني – ص ٢٣١ – ٢٤٦ – العدد المزدوج (١٩ – ٢٠) كانون الثاني – حزيران ١٩٨٣ م . عمّان .

أتساخ وتسمم العوامل المساعدة

Fouling and Poisoning of Catalysts

الدكتور جلال محمد صالح
عضو المجمع
استاذ في جامعة بغداد

تمهيد :

عُرِّف العامل المساعد (Catalyst) قديماً (١) بأنه المادة التي تُزيد من سرعة بلوغ التفاعل الكيميائي الى حالة الاتزان دون أن تطرأ عليها أية تغيرات كيميائية . وقد تطور هذا المفهوم فيما بعد كثيراً واصبح للعامل المساعد اليوم معانٍ ووظائف اخرى بجانب ما ذكرناه تختلف بحسب الدور الذي يُناط به في التفاعل الكيميائي (٢) . فقد يكون دور العامل المساعد مقتصراً على خفض طاقة التنشيط (Activation energy) للتفاعل الكيميائي دون التأثير في سرعة التفاعل . وقد يمتد فعلُه الى تغيير مسار التفاعل ، أو قد يكون في تغليب مَسْلك معين على غيره من المسالك والعمل على تقليل شأن التفاعلات المتوازية أو المتنافسة او المتعاقبة او المتعاكسة الاخرى . والواقع انه ليس بالامكان سرد كافة وظائف ومهام العامل المساعد في مثل هذه الدراسة المقتضبة .

---

1 — G.C. Bond, Heterogeneous Catalysis; Principles; and Applications, (0xford University Press, 1974), P. (6—9).

2 — P. H. Emmett (ed), Catalysis, (Reinhold Publishing Co. , New york, 1954) Vol I, chapter 6.

والدول الصناعية الكبرى تكاد تحتكر صناعة وتصدير العوامل المساعدة . إذ أن هذه الصناعة تَدُرُّ مبالغ طائلة عليها . وقد صَدَقَ العالم الألماني هابر حين قال بأنه سيُعَوض عن خسارة ألمانيا في الحرب العالمية الاولى من خلال عامل مساعد واحد الذي حَضَّرَهُ خصيصاً لاستخدامه في صناعة غاز الامونيا بالطريقة التي لاتزال تُعرف باسمه (طريقة هابر) . وتُستعمل هذه الطريقة في صناعة غاز الامونيا حتى يومنا هذا . وقد ترتب على ابتداع هذه الطريقة تسجيل الألوف من براءات الاختراع الخاصة بالمركبات والمواد التي تدخل فيها الامونيا. أما بالنسبة للدول النامية، فان توفير العوامل المساعدة لصناعاتها عن طريق الاستيراد أصبح يؤلف عبئاً كبيراً على امكانات هذه الدول .

يتصف العامل المساعد الجيد بجملة من الصفات نذكر منها :

١ — كلفته الاقتصادية الواطئة وعُمُر استخدامه الطويل وامكان اعادة تنشيطه بسهولة ويُسر .

٢ — ثبات خصائصه الطبيعية والكيميائية ولاسيما خلال مدة خزنه قبل الاستعمال ، وقلة تأثره بالرطوبة والغازات والابخرة الموجودة في في ظروف الخزن او الاستخدام .

٣ — سطحه النوعي الكبير ومساميته العالية ومقاومته الشديدة للتلبد (Sintering).

٤ — انتقائيته العالية (High Selectivity) للتفاعل الكيميائي المطلوب .

٥ — مقاومته العالية للتسمم (Poisoning) .

ولعل من أكبر الأفات التي تُصيب العوامل المساعدة فتَشُلُ من فعاليتها تلك التي توصف بالتسمم (Poisoning) والاخرى التي تُدعى بالاتساخ (Fouling) . والعوامل المساعدة الصلبة عُرضة للتسمم بفعل أثار ضئيلة

من بعض المـــواد الغريبة التي تدخل التفاعل الكيميائي بصحبة المـــواد المتفاعلة (٣–٤) . والتأثير السُمي للمواد السُمية (Poisons) قد يكون وقتيـــاً (Temporary) أو يكـــون دائميـــاً (Permanent) وذلـــك بحسب امكان إزالة التأثير من العامل المساعد . وقد تتكون المادة السُمية بنتيجة التفاعل ومثال ذلك ترسب الكربون على سطح العامل المساعد عقب تفاعل الهيدروكربونات على السطح ، وهذه هي ظاهرة الاتساخ التي أشرنا اليها قبل قليل .

والعوامل المســـاعدة الفلزية (Metal Catalysts) تكون حســـاسة تجاه بعض مركبات الاكسجين والكبريت والنتروجين والفسفور والزرنيخ والانتمون والسلينيوم والتلريوم المشتماة على أزاوج الكترونية سائبة (٥–٧) . وتمتلك مثل هذه المركبات قُـدرة بالغة على تكوين أواصر تناسقية (Coordination bonds) مع سطح العامل المساعد وذلك عند امتزازها على السطح مما ينتج عنه التسمم . فالمادة السُمية هي إذن تلك المادة التي تُعاني امتزازاً أقوى وأشَدُ على سطح العامل المساعد من المادة المتفاعلة نفسها ، ويقال عند وصف هذا السلوك بأن المـــادة السُميـــة تمتلك معـــامل امتـــزاز (Adsorption Coefficient)

---

3 — P.H. Emmett, Catalysis, (Reinhold Publishing Co., New York, 1954), Vol. I, P. 299 — 304.

4 — D.D. Eley, H. Pines and P. B. Weisz (Editors), Advances in Catalysis, (Academic Press, New york, 1967), Vol. 25, chap. 5, P. 187 — 195.

(٥) الدكتور جلال محمد صالح « كيمياء السطح والعوامل المساعدة » مطبعة كلية العلوم ، ١٩٨٠ ، الصفحة (٢٣١) .

6 — B.M.W. Trapnell, Chemisorption, (Butterworth, London, 1955), P. 175 — 176.

7 — R.H. Griffith and J.D.F. Marsh, Contact Catalysis, (0xford University Press, 1957), Chapter 7, P. 193 — 207.

أعلى مما للمادة المتفاعلة، فاذا كان b_A و b_B يمثلان على التوالي معاملي الامتزاز للمادةالمتفاعلة A وللمادة السُمية B و P_A و P_B هما ضغطا المادتين، فان كسر (O_A) سطح العامل المساعد الذي يتغطى بالمادة المتفاعلة A في وجود المادة السُمية B على السطح معطى بالمعادلة —

$$O_A = b_A P_A / b_B P_B \quad (1)$$

ويلاحظ في هذا المعادلة أنه بازدياد قيمة b_B (في مقام المعادلة ١) تقل قيمة المقدار O_A ، أي يقل كسر السطح الذي سيتغطى بالمادة المتفاعلة A .

الاتساخ (Fouling)

تتخلف في كثير من الاحيان بقايا كربونية (Carbonaceous Residue) على بعض العوامل المساعدة عند استخدامها في التفاعلات الكيميائية التي تشتمل على مركبات عضوية ولاسيما الهيدروكربونات ، وسُميت هذه الظاهرة بالاتساخ (Fouling) . ويحدث الاتساخ بسرعة على عوامل مساعدة كثيرة مثل « السليكا والألومينا » و « السليكا والمغنسيا » المستخدمين في تفاعلات تكسير بعض مشتقات البترول . وقد وجد أن سرعة تكوين الكوك (dc/dt) على سطح العامل المساعد الذي أُصيب بالاتساخ تتناسب عكسياً مع تركيز الكوك (C) وفق المعادلة (٧—٨) :

$$dc/dt = k/c \quad (2)$$

وأن

$$c = (2kt)^{1/2} \quad (3)$$

ويمثل K في المعادلة (٢) ثابت السرعة للتفاعل، وللتفاعل هذا معامل صغير لدرجة الحرارة . والنتائج التجريبية المستخلصة دلت على أن الانتشار الى المراكز الفعالة على السطح من خلال الكوك المتكون هو الذي يتحكم في

8 — V. Voorhies, Indust. Eng. Chem., 1945, 37, 318.

سرعة تصنيع الكوك . ووجد أيضاً أن فعالية العامل المساعد في تفاعلات التكسير (Cracking Reactions) كانت تتناسب عكسياً مع الجذر التربيعي للزمن (أي مع جذر المقدار t) . وكان بالامكان استعادة فعالية العامل المساعد بعملية حرق الكوك في الهواء او الاوكسجين .

قاس بلاندنج (٩) (Blanding) فعالية الطين الطبيعي عقب استخدامه كعامل مساعد لتكسير زيت الغاز (Gas oil) ووجد أن الفعالية قد قلتْ الى ١٪ من الفعالية الاصلية خلال دقيقة واحدة على سير تفاعل التكسير ، وأن الفعالية أُختزلت الى ٠و١ ٪ بعد نصف ساعة من الاستعمال،وهذا ناجم بطبيعة الحال عن اتساخ العامل المساعد (الطين) بالبقايا الكربونية لتفاعل التكسير .

وقام عدد من المشتغلين (١٠) بفحص الرواسب المتكونة على سطح أوكسيد الكروم (Cr_2O_3) عند استعماله في تفاعلات نزع الهيدروجين عن الهيدروكربونات المختلفة . فالهكسان الحلقي (Cyclohexane) ترك مقداراً قليلاً من الراسب الذي أحتوى على نسب ملحوظة من الهيدروجين والبارافينات والاوليفينات ، أما البقايا في حالة البنتانات الحلقية (Cyclopentanes) فكانت تحتوي بصورة رئيسة على الكربون . أما في حالة المشتقات الاليفاتية للمركبات العطرية مثل أثيل البنزين فقد كانت المواد المتخلفة على سطح العامل المساعد شبيهة بالقطران .

ووجد (١١) هرنكتون (Herington) ورديل (Rideal) أن فقدان الفعالية للعاملين المساعدين اوكسيد المولبدنوم MoO_2 واوكسيد الكروم

---

9 — G. Blanding, Ind. Eng. Chem., 1953, 45, 1186.

10 — A.G. OBlad, R.F. Marschner and C. Heard, J. Amer. Chem. Soc., 1940, 62, 2066.

11 — E.F. Herington and E. Rideal, Proc. Roy. Soc., A, London, 1945, 184, 434.

(Cr_2O_3) المستخدمين لتحويل الهبتان الى تولووين كان ناجماً عن تكوين مواد متعــددة الجزئيـــات (Polymers) التي كانت تعـــاني امتـــزازا قـــوياً على المراكز الفعالة من سطح العامل المساعد . وكان بالامكان التقليل من تأثير فقدان الفعالية هذا بتخفيف العامل المساعد بوساطة اوكسيد الالمنيوم Al_2O_3 . فالاوكسيد المضاف كان يسبب ابعاد المراكز الفعالة عن بعضها البعض .

وفي دراسة (١٢) لتأثير المكونات المختلفة لغاز الفحم على هدرجة الثايوفين على سطح ثنائي كبريتيد المولبدنوم كعامل مساعد تبين أن معظم المركبات تسبب اعاقة رجوعية لتفاعل الهدرجة في حين تسببَ البنتادائين الحلقي عن اتساخ دائم للعامل المساعد .

دلت التجارب (١٣) أن الاتساخ ينجم أيضاً عن بقايا غير كربونية مثل دقائق الغبار وغيرها من المواد اذا بلغت أقطارها او . ميكرون . فقد تبين أن وجود دقائق الغبار او غيرها بمثل هذه المواصفات مع المواد المتفاعلة يسبب اتســـاخ اقراص اوكسيد الحديد المرقى (Promoted) المستخدمة كعامل مساعد في الكثير من التفاعلات الكيميائية ، بسبب تغطية تلك الدقائق لسطح العامل المساعد فيحدث عندئذ نقصان ملحوظ في الفعالية .

التسمم Poisoning

تكون المواد السُمية على اربعة أنواع :

١ ـ المواد السمية الامتزازية(١٤) (Chemisorbed Poisons)

وهي المواد السُمية التي تعـــاني امتززاً كيميائيا على سطح العامل المســـاعد . ويتركز دور هذا النوع من المواد السُمية في :

12 — R.H. Griffith, J.D.F. Marsh and W.B.S. Newlin̈, Proc. Roy. Soc. Ser. A, London, 1949, 197, 194.

13 — G.L. Bridger, D.C. Germes and H.L. Thompson, Chem. Eng. Progr., 1948, 44, 368.

14 — E.B. Maxted J. Soc. Chem. Ind., 1948, 67, 93.

أ - تحــويل المواقــع الفعالة (Active Sites) على سطح العــامل المساعد الى مركب غير فعال على السطح .

ب - التأثير على عـدد الالكترونات الحرة او على عدد الالكترونات أو الفجوات (Holes) الموجودة عند سطح العامل المساعد .

٢ - المواد السمية الانتقائية(١٥) (Selective Poisons)

وهي المواد التي تؤثر على انتقائية العامل المساعد وتُحدث نقصانا حاداً في قدرته الانتقائية ، وتزداد حدة التأثير مع مرور الزمن . ولعل من أهم الأمثلة على هذا النوع من المواد السُمية مركبات بعض العناصر مثل النيكل والفناديوم والكروم والحديد عنـــد وجودها مع الزيوت الغازية في عمليات التكسير على بعض العوامل المساعدة .

٣ - المواد السمية الثباتية(١٦) (Stability Poisons)

وهي تمثل النوع الثالث من المواد السُمية التي تمتاز بقدرتها الكبيرة في تقليل ثبات واستقرار البنية الفيزيائية والكيميائية للعوامل المساعدة . وينحشر جـــل السليـــكا (Silica Gel) وجـــل الألومينـــا (Alumina Gel) ضمن هذا النوع . والتسمم من هذا النمط يسبب تقليصاً بالغا في المساحة السطحية للعامل المساعد . ويتوقف مدى تسمم العامل المساعد بهذا النوع من المواد السُمية على أنصاف أقطار مسامها . فالعوامل المساعدة التي تكون أقطار مسامها صغيرة هي اكثر عرضة للتسمم بهذه المواد السُمية من العوامل المساعدة التي تكون أقطار مسامها كبيرة .

٤ - المواد السمية الانتشارية Diffusion Poison

والمادة السُمية من هذا النوع تعيق عادة انتشار المواد المتفاعلة على سطح وفي مسام العامل المساعد . ويحدثُ التسمم بسبب إنسداد المسام فيتعذر عندئذ

15 — G.A. Mills, Ind. Eng. Chem., 1950, 42, 182.

16 — G.A. Mills and H.A. Shabaker, Petrolum Refiner, 1951.

وصول المواد المتفاعلة الى السطح الداخلي للمسام . وتترسب المادة السُمية عادة بالقرب من السطح الخارجي للمسام مكونة قشرة سطحية ، ويحدث هذا النوع من التسمم بصورة رئيسة على العوامل المساعدة التي تمتاز بمساحة سطحية خارجية واطئة ، ويشمل هذا العوامل المساعدة التي تكون بأشكال حبيبية أو على هيئة أقراص .

تتفاعل أكاسيد الكبريت مع المواد السمية من هذا النوع مثل الاكاسيد القلوية لتكوين قشرة من كبريتات العناصر القلوية على سطح العامل المساعد وعند السطح الخارجي للمسام فتمنع عندئذ انتشار المواد المتفاعلة الى داخل المسام .

العوامل المؤثرة في حـدة التسمم

١ — تركيز المادة السمية

يكون عمل المادة السُمية بثلاثة أشكال : (١٧—١٩) .

أ — حدوث امتزاز متكافيء على مواقع مختلفة الفاعلية من سطح العامل المساعد . ويسبب هذا النوع من امتزاز المادة السُمية خفض فعالية العامل المساعد بصورة مباشرة ، ويزداد وَقْعُ هذا التأثير مع ازدياد تركيز المادة السُمية .

ب — ميل المادة السُمية للامتزاز على المواقع الاكثر فعالية على سطح العامل المساعد وهذا من شأنه خفض فعالية العامل المساعد بدرجة كبيرة ، ويزداد هذا التأثير مع تزايد تركيز المادة السُمية .

جـ — امتزاز المادة السُمية على المواقع غير الفعالة من سطح العامل المساعد . ويكون تأثير هذا الامتزاز صغيراً بالنسبة الى خفض فعالية العامل المساعد .

17 — S.Z. Roginskii, J. Phys. Chem. (U.S.S.R.), 1948, 22, 655.

18 — S.Z. Roginskii, J. Phys. Chem. (U.S.S.R.), 1947, 21, 1143.

19 — S.Z. Roginskii, Izvest. Akad. Nauk, 1948, 383.

وتدل المعلومات المتوفرة في الادبيات (٢٠) أن تأثير تركيز (C) المادة السُمية على الفعالية الأصلية (K_o) للعامل المساعد يخضع للعلاقة :

$$K_c = K_o (1 - \propto C) \quad (4)$$

حيث يمثل K_c فعالية العامل المساعد في وجود التركيز C (مول في اللتر) من المادة السمية الممتزة على سطحه ، و $\propto$ هو معامل التسمم (Poisoning Coefficient) . ويلاحظ في هذه المعـــادلة أن زيادة تركيز الماد السُمية تُحدثُ نقصانا كبيراً في فعالية العامل المساعد ، ويزداد مقدار التناقص في الفعالية كذلك بازدياد قيمة معامل التسمم $\propto$. وعندما تكون المادة السُمية غازية فانه تأثير ضغط المادة السُمية على فعالية العامل المساعد يكون شبيهاً الى الى حد كبير بتأثير التركيز المشار اليه توأ . أما تأثير تركيز المادة السُمية على الأنواع الأخرى من التسمم فقد نال اهتماما قليلا . وتُبين الاشكال (١–٤) تأثير تركيز المادة السُمية على فعالية العامل المساعد ، حيث يُشاهد انخفاض حاد في فعالية العـــامل المساعد مع الاضافات الصغيرة للمادة السُمية ، ويصبح تناقص الفعالية أقل حدة عع ازدياد تركيز المادة السُمية . ويتفق هذا السلوك مع ما هو وارد في المعادلة (٤). وتتمثل قيمة $\propto$ في هذه العلاقات البيانية في انحدار كل خط من خطوط تناقص الفعالية .

٢ ـ تأثير السطح النوعي والمسامية

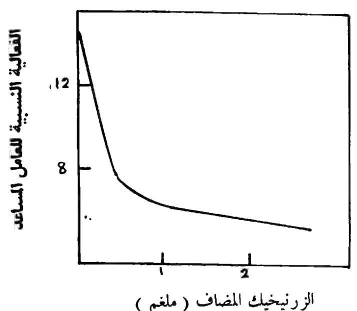
عندما يخلو تفاعل كيميائي من أي تأثير للمواد السُمية . وهذا يتحقق عادة عند غياب المادة السُمية من التفاعل ، فان فعالية العامل المساعد تزداد بازدياد مساحته السطحية شريطة أن يكون تفاعل السطح هو الخطوة المقررة للتفاعل . وقد أُشير في الأدبيات (٢٠) أنه عند تسمم العوامل المساعدة البلاتينية

20 — E.B. Maxted, K.L. Moon and E. Overgage, Disc Faraday Soc., 1950, 8, 135.

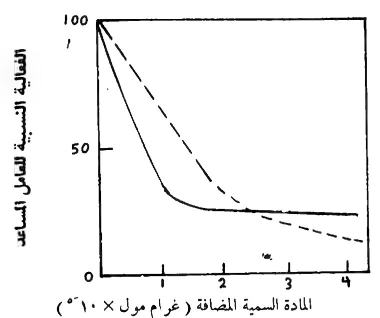
بوساطة كبريتيد المثيل ، فان معامل التسمم ($\propto$) يعتمد على المساحة السطحية للعامل المساعد . وقد أمكن ربط فعالية العوامل المساعدة التي تتعرض للتسمم بسطحها النوعي من خلال العلاقة :

$$K_c = K_o S\,(1 - KC/S) \qquad (5)$$

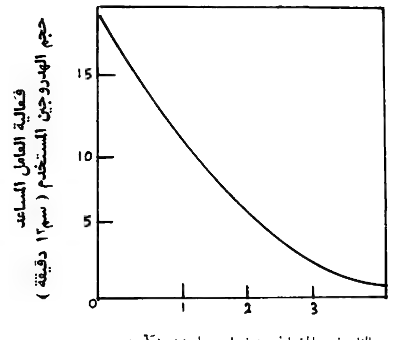
حيث :



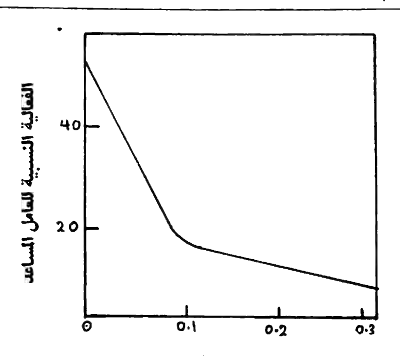
الشكل–١–تأثير المادةالسمية(الزرنيخيك)المضافة علىفعالية ٣٥و٠غرامالبلاتين .



الشكل ـ٢ـ سُمية الماء الخالي من البيريدين (الخط التام) أو الثايوفين (الخط المنقط) للبلاتين المستخدم كعامل مساعد في هدرجة السيكلوهكسان (الهكسان الحلقي).



الشكل ـ ٣ ـ تناقص فعالية البلاتين المسنَد المستخدم كعامل مساعد بتأثير الثايوفين المضاف عند هدرجة حامض الكروتونيك في الطور السائل.



الشكل — ٤ — منحنى التسمم للبلاتين المستخدم كعامل مساعد
الذي يتسمم بأيونات الزئبق عند استخدام
العامل المساعد لتفكك فوق اوكسيد الهيدروجين .

Ko = الفعالية الاصلية للعامل المساعد بالنسبة الى وحدة المساحة السطحية ،

S = السطح النوعي للعامل المساعد، أي مساحته السطحية للغرام الواحد منه .

K = S ∝ = معامل التسمم بالنسبة الى وحدة المساحة السطحية .

C = تركيز المادة السمية ، ويكون عادة بالمول (أوكسورالمول) في اللتر .

Kc = الفعالية النوعية للعامل المساعد المتسمم بالنسبة الى وحدة المساحة السطحية

وعلى هذا فان فعالية العامل المساعد في غياب المادة السمية (أي الفعالية الاصلية للعامل المساعد Ko) تزداد بازدياد سطحه النوعي (S) بدرجة اكبر مما لو وجدت مادة سمية بتركيز C على سطحه .

ويصبح تأثير التسمم أشد وأقوى عندما تتعرض مسام العامل المساعد الى إنسداد سريع من قبل المادة السُمية . والعوامل المساعدة التي تمتلك مساماً أضيق بالقياس الى قطر المادة السُمية تكون أقل تأثراً بالمادة السُمية مما لو كانت المسام اوسع قُطراً ، وعندما تكون مسام العامل المساعد واسعة يكون بامكان المادة السُمية اختراق المسام والتعثر في مسالكها او في مداخلها فَتَتَسَبَبْ في انسداد المسام بسرعة كبيرة . والانسداد الجزئي او الكلي لمداخل او مسالك المسام يؤدي الى خفض بالغ في فعالية العامل المساعد .

٣ ـ تأثير درجة الحرارة(٢١)

يقل تأثير التسمم الامتزازي بارتفاع درجة الحـرارة ، وهـذا أمر متوقع لأن الامتزاز يقل مع ارتفاع درجة الحرارة . والتفاعلات التي لا تتم في درجات الحرارة الواطئة بسبب التسمم الامتزازي يمكن أن تحدث في درجات حرارية أعلى وطبيعي أن تكون طاقة تنشيط التفاعل في وجود المادة السُمية أعلى بكثير مما لوكانت المادة السُمية غائبة عن سطح العامل المساعد .

والتسمم الانتشاري يتأثر أيضاً بدرجة الحرارة ولكن بدرجة أقل من التسمم الامتزازي . لان عملية الانتشار تعتمد على الجذر التربيعي لدرجة الحرارة . أما تأثير درجة الحرارة على التسمم الانتقائي فانه يتغير بحسب طبيعة التفاعل وطبيعة العامل المساعد المستخدم فيه . ويزداد تأثير التسمم الثباتي بشكل كبير مع زيادة درجة الحرارة .

بعض حالات تسمم العوامل المساعدة

عند تحضير غاز الامونيا صناعياً ، فان العامل المساعد المشتمل على عُنصر الحديد يتسمم بسرعة عند وجود تراكيز ضئيلة من غاز كبريتيد الهيدروجين أو بخار الماء مع المواد المتفاعلة . والتأثير السُمي لكبريتيد الهيدروجين يكون

21 — S. Berkman, J. C. Morrell and G. Egloff, Catalysis, (Reinhold Publishing Corp., New york, 1940).

دائمياً وغير رجوعي بحيث أن اعادة تنشيط العامل المساعد تتطلب حرقه جيداً واختزاله بعد ذلك بوساطة الهيدروجين النقي . ويعزى هذا السلوك الى ثبات كبريتيد الحديد المتكون بتفاعل كبريتيد الهيدروجين مع العامل المساعد ولان الكبريتيد المتكون لا يمتلك أية فعالية مساعدة في تفاعل تحضير الامونيا (٢٢) .

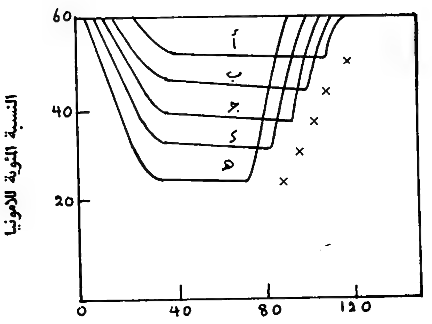
أما تفاعل بخار الماء على العامل المساعد فانه يكون رجوعياً وأن بالامكان تفادي هذا التأثير بتجفيف الغازات المتفاعلة جيداً قبل ادخالها في المفاعل . ويكون اوكسيد الحديد غير الفعال المتكون في المرحلة الاولى من التفاعل ثابتاً في وجود التراكيز القليلة من بخار الماء . وتدل المعلومات المتوفرة لدينا ان أكاسيد الكربون وثنائي اوكسيد الكبريت وأكاسيد النتروجين تسلك سلوكا مشابها لبخار الماء في تقليل الامونيا المحضر من غازي النتروجين والهيدروجين. والتأثير الأولي لاضافة هذه الغازات الى ظروف التفاعل هو احداث زيادة وقتية في تركيز الامونيا من جراء ازاحة الغازات المتفاعلة للامونيا الممتز على سطح العامل المساعد . أما عند استعمال نتريد اليورانيوم كعامل مساعد عند تحضير الامونيا ، فان السطح يتسمم بصورة دائمة بوساطة بخار الماء الذي يعمل على تحويل النتريد الى اوكسيد ثابت خال من الفعالية المساعدة بالنسبة لتفاعل تحضير الامونيا . وجرت دراسات مستفيضة أخرى (٢٣) على تسمم العوامل المساعدة الحديدية .

أضيفت كميات محسوبة من غاز الاوكسجين الى مزيج النتروجين والهيدروجين المستخدم لتحضير الامونيا ، وكانت النتائج المستحصلة كما في في الشكل (٥) . حدث انخفاض سريع وكبير في مقدار الامونيا المتكون ،

22 — A. Ussatschev, Z. Electrochem., 1934, 40, 647.

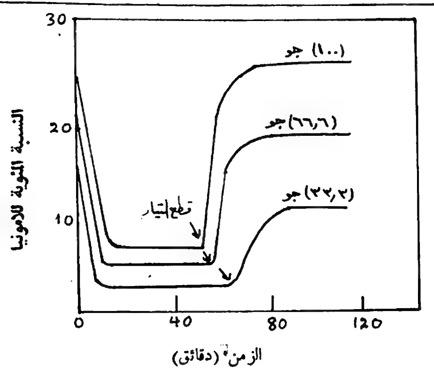
23 — J.A. Almquist and C.A. Black, J. Amer. Chem. Soc., 1962, 48, 2814.

وبقي الأمر على هذا الحال طيلة وجود الاوكسجين مع الغازات المتفاعلة . وخلال زمن التناقص السريع في مقدار الامونيا من جراء تناقص فعالية العامل المساعد أمكن التحقق عن تكوين الماء وتسربه الى مزيج النتروجين والهيدروجين ، إلا أن مقداره لم يكن مكافئاً لكمية الاوكسجين المضافة الى التفاعل . وهذا يوضح استهلاك قسم من الاوكسجين المضاف في أكسدة العامل المساعد الى اوكسيد الحديد . وعند ادخال دفعة جديدة من مزيج النتروجين والهيدروجين الخالي من الاوكسجين عاد التفاعل الى ما كان عليه وازداد مقدار الامونيا المتكون بشكل ملحوظ . وكان بالامكان طرد الاوكسجين الذي أُضيف الى الى التفاعل والتخلص منه كليا على هيئة بخار ماء . وأُجريت (٢٤) دراسة



الشكل ــ ٥ ــ تأثير الأوكسجين المضاف على الحديد المرقى المستخدم كعامل مساعد لتحضير الامونيا . جرى ايقاف مرور الاوكسجين عند النقطة × . تزداد كميات الاوكسجين المضافة من أ الى هـ .

24 — P.H. Emmett S. Brunauer, J. Amer. Chem. Soc., 1930, 52, 2682.



الشكل — ٦ — تأثير بخار الماء المضاف على العامل المساعد « الحديد والالومينا واوكسيد البوتاسيوم » . قُطِع تيار بخار الماء بعد حوالي ساعة واحـــــدة .

مماثلة باستعمال عامل مساعد مخلوط يتكون من الحديد والألومنيا واوكسيد البوتاسيوم ، وأُستعمل هذا العامل المساعد لتحضير الامونيا على نطاق صناعي ، وتمت دراسة تأثير اضافة بخار الماء تحت ضغوط مختلفة على سير التفاعل ، والنتائج المستحصلة من الدراسة موضحة في الشكل (٦) .

وهناك دراسات أُخرى تتعلق بأنواع المواد التي تُسَبّب تسمم البلاتين المستخدم في تفاعلات معينة مثل هدرجة المركبات العضوية غير المشبعة ، وتفكك فوق اوكسيد الهيدروجين واكسدة ثنائي اوكسيد الكبريت (٢٥—٢٦) ،

25 — E.B. Maxted, J. Chem. Soc., 1922, 121, 1760.

26 — E.B. Maxted, Ind. Chem. Mfr., 1955, 31, 172.

وكانت فعالية العامل المساعد في أغلب هذه التفاعلات دالة خطية مع تركيز المادة السُمية الموجودة مع المواد المتفاعلة . ويوضح الشكل (١) الذي مر بنا في فقرة سابقة تأثير الزرنيخيك في تسمم البلاتين المستخدم لتحضير ثلاثي اوكسيد الكبريت . ويوضح هذا الشكل أن تأثير الاضافات الاولى من المادة السُمية على سير التفاعل كان أشد واكبر من تأثير الدفعات الأخرى للمادة السُمية . ولم يكن بامكان المادة السُمية قط ازالة فعالية العامل المساعد بصورة كاملة .

تمت دراسة تفاعل التبادل للهيدروجين في ثنائي أثيل الايثر مع الديوتيريوم (٢٧) على عدد من الرقوق الفلزية . وقد تبين أن المواد الناتجة من تفكك الايثر تعمل كمواد سُمية وتعيق عمليات التبادل المضاعف (Multiple Exchange) على هذه الرقوق . وأُستخدم سلك التنكستن (Tungsten wire) المسخن الى اكثر من (١٠٠٠) درجة مئوية لغرض تحويل الهيدروجين الجزيئي الى هيدروجين ذري (٢٨–٢٩) . وجد أن سرعة تحول جزئيات الهيدروجين الى ذرات تتناسب مع الجذر التربيعي لضغط غاز الهيدروجين ، وتسير هذه العملية بطاقة تنشيط تُقَدر بحوالي (٢١٠) كيلو جول للمول الواحد . وتبين أن أبخرة المواد الزيتية الموجودة على صنابير الجهاز تُسمم سلك التنكستن وتقلل من قدرته في تحويل الجزئيات الى ذرات . ويحدث نفس هذا التأثير من قبل ابخرة المواد الزيتية بالنسبة لامتزاز الاثيلين على السلك .

---

27 — J.K.A. Clark and C. Kemball, Trans. Faraday Soc., 1959, 55, 98.

28 — T. Ivanoiskaya and I. Mochan, Zhur. Fiz. Khim, 1948, 22, 439.

29 — D. Brennan and P.C. Fletcher, Proc. Roy. Soc., A, 1959, 250, 389; Trans. Faraday Soc., 1960, 56, 1662.

اصناف المواد السمية

إن المواد السُمية التي تُظهر تأثيرات سُمية قوية تجاه البلاتين المستخدم كعامل مساعد في الصناعة تقع في ثلاث زمر :

(١) الجزيئات التي تحتوي على عنصر من الزمرتين الخامسة (ب) أو السادسة (ب) من الجدول الدوري ، وهي عناصر النتروجين ، والفسفور والزرنيخ والانتمون والاوكسجين والكبريت والسلينيوم والتلريوم .

(٢) مركبات وأيونات بعض الفلزات .

(٣) جزئيات بعض المواد التي تحتوي على أواصر مضاعفة (Multiple Bonds)

وقام عدد من البـــاحثين بدراسة التأثيرات السُمية لايونات بعض الفلزات (٣٠) وذلك بدلالة قيم معامل التسمم (∝) بالنسبة للبلاتين المستخدم كعامل مساعد . وبَيَنَتْ الدراسة أن تلك الأيونات تقع في صنفين :

أ ــ الصنف الأول ــ ويضم أيونات بعض الفلزات الأُحادية التكافؤ ، وهذه الايونات تملك سُمية نسبية (Relative Toxicity) تبلغ الواحـــد الصحيح (الجـدول ١) .

ب ــ الصنف الثاني ــ ويشمل الأيونات الثنائية التكافؤ لبعض الفلزات والتي تمتلك سُمية نسبية تُقدر بأربعة أضعاف السُمية النسبية التي أظهرتها أيونات الصنف الأول كما هو واضح في الجدول (١) .

وأوضح بعض الباحثين (٣١) أن الايونات السُمية أشتملتْ في الأقل على خمسة الكترونات في المدارات الخمسة لغلاف d . أما الايونات التي

---

30 — E.B. Maxted and A. Marsden, J. Chem. Soc., 1940, 469.

31 — E.B. Maxted and K. Ball, J. Chem. Soc., 1949, 1987.

تكون أغلفة d فيها خالية تماماً من الالكترونات (كأيونات الفلزات القلوية وأيونات فلزات التراب القلوية) أو تحتوي على اربعة الكترونات (مثل الأيون Cr^{2+}) فانها تكون عموماً غير سُمية (الجدول ٢). دُرِس كذلك سلوك هدريدات الفسفور والزرنيخ والانتمون والبزموث تجاه البلاتين ، ولوحظ أن الزيادة في السُمية النسبية مع ازدياد الوزن الذري كانت طفيفة كما هو مبين في الجدول (٣).

التركيب الالكتروني للمواد السمية

إن المركبات الكيميائية التي تشتمل على عنصر من الزمرة الخامسة (ب) أو السادسة (ب) تكون سُمية فقط اذا أمتلكت زوجاً او اكثر من الالكترونات السائبة (Unshared Electrons) . وتستعمل هذه الالكترونات

الجدول (١) - السُمية النسبية لايونات بعض الفلزات

الأيون	السمية النسبية	نصف القطر (انكستروم)	التكافؤ
Cu^{+}	١,–	١,٢٧	١
Ag^{+}	١,–	١,٤٤	١
Au^{+}	١,–	١,٤٠	١
Hg^{+}	١,٧	١,٤٩	١
Tl^{+}	٢.٨	١,٩٩	١
Pb^{2+}	٣,٧	١,٧٤	٢
Ni^{2+}	٣,٧	١,٢٤	٢
Fe^{2+}	٤,١	١,٢٧	٢
Co^{2+}	٥,١	١,٢٥	٢
Mn^{2+}	٤,–	١,١٨	٢
Zn^{2+}	٤,–	١,٣٥	٢
Cd^{2+}	٤,–	١,٤٩	٢

الجدول ــ ٢ ــ التشكيل الالكتروني لايونات بعض الفلزات
لغرض إظهار سلوكها السُمي تجاه البلاتين

الايونات الفلزية التي أختبرت Metal ions tested					اشغال المدارات الخارجية بالالكترونات Electronic occupation of external orbitals								السُمية تجاه البلاتين Toxicity towards platinum
Li^{+}	Be^{2+}				No *d* shell.								Nontoxic
Na^{+}	Mg^{2+}	Al^{3+}			No internal *d* shell.								Nontoxic
K^{+}	Ca^{2+}				3d	○	○	○	○	○	4s	○	Nontoxic
Rb^{+}	Sr^{2+}		Zr^{4+}		4d	○	○	○	○	○	5s	○	Nontoxic
Cs^{+}	Ba^{2+}	La^{3+}			5d	○	○	○	○	○	6s	○	Nontoxic
		Ce^{4+}											
			Th^{4+}		6d	○	○	○	○	○	7s	○	Nontoxic
Cu^{+}	Zn^{2+}				3d	⊚	⊚	⊚	⊚	⊚	4s	○	Toxic
Cu^{2+}					3d	⊚	⊚	⊚	⊚	⊙	4s	○	Toxic
Ag^{+}	Cd^{2+}	In^{3+}			4d	⊚	⊚	⊚	⊚	⊚	5s	○	Toxic
			Sn^{2+}		4d	⊚	⊚	⊚	⊚	⊚	5s	⊚	Toxic
Au^{+}	Hg^{2+}				5d	⊚	⊚	⊚	⊚	⊚	6s	○	Toxic
	Hg^{+}				5d	⊚	⊚	⊚	⊚	⊚	6s	⊙	Toxic
		Tl^{+}	Pb^{2+}	Bi^{3+}	5d	⊚	⊚	⊚	⊚	⊚	6s	⊚	Toxic
Cr^{2+}					3d	⊙	⊙	⊙	⊙	○	4s	○	Nontoxic
Cr^{3+}					3d	⊙	⊙	⊙	○	○	4s	○	Nontoxic
Mn^{2+}					3d	⊙	⊙	⊙	⊙	⊙	4s	○	Toxic
Fe^{2+}					3d	⊚	⊙	⊙	⊙	⊙	4s	○	Toxic
Co^{2+}					3d	⊚	⊚	⊙	⊙	⊙	4s	○	Toxic
Ni^{2+}					3d	⊚	⊚	⊚	⊙	⊙	4s	○	Toxic

الجدول (٣) ــ معامل التسمم والسمية النسبية لبعض العناصر

العنصر	معامل التسمم ($\times 10^{-5}$)	السمية النسبية	نصف قطر الذرة (الفعال)
P	١,٢٣	١,ــ	٠,٨٧
As	١,٢٣	١,ــ	١,٢٥
Sb	١,٢٩	١,٠٥	١,٤٥
Bi	١,٥٩	١,٢٩	١,٥٥

السائبة في التآصر الامتزازي مع العامل المساعد لتكوين أواصر تناسقيةقوية. ودلت قياسات (٣٢) القابلية المغناطيسية خلال امتزاز كبريتيد ثنائي المثيل (Dimethyl Sulphide) عـلى فلـز البلاديـوم أن الالكتـرونات السـائبة للمادة الممتزة تدخل حزمةd لفلز البلاديوم لتكوين أواصر تناسقية . ويلاحظ في العمود الأيسر من الشكل (٧) التراكيب الالكترونية لبعض المركبات السُمية التي تحتوي على عناصر من الزمرتين الخامسة (ب) او السادسة (ب) من الجدول الدوري . ويلاحظ في التركيب الالكتروني لكل مركب زوج أو اكثر من الالكترونات السائبة . ويمكن التخلص من الأثار السُمية لهذه المركبات بارتباط تلك الالكترونات السائبة التي أشرنا اليها قبل قليل باواصر كيميائية مع الهيدروجين او الاوكسجين فتتحول المركبات السُمية عندئذ الى مركبات غير سُمية ، وهذا مُبين في التراكيب الالكترونية المعروضة في العمود الأيمن من الشكل (٧) ، وتدل المعلومات المتوفرة في الادبيات (٣٣-٣٤) أن البلاتين المستخدم كعامل مساعد في التفاعلات لا يتسمم بالمواد مثل الكبريتات والفوسفات والثايو كبريتات ورباعي الثايونات . وأن بالامكان ازالة التأثير السُمي للكبريتيت باكسدته الى كبريتات كما هو مبين فيالشكل (٨) .

ويمكن التخلص من التأثير السُمي للكبريتيدات العضوية (١٣٥) وذلك بتحويلها الى سلفونات ذات بنية الكترونية مشبعة . فقد اوضح ماكستد (Mazted) (٣٥) أنه يمكن تحـويل بعض المواد السُمية الى مركبات غير سُمية أثناء حدوث التفاعل.ففي هدرجة حامض الكروتونيك على سطح العامل المساعد البلاتيني يتسمم الاخير عند اضافة مقادير صغيرة من بعض مركبات

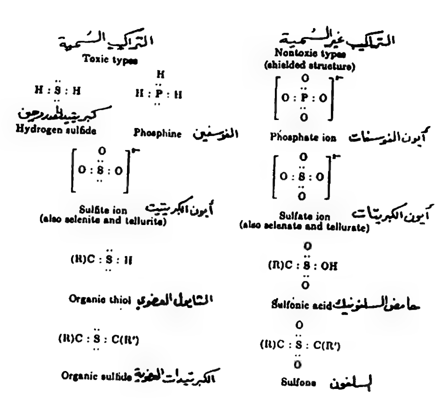
32 — M.H. Dilke, D.D. Eley and E.B. Maxted, Nature, 1948, 161, 804.

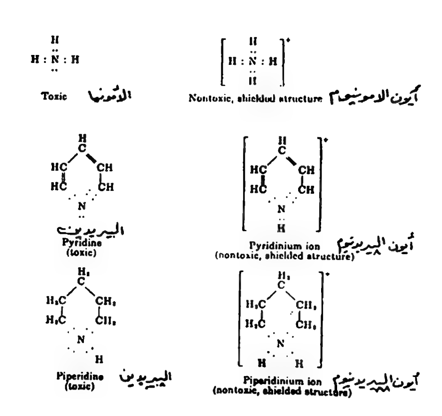
33 — E.B. Maxted and H. Morris, J. Chem. Soc., 1940, 252.

34 — E.B. Maxted and H. Morris, J. Chem. Soc., 1941, 132.

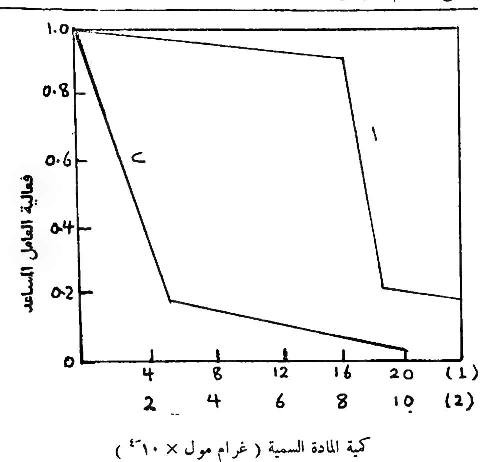
35 — E.B. Maxted, J. Chem. Soc., 1945, 204.

الكبريت مثل السستين أو الثايوفين او الثايونفثول الى التفاعل . ويمكن تحويل هذه المواد السُمية الى مركبات غير سُمية وذلك باضافة مقدار قليل من عامل مؤكسد الى جهـــاز التفاعل . والمواد المؤكسدة التي تحقق هـــذا الغرض هي فوق الكبريتات وفوق التنكستات وفوق الكرومات وفوق الفوسفات وفوق الفنادات (الشكل ٩) . ولابد من ضمان عدم تأثير حامض الكروتونيك نفسه بالعامل المؤكسد الموجود في ظروف التفاعل . ويبين الشكل (١٠) تأثير اكسدة السستين الى حامض السستنيك على سرعة هدرجة حامض الكروتونيك على سطح البلاتين المستخدم كعامل مساعد .

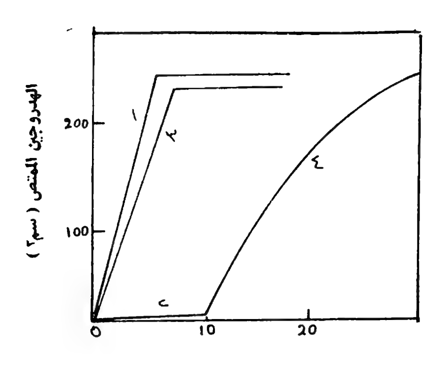




الشكل — ٧ — التراكيب السُمية والتراكيب غير السُمية لبعض المركبات الكيميائية . ويلاحظ زوج او اكثر من الالكترونات السائبة على ذرة الكبريت أو الفسفور او النتروجين في المركب السُمي
العمود الايسر — التراكيب السُمية .
العمود الايمن — التراكيب غير السُمية .

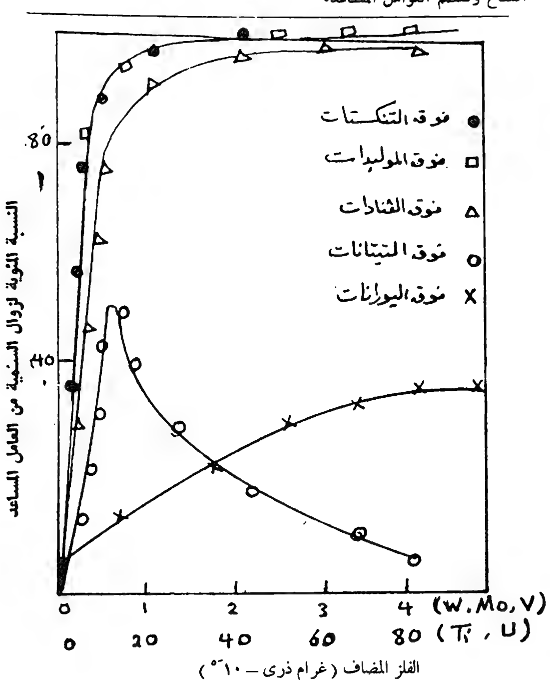


الشكل — ٨ — تسمم العامل المساعد بالكبريتيت . تفيد آثار الاوكسجين الموجودة على العامل المساعد في تحويل الكبريتيت السامة الى الى كبريتات غير سامة . (١) النظام لم يفرغ تماما من الاوكسجين . (٢) النظام في الغياب التام للاكسجين .



الزمن (الدقائق)

الشكل ــ ٩ ــ تأثير أكسدة السستين الى حامض السستنيك على سرعة هدرجة حامض الكروتونيك باستخدام البلاتين كعامل مساعد .
(١) بدون اضافة المادة السمية (السستين) . (٢) وجود ١٠^-٥ غرام مول من السستين (٣) اضافة ١٠^-٥ غرام مول من السستين بعد ازالة المادة السمية بوساطة فوق الفوسفات (٤) ١٠^-٥ غرام مول من السستين بعد ازالة السمية بوساطة فوق الكبريتات.



الفلز المضاف (غرام ذرى ـ ١٠^-٥)

الشكل ـ ١٠ ـ ازالة الآثار السُمية من السستين بوساطة بعض الاحماض الفلزية . يبين الشكل العلاقة بين كميـة المادة المزيلة للتسمم والنسبة المئوية لخفض سُمية المادة السمية .

ولا يمكن معاملة مركبات الكبريت الأخرى مثل الثايوفين والثايونافثول وثنائي كبريتيد الكربون بنفس الاسلوب لانها تقاوم الاكسدة ، ولكن بالامكان اختزالها اول الأمر ثم تتم بعد ذلك أكسدتها الى مركبات مُشبعة الكترونيا كما هو واضح في الشكل (١١) .

التركيب الجزئي للمواد السمية (٣٦ ـ ٣٧) .

دُرِسَ تأثير التركيب الجزئي للمركبات التي تحتوي على العناصر السُمية على قدرة هذه المركبات على خفض فعالية العوامل المساعدة . وأشتملت الدراسة على مركبات كثيرة منها كبريتيد الهيدروجين ، ثنائي كبريتيد الكربون ، الثايوفين . السستين ومجموعة كبيرة من كبريتيدات الالكيل والثايولات وثنائي ثايول البروبلين وثنائي كبريتيد ثنائي الأثيل . وتوصلت الدراسة الى النتائج الآتية :

١ ـ يزداد التأثير السُمي للمركبات تجاه البلاتين المستخدم كعامل مساعد بازدياد الوزن الجزئي . ويبين الشكل (١٢) أن كبريتيد الهيدروجين كان أقل المركبات سُميةً في حين كان السستين والثايوفين أقوى المركبات في سُلَم التأثير السُمي .

٢ ـ تزداد السُمية باطالة سلسلة مركب الكبريتيد ، ويتضح هذا في الشكل(١٣)

٣ ـ تقل السُمية عندما يحتوي مركب الكبريتيد على ذرتي كبريت غير متجاورتين. في حين أن تجاور ذرتي الكبريت يؤدي الى ازدياد سُمية المركب كما هو الحال مع ثنائي الكبريتيد ثنائي الأثيل .

وتدل هذه المعلومات على أن التأثير السُمي للمركب لا ينحصر في ذلك الجزء من العامل المساعد الذي يكون في تماس مباشر مع المركب السُمي ولكنه يمتد الى الاجزاء الأخرى من المركب . ولاسيما تلك الأجزاء التي تتمتع بحرية الحركة على سطح العامل المساعد .

36 — E.B. Maxted and E.V. Evans, J. Chem. Soc., 1937, 603, 1004.

37 — E.B. Maxted and E.V. Evans, J. Chem. Soc., 1938, 455.

تسمم العوامل المساعدة المستخدمة في عمليات التكسير

تمت دراسة فعالية مجموعة من مخاليط الاكاسيد (٣٨) مثل مخلوط الالومينا والسليكا ($SiO_2 - Al_2O_3$) والسليكا مع اوكسيد الزركونيوم ($SiO_2 - ZrO_2$) والسليكا مع اوكسيد المغنسيوم ($SiO_2 - MgO$) . وجد أن مركبات النتروجين العضوية مثل الكوينولين تُسمم مثل هذه المخاليط المستخدمة كعوامل مساعدة وذلك بالارتباط من خلال قوى كيميائية بذرات السطح للمخلوط ، وهذا يؤدي الى خفض مقدار الامتزاز الكيميائي على السطح في مدى درجات الحرارة من (٢٥٠) الى (٥٠٠) مئوية ،. وأُستخدم مقدار الغازولين المنتج من زيت الغاز الخفيف كمقياس لفعالية العامل المساعد، وكان مقدار المنتوج دالة مباشرة لقدرة العامل المساعد على امتزاز مركب النتروجين . لقد تبين أن اضافة المركبات النتروجينية التي أشرنا اليها قبل قليل الى مخلوط الاوكسيدين (مثل مخلوط السليكا والألومينا) تسبب خفض فعالية الاوكسيد بصورة تكاد تكون خطية كما في الشكل (١٤) . ويتضح في هذا الشكل تأثير امتزاز المادة النتروجينية السمية على سطح المخلوط في خفض الفعل المساعد للمخلوط في تفاعلات ازالة الالكيل من الكيومين . ويلاحظ في الشكل ان قدرة العامل المساعد المستعمل لهذا الغرض تقل لامتزاز البنزين . وتعتمد السُمية النسبية لمركبات النتروجين المختلفة على مقدار قاعديتها وعلى درجة ثباتها في ظروف الاستعمال . فالبيبريدين (Piperidine) الذي يمثل أقوى القواعد المستخدمة يبدو أقل سُمية من الكوينولين بسبب قلة ثباته وسهولة تفككه في ظروف الاستعمال .

---

38 — G.A. Hills, E.R. Boedeker and A.G. Oblad, J. Amer. Chem. Soc., 1950, 72, 1554.

$$H:\ddot{S}:CH_2\cdot CH(NH_2)\cdot COOH \xrightarrow{\text{Oxidation}} HO:\overset{O}{\underset{O}{\ddot{S}}}:CH_2\cdot CH(NH_2)\cdot COOH$$

أكسدة

Cysteine (toxic) — السستين (مادة سُمية)

Cysteinic acid (nontoxic, shielded structure) — حامض السستيك (غير سُمية)

أ) أكسدة السستين.

Thiophenol — الثايوفينول (سُمية) → أكسدة → Benzenesulfonic acid — حامض البنزين السلفونيك (غير سُمية)

ب) أكسدة الثايوفينول

$$CS_2 \xrightarrow{\text{Hydrogenation}} H:S:CH_2:S:H \xrightarrow{\text{Oxidation}} HO:SO_2:CH_2:SO_2:OH$$

هدرجة — أكسدة

Carbon disulfide (toxic) — ثنائي كبريتيد الكربون (مادة سُمية)

Methanedithiol (toxic) — (مادة سُمية)

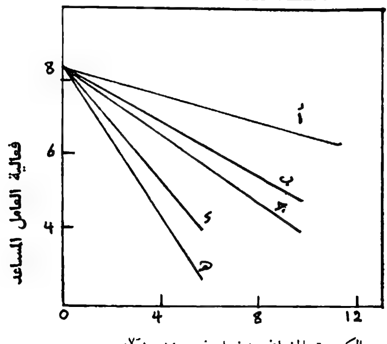
Methionic acid (nontoxic) — (مادة غير سُمية)

ج) هدرجة ثم أكسدة ثنائي كبريتيد الكربون.

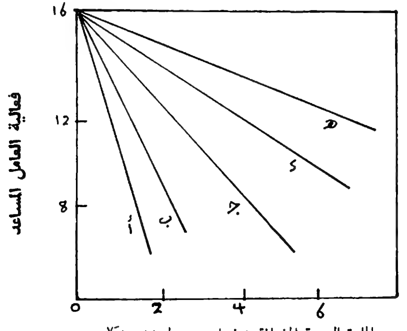
د) Thiophene — الثايوفين (مادة سُمية) → Hydrogenation هدرجة → Thiophane — الثايوفان (مادة سُمية) → Oxidation أكسدة → Thiophane sulfone — سلفون الثايوفان (مادة غير سُمية)

هـ) Thianaphthene — الثايونافثين (toxic) (مادة سُمية) → Hydrogenation هدرجة → Thianaphthane — الثايونافثان (مادة سُمية) → Oxidation أكسدة → Thianaphthane sulfone (shielded nontoxic structure) — سلفون الثايونفثان (مادة غير سُمية)

الشكل ١١ ـ ازالة التأثيرات السُمية لبعض المركبات السُمية المعروفة بعملية الاكسـدة (أوب) كما في حالة السستين والثايو فنثول أو بعمليتي الاختزال والاكسدة المتعاقبتين (دوهـ) كما في حالة الثايوفين والثايونافين .



الشكل ١٢ ــ تسمم البلاتين (٠٥.ر.غرام) المستخدم كعامل مساعد بوساطة بعض مركبات الكبريت. (أ) H_2S (ب) CS_2 (ﺟ) الكبريت (د) الثايوفين (هـ) السستين



الشكل ١٣ ــ تأثير طول السلسلة وبنيــة المادة السمية الكبريتية على البلاتين المستخدم كعامل مساعد. (أ) ثنائي الكبريتيد ثنائي الاثيل ، (ب) كبريتيد ثنائي الاثيل (ﺣ) ثايول البيوتيل (د) ثايول البروبيل ، (ﻫ) ثنائي ثايول البروبلين .

والعوامل المساعدة الخاصة بتفاعلات التكسير (٣٩) عُرضة للتسمم بفعل أيونات الفلزات القلوية . أستعمل دانفورث (Danforth) (٣٩) نوعين من العوامل المساعدة في دراسته ، يتكون الأول من ٩٠٪ من الألومينا و١٠٪ من السليكا في حين اشتمل العامل المساعد الثاني على ٨٦,٢٪ من السليكا و٩,٤٪ من اوكسيد الزركوينوم و٤,٣٪ من الألومينا . رُجَّ العاملان المساعدان مع محلول مخفف لعنصر قلوي حتى أنتقل أيون العنصر القلوي بصورة كلية عن طريقة المبادلة الى العامل المساعد . أُستعمل العامل المساعد المحتوى على العنصر القلوي في دراسة فعاليته في تكسير الاوكتان الى الغاز والغازولين بدرجة (٥٠٠) مئوية .

التسمم الانتقائي(٤٠)

هناك تفاعلات كثيرة ولاسيما العضوية منها التي تنتهي بتكوين اكثر من منتوج كيميائي في التفاعل الواحد . ويكون دور العامل المساعد في مثل هذه التفاعلات انتقائيا وذلك بتغليب أحد مسالك التفاعل على غيرها من المسالك بحيث يتكون منتوج واحد بدرجة رئيسة . إن اضافة مادة أخرى الى التفاعل قد تكون مفيدة أو مُضرة لانها قد تَزيد أو تُنقص من المسلك الرئيس للتفاعل.

وقد جرى التأكيد على الطبيعة النوعية لتأثيرات المواد السمية في الدراسة التي قام بها هوو فر ورديل (٤١) والخاصة بتفكك الكحول على اوكسيد الثوريوم المستخدم كعامل مساعد . والتفاعل هذا يؤدي إما الى ازالة الماء من الكحول لتكوين الاوليفين او الى ازالة الهدروجين من الكحول وتكوين

39 — B. Danforth, J. Phys. Chem., 1954, 58, 1030.

40 — H. Knozinger, Advances in Catalysis (Academic Press, New york, 1976), Vol. 25, P. 134—271.

41 — G.I. Hoover and E.K. Rideal, J. Amer. Chem. Soc., 1927, 49, 104.

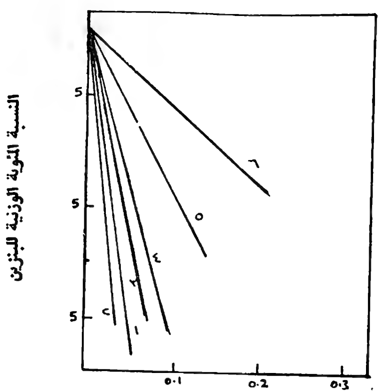
الالديهايد . والتفاعل الأول كان يواجه عوقاً في وجود الالديهايد المتكون . وأدتْ اضافة كميات ضئيلة من الكلوروفورم الى تسمم العامل المساعد بالنسبة لتفاعل ازالة الهيدروجين من الكحول ، ولكن الكلورفوم المضاف ادى الى زيادة سرعة التفاعل بالنسبة لازالة الماء من الكحول . والكميات الكبيرة من الكلوروفورم أدت الى تسمم العامل المساعد بالنسبة للتفاعلين على السواء .

أوضح ملز (١٥) Mills أنه عند ظروف مناسبة تفقد العوامل المساعدة المستخدمة في تفاعلات التكسير قُدرتها الانتقائية عند وجود فلزات مثل الحديد والنيكل والبلاديوم والفناديوم والنحاس في العامل المساعد . وهذه الفلزات إن وجدت ولو بمقادير ضئيلة تساعد على تكوين منتوجات غير مرغوب فيها . فهي تكون موجودة في بعض المواد البترولية ؛ وتتجمع في المواد الطينية وفي مخلوط السليكا والألومينا . وتفقد العوامل المساعدة الطينية قدرتها الانتقائية عند وجود الحديد معها ، ومعلوم أن الحديد يوجد بشكل طبيعي في تركيب المواد الطينية . ويتحول الحديد الى كبريتيد الحديد الفعال عند التفاعل مع مركبات الكبريت الموجودة في البترول . ويعيق البخار المضغوط مثل هذا التحول .

شوائب التسمم في العوامل المساعدة

لاينشأ خطر التسمم في التفاعلات الكيميائية فقط من الشوائب الموجودة مع المواد المتفاعلة ولكن ذلك قد يحدث أيضاً من الشوائب التي تتسرب الى العوامل المساعدة أثناء عمليات تنقية وتنشيط هذه العوامل . وقد يتكون العامل المساعد المركب من مكونين ، وأن وجود المكونين معاً يُسبب فعالية اكبر مما لو كان العامل المساعد مشتملاً على أحد المكونين . وقد يؤدي فقدان أحد المكونين من العامل المساعد الى انخفاض محسوس في الفعالية ، وهذه الحالة الأخيرة تمثل ظاهرة تسمم خاصة .

ويحدث التسمم كذلك باضافة كمية صغيرة من مادة معينة الى العامل المساعد . وقد تكون المادة المضافة على هيئة أيونات ممتزة على العامل المساعد . ولذا فان غسل العامل المساعد بصورة جيدة عقب تحضيره أمر مهم وضروري لتخليصه من هذه الايونات السُمية . يتسمم اوكسيد التيتانيوم المستعمل كعامل مساعد لازالة الهيدروجين من الهدروكربونات عند اضافة مقدار قليل من صودا الكاوية او كلوريد الكلسيوم اليه . ويفسر السلوك بأن اختزال الاوكسيد البنى غير الفعال الى اوكسيد أسود فعال لا يحدث في وجود القلوى الحر مع العامل المساعد .



الشكل ١٤ ــ التأثير السمي لمركبات النتروجين العضوية على ازالة الالكيل من الكيومين

(١) الكوينولين	Quinoline	(٤) البريدين	Piperidine
(٢) الكوينالدين	Quinaldine	(٥) الديسيلامين	Decylamine
(٣) البايرول	Pyrrole	(٦) الانيلين	Aniline

ويمكن تقليل فعالية العوامل المساعدة الفلزية من الزمرة الثامنة في الجدول الدوري المستعملة في تفاعلات الهدرجة وذلك باضافة فلزات من الزمرة الاولى (ب) اليها . وينجم نقصان الفعالية عن امتلاء حزمة دي (d) في العناصر الانتقالية بسبب اضافة عناصر الزمرة الاولى اليها . واذا كانت المادة الشائبة موجودة بمقادير ضئيلة فان تأثيراتها تزداد عند الانتقال من باطن العامل المساعد الى سطحه. لوحظ ان خيط البلاتين (Platinum filament) الذي يُنَشَّط بالتفريغ والمعاملة مع الاوكسجين يفقد فعاليته المساعدة في تفاعل اتحاد الهيدروجين مع الاوكسجين بدرجة الحرارة الاعتيادية وذلك عند تسخين الخيط في الهيدروجين بدرجة (١٠٠٠) مئوية . ولا يمكن استرجاع فعالية خيط البلاتين بتسخينه في تيار من غاز الاوكسجين . فالبلاتين المستعمل لهذا الغرض يحتوي عادة على (٠,٠١ — ٠,٠٠١) — من النحاس على هيئة اوكسيد النحاس . وليس بامكان اوكسيد النحاس الحركة والتنقل في الهيكل البلوري للبلاتين ولكن عند اختزاله الى نحاس بوساطة الهدروجين يصبح في مقدور ذرات النحاس الحركة والتجول في الهيكل البلوري للنحاس والصعود الى سطح البلاتين . وعند اعادة اكسدة البلاتين يتحول النحاس الى اوكسيد النحاس الذي يمكث على سطح البلاتين . ويمكن ازالة تأثير هذا الاوكسيد بتحويل جميع النحاس الموجود في البلاتين الى اوكسيد النحاس الذي يزال فيما بعد بالمعاملة الكيميائية مع حامض الهدروكلوريك .

تسمم الرقوق الفلزية المحضرة بالتبخير(٤٢)

إن السطوح النظيفة والنقية للرقوق الفلزية المحضرة بالتبخير (Evaporated Metal Films) عُرضة أيضا للتسمم . وتدل القيم العالية لحرارة امتزاز الكثير من الجزيئات أو الذرات او الجذور على الرقوق الفلزية

42 — D.L. Chapman and P.W. Reynolds, Proc. Roy. Soc. Ser. A, London, 1936, 156, 284.

على تكوين أواصر قوية عند الامتزاز على هذه السطوح. وتقدر حرارة امتزاز الاوكسجين على النيكل بحوالي (٥٣٠) كيلو جول للمول الواحد ولا حادي اوكسيد الكربون على نفس السطح بحوالي (١٤٥) كيلو جول للمول الواحد. فاذا كان سطح رق النيكل مكسواً بصورة جزئية بأي من هذين الغازين فان فعالية رق النيكل في تفاعل الهدرجة تتناسب مع كسر سطح النيكل غير المكسو بجزيئات الغاز الممتز (٤٣).

وتبلغ الحرارة الابتدائية لامتزاز الاثيلين على النيكل حوالي (٢٥٠) كيلو جول للمول. وجد أن تفاعل التبادل بين الهدروجين والديتريوم لا يتم على رق النيكل المغطى بالاثيلين في درجات الحرارة التي تقل عن ١٦٠ مئوية. وتدل هذه النتيجة على احتكار الاثيلين لسطح النيكل بحيث لا تبقى مواقع على سطح هذا الفلز يمكن أن يتم عليها تفاعل التبادل (٤٤). وتقل قدرة الرق الفلزي على امتزاز الغازات اذا كان الرق مكسواً بالاوكسجين أو بالدقائق الاخرى التي تمتاز بحرارة امتزاز عالية.

التغير الكيميائي للعامل المساعد وعلاقته بفقدان الفعالية

قد ينجم فُقدان لفعالية العامل المساعد أثناء الاستعمال اذا حدث تغير كيميائي في بنيته من جراء تفاعله الكيميائي مع المواد المتفاعلة. لوحظ مثلاً أن فعالية كبريتيد الكوبلت. المستخدم لاكسدة أحادي اوكسيد الكربون في درجات الحرارة الاعتيادية الى ثنائي اوكسيد الكربون، تقل بصورة منتظمة كلما تحول كبريتيد الكوبلت أثناء التفاعل الى كبريتات الكوبلت غير الفعالة (٤٥).

43 — O. Beeck, Advances in catalysis (Academic Press, New york, 1950), Vol. 2, P. 151.

44 — G.H. Twigg and E.K. Rideal, Proc. Roy. Soc., Ser. A, London, 1939, 171, 55.

45 — Dinges, Z. Anorg. Chem., 1974., 254, 133.

وقد تكون المادة الشائبة سبباً في زيادة فعالية العامل المساعد (٤٦) . فاذا أستخدم اوكسيد المولبدنوم في تعجيل هدرجة الزيوت القطرانية (Tar Oils) والمواد المماثلة الأخرى بدرجة ٤٥٠ مئوية وضغط ٢٠٠ جو ، فان فعالية العامل المساعد تزداد بوجود كبريتيد الهدروجين في الغازات المتفاعلة . وأمكن الحصول على نتائج مشابهة (٤٧) عند هدرجة فحم القطران (Coal Tar) تحت الضغوط العالية عند احتواء المفاعل على زيادة من الكبريت تفيض على الكمية اللازمة لتكوين كبريتيد المولبدنوم . وتنجم هذه التأثيرات بسبب الفعالية العالية للكبريتيد قياساً بالاوكسيد .

السطح النوعى ومسامية العوامل المساعدة المتعرضة للاتساخ والتسمم

تمت دراسة (٤٨) تأثير الاتساخ والتسمم على فعالية العوامل المساعدة بوساطة قياسات السطح النوعي والمسامية لمجموعة من العوامل المساعدة التي تُستخدم في صناعة حامض الكبريتيك وفي الصناعات النفطية المحلية . وتناولت الدراسة (٤٨) ايجاد المساحة السطحية والسطحين الداخلي والخارجي وتوزيع أبعاد المسام باستخدام تقنية الامتزاز الطبيعي لغاز النتروجين بدرجة ٧٨ كلفن باستعمال جهاز الغرافيمات (Gravimat) (٤٩) . والمواد التي تمت دراستها هي :

١ – نماذج من خماس اوكسيد الفناديوم المستخدم كعامل مساعد في صناعة ثلاثي اوكسيد الكبريت وفي التحضير الصناعي لحامض الكبريتيك . واشتملت النماذج على خماسي اوكسيد الفناديوم النقي وخماسي اوكسيد الفناديوم المرقى (Promoted) والمسند (Supported)

---

46 — J. Vorga, B.P., 313505.

47 — Fuel Research Board Annual Report, 1932, P. 45.

(٤٨) رسالة ماجستير – كلية العلوم بجامعة بغداد ، كانون الثاني ١٩٨٧ .

(٤٩) دراسات في أبعاد وانماط المسام في المواد الصلبة للدكتور جلال محمد صالح ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد ٣٧ لعام ١٩٨٦ .

المستعمل وغير المستعمل . وأظهرت جميع متساويات درجة الحرارة للامتزاز النمط الثاني وفقاً لتصنيف بي واي وتي (BET) . وتَبَيَّنَ من الدراسة اختلاف مواصفات العامل المساعد النقي (غير المستعمل) باختلاف مصادر التجهيز . فهناك النوع المسامي وغير المسامي . والنوع غير المسامي وإن كان يتمتع بسطح نوعي كبير إلا أنه يعاني انكماشاً ملحوظاً عند التسخين الى ۷۲۳ كلفن . واستخدام العامل المساعد في تحضير ثلاثي اوكسيد الكبريت في الصناعة يؤدي الى اختزال كبير في سطحه النوعي من جراء تسمم العامل المساعد وحصول تغيرات كيميائية في بنيته . أما النوع المسامي فقد كان أقلُ ثباتاً تجاه الحرارة ويختزل سطحه النوعي الى الثلث عند التسخين الى ٥٢٣ كلفن ، وازداد السطح النوعي للعامل المساعد المستخدم من هذا النوع بزيادة درجة الحرارة . وهذا ناجم عن زوال أثار التلوث من سطح العامل المساعد واستعادة فعاليته الاصلية .

٢ – العوامل المساعدة التي تستخدم في عملية التهذيب (Reforming) لمكونات ومنتجات البترول مثل النفثا والبنزين ، والعوامل المساعدة المستخدمة لازالة الكبريت من مركبات النفثا وزيت الغاز والنفط الابيض . ودلت النتائج المستحصلة أن هذه العوامل المساعدة تخضع لمتساوى امتزاز بي واي وتي ولنمط (أ) وفقاً لتصنيف دي بور لمنحنيات التخلفية (٤٨ – ٤٩) . وعلى هذا فان مسام هذه المواد هي من النوع الاسطواني (Cylinderical Pores) . وفقدت هذه المواد بنتجة الاستخدام الصناعي لها الكثير من مساحتها السطحية ومساميتها من جراء التلبد والاتساخ والتسمم . ولو حظ أن السطح النوعي الداخلي لجميع العوامل المساعدة المستخدمة في الصناعة يؤلف حوالي ٥٠٪ من السطح النوعي الكلي . ويحدث نقصان ملحوظ في السطح النوعي الداخلي من جراء الاستخدام بسبب انسداد المسام الاكثر ضيقاً خلال عمليات التلبيد والاتساخ والتسمم .

التلبيد **Sintering**

يُسخن العامل المساعد (Catalyst) عقب تحضيره الى درجة حرارة عالية نسبياً تصل الى (٦٠٠) كلفن لمدة ساعة واحدة تقريباً . تدعى هذه العملية بـ « التلبيد » . ويتم اختيار درجة حرارة التلبيد بحسب التركيب الكيميائي للعامل المساعد ودرجة ثباته بالمعاملة الحرارة ، وكذلك بحسب ظروف إستعماله . وعندما يراد استعمال العامل المساعد في درجات حرارية عالية فانه يتطلب تلبيده بدرجة حرارة تزيد بحوالي (٥٠) درجة مئوية على درجة حرارة الاستعمال . وعندما تكون حرارة إمتزاز المواد على العامل المساعد عالية فان تلبيد العامل المساعد يجب أن يكون بدرجة حرارية عالية أيضاً وذلك تفاديا لانكماش المساحة السطحية أثناء الاستعمال .

والغرض من التلبيد هو السماح للعامل المساعد لبلوغ حالة الثبات والاستقرار والتقليل من نسبة العيوب البلورية على سطحه . فالتسخين في عملية التلبيد يساعد على زيادة حركة دقائق السطح ولاسيما تلك التي تؤلف العيوب البلورية بسبب ضعف ارتباطاتها بالهيكل البلوري للعامل المساعد . وتتحول تلك الدقائق الى مواقع أقل طاقة فتصبح اكثر تماسكا مع بعضها البعض واكثر التصاقا بجسم العامل المساعد . ويُصاحب هذه التغيرات الطبيعية تناقص المساحة السطحية وتناقص خشونة سطح العامل المساعد .

ونظراً لاعتماد فعالية العامل المساعد على سعة مساحته ، فان تناقص السطح النوعي في عملية التلبيد يرافقه اختزال كبير في الفعالية . يقال للعامل المساعد المتلبد بأنه يعاني تلبداً اذا حصل اختزال في سطحه النوعي (المساحة السطحية للغرام الواحد منـــه) بتأثير التسخين او الامتزاز . وعلى العكس يوُصفُ العامل المساعد بمقـــاومـة التلبـــد اذا ضـــل سطحه النوعي ثابتـــاً في ظروف الاستعمال . ويراعى عند اختيار العامل المساعد الجيد أن يكون أقل عرُضه للتلبد أثناء الاستعمال كي يحافظ على نشاطه وفعاليته الاصلية دون تغيير .

ومعروف أنه كلما كانت درجة إنصهار العامل المساعد واطئة كلما كان العامل المساعد اكثر عُرضة للتلبد (٥٠) . وتسري هذه القاعدة اكثر على العوامل المساعدة الفلزية والرقوق الفلزية المحضرة بالتبخير . فالتنكستن الذي يتمتع بدرجة انصهار عالية تزيد على (٢٠٠٠) مئوية يكون أقل قدرة على التلبد من الحديد والنيكل اللذين ينصهران بدرجة تقرب من (١٤٠٠) مئوية . والحديد والنيكل أقل استعدادا للتلبد قياسا بالفضة والالمنيوم والرصاص وهي عناصر معروف بدرجات انصهارها الواطئة نسبياً .

هناك مواقع متباينة الطاقة على سطح أي عامل مساعد . والمواقع الاكثر طاقة على السطح تمثل المواقع الاكثر كفاية في الفعل المساعد . وتقل نسبة مثل هذه المواقع على سطح أي عامل مساعد عند تعريضه الى درجات حرارة عالية أو عند امتزاز بعض المواد على سطحه . وفي دراسة خاصة (٥١) لوحظ تناقص المساحة السطحية لرقوق النيكل والبلاديوم والحديد بنفس المقدار وذلك عند تسخين هذه الرقوق الى ما فوق درجة حرارة تلبيدها في ٣٣٣ كلفن . وفُسِرَ هذا السلوك بدلالة تقارب نقاط الانصهار وأنصاف الاقطار الذرية للفلزات الثلاثة . ويؤدي (٥٢) امتزاز غاز كلوريد الهدروجين على رق الحديد في درجات الحرارة من ٣٣٣ الى ٤٧٣ كلفن الى تقليل مساحته السطحية . ويقل معامل خشونة رق الحديد الذي يمتز مقدارا محسوسامن غاز كلوريد الهدروجين بدرجة ٤٠٠ كلفن الى حوالي ٠,٣ ، وهذا يقابل تناقص المساحة السطحية ، وكذلك تناقص الفعالية . الى ثلث المساحة السطحية والفعالية الاصليتين .

---

50 — B.M.W. Trapnell, Proc. Roy. Soc.,Ser. A, London, 1953, 218, 566.

51 — J.M. Saleh and N.A. Hikmat, Iraqi J. Sci. 1977, 18, 45.

52 — Y.M. Dadiza and J.M. Saleh, J. Chem. Soc., Faraday Transaction I, 1972, 68, 269; 1972, 68, 1513.

القراءات والوقف والابتداء

الدكتور احمد خطاب عمر
كلية الاداب ـ جامعـة الموصـل

تمهيد :

القراءات والوقف والابتداء علمـان يتفقان ويختلفان ، فمجالهما القرآن الكريم اولاً ، وإن كان مجال الوقف والابتداء كلام الناس أيضاً ، ثم إن لعلم النحو صلة فيهمـا ، وللروايات التي تروى عن الرســول الكريم (ص) في كيفية قراءته ، أو مواضع وقفه أثر فيهما أيضاً ، وان اختلفا نوع اختلاف فيهما ، فالقراءات تعتمد عليها اعتماداً كلياً ، بل تجعلها من أهم شروط صحتها ، وتتشدد أكثر حينما تشترط أن تكون الرواية متواترة ، وتقف من روايات الآحاد موقفاً حذراً ، بل قد تردّ كثيراً من القراءات التي رويت عن رجال معروفين لعدم توفر أحد الأركان في تلك الرواية ، فلهذا كانت هذه الرواية أقوى وتلك اضعف ، حسب توفر الأركان الثلاثة : صحة السند وموافقتها خط المصحف وصحة العربية ، فكانت القراءات سبعاً وعشراً واربع عشرة وشاذة .

أما علم النحو فانه تابع لعلم القراءات يوجه احكامه وتأويلاته حسب اختلاف القراءة ، وذلك حينما تروى آية بأعرابين، فإنّ النحاة يؤولون لكلتا الروايتين ، ويخرجون تلك التأويلات على تعليلاتهم في كل مذهب (١) ، بينما في الوقف والابتداء نجد غير هذا ، وللنحو صلة كبيرة فيه أيضاً ، فعلى أحكامه

(١) ينظر المحتسب لا بن جني والكشف عن القراءات السبع عللها وحججها لمكي بن أبي طالب .

يتحدد موضع كل نوع من الوقف ، وكذلك نوعه ، وكيفية الابتداء بما بعده لذا نجد المؤلفين فيه يختلفون اختلافاً كبيراً في تلك المواضع والأنواع ، لأنهم يختلفون في تعليلاتهم حسب مذاهبهم ، فتتعدد حججهم وقياساتهم وذكر القواعد والقراءات ، ومن هنا يأتي أثر النحو في هذا العلم ، فقد نقل النحاس عن ابن مجاهد هذا فقال (٢) : « حكى لي بعض اصحابنا عن أبي بكر بن مجاهد (رض) أنه كان يقول : لا يقوم بالتمام الا نحوى عالم بالقراءة ، عالم بالتفسير ، عالم بالقصص ، وتلخيص بعضها من بعض ، عالم باللغة التي نزل بها القرآن » وهكذا نجد الصلة واضحة بين القراءات والنحو والوقف والابتداء، نقل القسطلاني (٣) عن صاحب « الضوابط والاشارات » قوله : « ان هذا العلم (يقصد علم القراءات) ينحصر القول فيه في وسائل ومقاصد : الأول في الوسائل ، وينحصر في سبعة أجزاء : الأسانيد وعلم العربية ومنه مخارج الحروف وصفاتها . وفي الوقف والابتداء ، والفواصل وهو من عدد الآيات ومرسوم الخط ... » وأشار المتقدمون الى الصلة بين هذه العلوم ، فقد قال أبو بكر الأنباري(٤)«ومن تمام معرفة اعراب القرآن ومعانيه وغريبه معرفة الوقف والابتداء » وأكد القسطلاني على هذا فقال(٥) : لا ينبغي ان يعتمد في الوقف إلا على مايرتضيه المتقنون من أهل العربية . ويتأوله المحققون من الأئمة،فليس كل ما يتعسفه بعض المعربين أو يتكلفه متكلف من المقرئين ، أو يتأوله محرف من أهل الأهواء المخطئين يعتمد عليه » ولمعرفة حدود كل علم ومجاله نذكر ما نقله القسطلاني في تعريفهما قال في تعريف علم القراءات (٦) : « هو علم يعرف منه اتفاق الناقلين لكتاب الله واختلافهم في اللغة والاعراب والحذف

(٢) القطع والائتناف ص ٩٤ .
(٣) لطائف الاشارات ص ١٧٦
(٤) ايضاح الوقف والابتداء ص ١٠٨
(٥) لطائف الاشارات ص ٢٦٣
(٦) المصدر نفسه ص ١٧١

والاثبات والتحريك والاسكان والفصل والاتصال وغير ذلك من هيئة النطق والابدال من حيث السماع » قال : ويقال فيه : علم يعرف منه اتفاقهم واختلافهم في اللغة والاعراب والحذف والاثبات والفصل والوصل من حيث النقل » أو هو « علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزواً « لناقله » أما الوقف والابتداء فقال فيه (٧) : « أما الوقف والابتداء فاعلم أنه إنما يتوقف هذا العلم على معرفتهما – يعني الأسانيد وعلم العربية – لانه لما كان من عوارض الإنسان التنفس اضطر القارىء الى الوقف وكان للكلام بحسب المعنى اتصال يقبح معه الوقف ، وانفصال يحسن مع القطع ، فاحتيج إلى قانون يعرف به ما يبتغى من ذلك » .

ولهذا اقترن هذا العلم مع القراءات وذكرت المظان اسماء القراء الذين اهتموا به فقد قال الأشموني (٨) : « واشتهر هذا الفن عن جماعة من الخلف وهم : نافع بن عبدالرحمن ابن أبي نعيم المدني القارىء ، وعن صاحبه يعقوب بن اسحاق الحضرمي البصري ، وعن أبي حاتم السجستاني ، وعن محمد بن عيسى وأحمد بن موسى ، وعن علي بن حمزة الكسائي ، وعن القراء الكوفيين . وعن الأخفش سعيد ، وعن أبي عبيدة معمر بن المثنى وعن محمد بن يزيد ، والقتيبي والدينوري ، وعن أبي محمد الحسن بن علي العماني ، وعن أبي عمرو عثمان الداني . وعن أبي جعفر محمد بن طيفور السجاوندي ، وعن أبي جعفر يزيد بن القعقاع أحد اعيان التابعين » وكذلك خلف كثير من النحاة المعروفين فيه كتباً كثيرة ، فالعلمان قد اعتمدا على ما يرويه المتقدمون فيهما ، لكنهما يختلفان في ذلك ، فالقراءة تعد الرواية في الأسانيد من اهم اركانها ، أما الوقف والابتداء فانه يستفيد من الرواية التي تروى باختلاف ضبط اعراب كلمة ما ، أو تؤثر في تغيير موضع كلمة من الاعراب ، فهي في الأغلب روايات القراءات ،

(٧) المصدر نفسه ص ٢٤٧

(٨) منار الهدى ص ٦ وينظر لطائف الاشارات ص ٢٦٢ و٢٦٣

ولا يعتمد في ماسائل الوقف والابتداء ذلك الاعتماد ،والتعليل والحجة اساسان، لهما أثرهما الكبير في توجيه علم الوقف والابتداء ، ولا نرى للتعليل والحجة أثراً في القراءات ، وسنتناول هنا طريقة توثيقهم لتلك الروايات في القراءات وفي الوقف والابتداء اولا ، ثم نتناول الفرق بين هذين العلمين في مسائلهما لنوجد الصلة بينهما بعد ، وطريقة كل علم في الاستفادة من علم النحو وهذا ما يهدف إليه هذا البحث ونعرض لآراء الباحثين في هذين العلمين .

أسانيد الرواية في القراءات

لم يحظ علم من الضبط والدقة ، والتشديد في النقل كما حظي علم القراءات لأنه وضع لضبط آيات القرآن الكريم على الأركان التي وضعها القراء الأوائل ، لهذا ظلت آياته سليمة لا يدخلها اللحن ، لأنه كتاب العبادة والتشريع ، فقدسيته كبيرة يحرص كل مسلم على صونه وضبط قراءته ، ويتحرى السلامة في تلاوة آياته ، فيرجع في كل ذلك إلى ماروي عن الرسول (ص) ـ: كيف قرأ هذا الحرف ؟ وضبط تلك الحركة ؟ فخضعت كل تلك الروايات خضوعاً تاماً للتدقيق في صدق هذا الراوي أو ذاك ، وفي توافر قراءته وسلامة تسلسل أسانيد روايته . لهذا اختلفت القراءات قوة وضعفاً حسب تلك الأسانيد متواترة أو آحاداً ، ثم كثر القرّاء وتوسعوا في رواياتهم وتحرّوا الأركان الثلاثة في كل قراءة بكل دقة ، فوضعوا تلك التي توفرت فيها في اعلى قمة القراءة ، ورفضوا ما نقص منها ركن . بل تشددوا في ركن « موافقتها خط المصحف » فقالوا(٩) : موافقتها خط المصحف الأمام . وصاروا يوثقون الرجال الذين تـرد أسماؤهم ضمن الروايات على اسس صعبة . ليتوثقوا من قراءاتهم . وكانوا يشيرون الى سلامة عقيدتهم . ودقة حفظهم ودرايتهم وامانتهم . وطرق أخذهم تلك القراءات : عرضاً او سماعاً او عرضاً وسماعاً او أخذها كتابة عن فلان .

(٩) غاية النهاية ٥٥/٢ في ترجـمة ابن شنبوذ ، ولطائف الأشارات ص ٦٧

ويشيرون الى مقدار ما أخذوه عن شيوخهم ، فيذكرون عدد السور وعدد الآيات ، وعدد قراءاتهم عليهم ، وقد بلغ من دقة بعض اولئك الشيوخ أنه لم يجز في قراءاته إلا واحداً او اثنين في حياته كلها للشروط الصعبة التي يضعها للاجازة ونبه ابن مجاهد على ذلك فقال (١٠) : « والقراءة التي عليها الناس بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام هي القراءة التي تلقوها عن اوليهم تلقياً ، وقام بها في كل مصر من الأمصار رجل ممن أخذ عن التابعين اجمعت الخاصة والعامة على قراءاته ، وسلكوا فيها طريقه وتمسكوا بمذهبه » ومن هذا انطلق ابن مجاهد في كتابه « السبعة » — وهو من أقدم ما وصل الينا في بابه — يذكر أسانيد كتابه وطرق الأخذ عن القراء السبعة ، فذكر شيوخهم وتلاميذهم، وكذلك تابعه المؤلفون فيها (١١) نذكر على سبيل المثال ما ذكره ابن مجاهد في رواية واحد من القراء السبعة وهو أولهم في الكتاب قال : « فأما قراءة نافع فاني قرأت بها على عبدالرحمن بن عبدوس من أول القرآن الى خاتمته نحواً من عشرين مرة ، وأخبرني انه قرأ بها علم أبي عمر حفص بن عمر بن عبدالعزيز الدوري الأودي ، واخبره أبو عمر انه قرأ بها على اسماعيل بن جعفر ابن أبي كثير الأنصاري وأخبره اسماعيل أنه قرأ بها على نافع . »

ثم ذكر طرقاً اخرى أخذ بها القراءة على نافع ايضاً هي : « وأخبرني بها عبدالله بن سليمان عن أبي بشر يونس بن حبيب عن أبي عبدالرحمن قتيبة بن مهران عن سليمان بن مسلم بن جبار عن نافع » ثم « عن قالون عن نافع » وذكر طرقاً اربع عن الأصمعي عن نافع ، وعن اسماعيل وعن اسحاق المسيبي بطرق ثلاث ، وعن أبي بكر بن أبي اويس بطريقتين وعن محمد بن عمر بطريقتين وعن خارجة بطريقتين وعن الزبير بن عامر ،وعن ورش وسقلاب

(١٠) السبعة في القراءات ص ٤٩

(١١) السبعة في القراءات من ص ٥٣ — ١٠١ ، وكتاب التيسير في القراءات السبع للداني من ص ٧ — ١٦

بحروف منها ، وعن أبي مرة» وكذلك ذكر الروايات في القراء الآخرين ، لهذا كان يتضح القراء الذين تؤخذ قراءتهم او تطرح .

وكانوا يصفون قارئاً مثلاً بانه عالم بالقراءات ، ومتقن وضبط ومتفوق ، لكنهم يرفضون قراءته ، ويعللون لذلك أنه لم يُعرف له سند في الرواية ، وقد يقولون عن آخر : وهذا لا يعرف على من قرأ ولا من قرأ عليه ، ونجد هذه الاشارات كثيرة في تراجم عدد من الاعلام قال الجزري ، في ترجمة أبي علي الرهاوي السلمي (١٢) : « اعتنى بالقراءات أتم عناية وأكثر من الشيوخ وأكثرهم لا يعرفون » ونقل قول الهمذاني في كتابه « مفردة يعقوب »: « وفي بعض مارويت عن أبي علي الرهاوي نظر ، وأنا أبوء الى الله من عهدته ولا أقر بصحته ، فانه روى عن رجال لا يعرفون ، ولطالما استقريت كتب القراءات والتواريخ ، على ان ارى أحداً من العلماء يروي عنهم ، او يذكرهم فلم أقف على ذلك » وجاء في ترجمة الصيدلاني (١٣) : « لا أدري على من قرأ ، ولا من قرأ عليه ، وهو من حذاق المقرئين الضابطين المشهورين » وفي ترجمة أبي محمد العماني (١٤) : زعم أنه تبع أباحاتم السجستاني ، ولا أعلم على من قرأ ولا من قرأ عليه » فللأسانيد أثرها الكبير في قبول القراءة وإن نقلها قارىء متقن معروف بدقته وضبطه .

ولم يكن تشددهم في الأسانيد حسب ، بل إنهم تشددوا بالركنين الأخرين بدقة أيضاً اضافة الى الأسانيد قال الجزري في (١٥) « تحبير التيسير » : « والحد الجامع لما يقرأ به من الروايات كل ما وافق إحدى المصاحف العثمانية ولو تقديراً ووافق العربية ولو بوجه ، وصح إسناداً فهو القرآن . ومتى اختل ركن من هذه الثلاثة في حرف حكم عليه بالشذوذ » .

(١٢) غاية النهاية ٢٤٦/١ ، ٦٤٥

(١٣) المصدر نفسه ٤٨٥/١

(١٤) المصدر نفسه ٢٢٣/١

(١٥) تحبير التيسير ص ١١

ومن هنـا فقد اعطوا أحكاماً في عـدد من القـراء ، برفض قراءاتهم قال ابن مجاهد (١٦) عن ابن محيصن (ت ١٢٣ ﻫ) : « كان له اختيار في القراءة على مذهب العربية ، فخرج به عن إجماع أهل بلده فرغب الناس عن قراءته ، وأجمعوا على قراءة ابن كثير » وقالوا في ابن مقسم (ت ٣٥٤ ﻫ) فقد نقل الجزري قول الذهبي فيه (١٧) : « من أحفظ أهل زمانه لنحو الكوفيين ، وأعرفهم بالقراءات ، وله اختيار في القراءة » ثم قال عنه : أنه كان يقول : « إن كل قراءة وافقت المصحف ووجهاً في العربية ، فالقراءة بها جائزة وان لم يكن لها سند » ، فعقد له مجلس على قوله هذا ، ووقف للضرب فتاب ورجع عن قراءته . » وعن ابن شنبوذ (١٨) (ت ٣٢٧ ﻫ) وقيل (٣٢٥ ﻫ) كان يرى جواز القراءة الشاذة ، وهو ما خالف رسم المصحف الامام ، فكان يقرأ : « فامضوا الى ذكر الله » [الجمعة — ٩] و « تجعلون شكركم أنكم تكذبون» [الواقعة — ٨٢] و « كل سفينة صالحة غصباً [الكهف — ٧٩] الى غير ذلك من القراءات ، فعقدوا له مجلسا فاستتيب ... » وأكثرت المظان من أخبار أولئك القراء الذين طرحت قراءتهم وتتبعوهم في طـرق رواياتهم ، وقوة تلك الروايات أو ضعفها ، وصدقهم في الاعتقاد ومكامن ضعفه ، حتّى اذا ظهرت منه هفوة طرحوا قراءته ونبّهوا الدارسين على ذلك ، فقد ذكر عن أبي المظفر الشيباني (١٩) (٤٧٥ ﻫ — ٥٦٤ ﻫ) : أنه أخذ القراءة عن طاهر بن سوار ، فقال له الحسن البطائحي : هذا كذب ، وصـل الحديث الى الوزير . فطلب البطائحي ، وسأله عما قال ، فقال : يا مولانا : إن مسعوداً لم يلق ابن سوار ، والخط الذي بيده مزور بخط ابن رويح الكاتب ، فقابل الوزير بين الخطين

(١٦) غاية النهاية ١٦٧/٢

(١٧) غاية النهاية ١٢٤/٢

(١٨) المصدر نفسه ٥٥/٢ والآية هي : فاسعوا بدل فامضوا ، و « رزقكم » بدل « شكركم » وزيادة « صالحة » .

(١٩) المصدر نفسه ٢٩٥/٢

فبان الفرق ، فأمر باحضار مسعود ، وسأله : متى دخلت بغداد ؟ فذكر له سنة كذا ، فقال البطائحي : هذا بعـد موت ابن سوار بكثير ، فأمر الوزير باخراجه ، ثم نراهم يفتشون عن أدق المسائل في هذا ، حتى تصح لديهم القراءة ، فقد قالوا في كتاب محمد بن جرير الطبري « الجامع » على فضله وغزارة علمه (٢٠): لقد« وقع له فيه مواضع ، فصيّر بذلك المتفق عليه مختلفاً فيه ، والمختلف فيه مجمعاً عليه وهذا عجيب من مثله مع جلالته . »

وعن يحيى بن المبارك بن المغيرة (ت ٢٠٢ هـ) (٢١) : « ولا يرغب عنه في شيء غير ما يتوهم عليه في الميل الى المعتزلة » ونقل الجزري (٢٢) ما رواه الحمراوي عن عبد الصمد عن ورش قال : كان نافع يقرأ أولاً « محيايْ » ساكنة الياء ، ثم رجع الى تحريكها بالنصب قال الداني : لم يورد هذا أحد عن عبد الصمد عن ورش غير الحمراوي ، وخالفته الجماعة عنه » .

وعن ابن مجاهد قال (٢٣) : قال لي قنبل : كان البزي ينصب الياء ، يعني في قوله : « إن قومي اتخذوا » [الفرقان ٣٠]فقال لي القواس : أنظر في مصحف أبي الأخريط كيف هي في نقطها ؟ فنظر فاذا هو كان نقطها بالفتح ثم حكت .

وعن ابن ادريس (٢٤) : « أنه سمع الفاظاً فيها إفراط في المد والهمز وغير ذلك من التكلف ، فكره ذلك وطعن فيه ، وحمزة كان ينهى عن ذلك ، وكان يقول لمن يفرط عليه في المد والهمز : لاتفصل أما علمت أن ما كان فوق البياض فهو برص ، وما كان فوق القراءة فليسَ بقراءة » .

---

(٢٠) المصدر نفسه ١٠٧/٢
(٢١) غية النهاية ٣٧٦/٢
(٢٢) المصدر نفسه ١٢/٢
(٢٣) المصدر نفسه ٣٦١/٢
(٢٤) المصدر نفسه ٢٦٣/١

وعن أبي نصر العراقي (٢٥) : « أن الاختلاف في مد المتصل كالاختلاف في المنفصل ، وأخذ أبو شامة ذلك بالتسليم ، فحكى فيه الخلاف وقلده غيره ، وتورط الناس في ذلك حتى وقف على كلام العراقي في المد ، فلم يحك سوى اختلاف المراتب ، ولم يحك القصر البتة ، وهذا بالنسبة الى العراقيين غريب لأنهم قاطبة لم يرووا في المتصل سوى المد مرتبة واحدة » .

وعن أبي الحجاج اللخمي (٢٦) : « قال عنه الحافظ ابو بكر محمد ابن يوسف بن مسدي وكان فيه بعض تجوز في الرواية سامحه الله » .

أما موقفهم في ركن « صحة العربية » فقد تشددوا فيه أيضاً مع هؤلاء الذين يقيسون على صحة العربية مع تساهل في صحة السند أو خط المصحف فهم يتأولون لذلك قليلاً ، لكن عامة القراء وقفوا منهم موقفاً متشدداً مع أن أولئك الأعلام مشهور لهم بالضبط والدقة والحرص على سلامة آي القرآن الكريم وصونه من اللحن ، والنحو لم يضعوه إلا خدمة للقرآن الكريم ، لكن لتشددهم من سلامة الأركان الثلاثة معاً دفعهم لأن يقفوا من هؤلاء القراء هذا الموقف المتشدد ، فقد قالوا في أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) (٢٧) : « وله اختيار في القراءة وافق فيه العربية والأثر » وعن عيسى بن عمر (٢٨) (ت ١٤٩ هـ) : « أنه كان من قراء البصرة وكان عالماً بالنحو غير أنه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية يفارق قراءة العامة ويستنكره الناس » . وعن يحيى بن أبي سليم ابو البلاد النحوي الكوفي (؟) (٢٩) : « هو صاحب الاختيار في القراءة ، قال الداني : أكثره على قياس العربية » . وهذا أيضاً

(٢٥) المصدر نفسه ٣١٣/٢
(٢٦) المصدر نفسه ٤٠٤/٢
(٢٧) غاية النهاية ٨/٢
(٢٨) المصدر نفسه ٦١٣/١
(٢٩) المصدر نفسه ٣٧٣/٢

ما روي (٣٠) عن يونس وسيبويه والمبرد ، فقد وقف الجزري من ذلك بشدة مع أن الروايات التي أخذوا بها جاءت عن طرق مختلفة قال الجزري : « ان سيبويه روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء لذا روى الهذلي ، وفي موضع آخر : عن أبي عثمان المازني روى الهذلي عنه قراءة أبي عمرو عن سيبويه ويونس ، وفي موضع غيره : صالح بن اسحاق أبو عمر الجرمي روى القراءة عن سيبويه ويونس بن حبيب عن أبي عمرو ، وقال أيضاً : ابو طاهر الصيدلاني عن المبرد عن المازني عن الجرمي عن سيبويه ويونس ، وقال : عمرو بن سعيد روى قراءة أبي عمرو من رواية يونس وسيبويه عن طريق نحوية غريبة ، عن الصيدلاني عن المبرد عن المازني عن الجرمي عنهما ، وروى عن سليمان ابن عيسى أبو محمد البصري ، روى قراءة يونس بن حبيب عن أبي عمرو .

فللقراء قواعد يحافظون عليها ويتشددون في اتباعها عند ترجيح قراءة على أخرى ، غير متأثرين بما يخالف قواعدهم تلك ، ولهذا وقفوا هذا الموقف من القراءات التي تعتمد على القياس على صحة العربية ، فردّوا كثيراً منها وتشدّدوا من القراء الذين يأخذون بها كما رأينا موقفهم من قراءة ابن شنبوذ وابن مقسم وأبي عبيد القاسم بن سلام وعيسى بن عمر والقراءة المروية عن سيبويه ويونس ، ولكن معظم النحاة قد تأولوا لقراءاتهم حسب آرائهم النحوية . والمسائل التي عللوا لها كثيرة نذكر منها على سبيل المثال :

١ — قال ابن مجاهد (٣١) في قوله تعالى : « كن فيكون » [البقرة — ١١٧] قرأ ابن عامر وحده « فيكونَ » بنصب النون ، قال ابو بكر وهو غلط ، وقرأ الباقون : « فيكونُ » رفعاً .

---

(٣٠) المصدر نفسه المواضع ١٧٩/١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٤ ، ٤٢١ ، ٦٠١

(٣١) السبعة ص ١٦٨

ثم يأتي النحاة ليعللّوا للقراءتين ، فقالوا في النصب : نصب الفعل المضارع الواقع بعد الفاء جواب الأمر ، وقال مكي (٣٢) : « فوجه النصب مشكل ضعيف وذلك أنه جعله بالفاء للفظ « كن » إذا كان لفظه لفظ الأمر ، وإن كان معناه غير الأمر فهو ضعيف ، لأن « كن » ليس بأمر ، إنما معناه الخبر ، إذ ليس ثم مأمور ، يكون « كن » أمراً له ، والمعنى : فانما يقول له : كن فيكون ، فهو يكون ، ويدل على أن « فيكون » ليس بجواب لـ «كن» أن الجواب بالفاء مضارع به الشرط ، وإلى معناه يؤول في التقدير ، فاذا قلت : اذهب فأكرمك ، فمعناه : إن تذهب فأكرمك ، ولا يجوز أن تقول : إذهب فتذهب ، لأن المعنى يصير : إن تذهب تذهب ، وهذا لامعنى له ، وكذلك : كن فيكون ، ثم قال : ووجه القراءة رفع « فيكون » في ذلك أنه جعل « فيكون » منقطعاً مما قبله مستأنفاً لما امتنع أن يكون جواباً في المعنى رفعه على الابتداء فتقديره : فهو يكون ، وهو وجه الكلام ، وقال أبو البركات الأنباري (٣٣) : « ومن نصب جعله جواب الأمر ، وهو بالفاء ، والنصب ضعيف لأن « كن » ليس بأمر في الحقيقة ، والتقدير : يكونه فيكون ، اما سيبويه والزجاج (٣٤) فلا يريان فيه إلا الرفع ، قال سيبويه : الفاء لا تضمر فيها «ان» في الواجب ولا يكون في هذا الباب إلاّ الرفع ، والفرّاء يقول: مردودة على « يقول » . بالرفع أيضاً .

٢ – وقال في (٣٥) : « ثمود » اختلفوا في صرف ثمود ، وترك اجرائه في خمسة مواضع في [هود – ٦٨] الاّ إن ثموداً ، كفروا ربهم ألا بُعداً

---

(٣٢) الكشف ص ٢٦١

(٣٣) البيان في إعراب غريب القرآن ١١٩/١

(٣٤) سيبويه ٩٣/٣ ومعاني القرآن وإعرابه ١٧٧/١ ومعاني القرآن للفراء ٧٤/١

(٣٥) السبعة ص ٣٣٧

لثمود » وفي [الفرقان — ٣٨] « وعاداً وثموداً وأصحاب الرس » وفي [العنكبوت — ٣٨] « وعاداً وثموداً » وفي [النجم — ٥١] « وثموداً فما أبقى » فقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بالتنوين في أربعة مواضع : في هود « ألا إن ثموداً » وفي الفرقان « وعاداً وثموداً » وفي العنكبوت « وعاداً وثموداً » وفي النجم « وثموداً فما أبقى » ، ولم يصرفوا « ألا بُعداً لثمودَ » وقرأ حمزة بترك صرف الأحرف الخمسة ، وقرأ الكسائي بصرفهن جُمَعَ ، واختلف عن عاصم ، في التي في سورة النجم ، فروى يحيى بن آدم عن أبي بكر عنه أنه أجرى « ثموداً » في ثلاثة مواضع : في هود والفرقان والعنكبوت ولم يجره في النجم ، وروى الكسائي عن أبي بكر وحسين الجعفي أيضاً عن أبي بكر عن عاصم : أنه أجرى الأحرف الأربعة ، وروى عن حفص عن عاصم : أنه لم يجر « ثمود » في شيء من القرآن مثل حمزة » .

قال سيبوية (٣٦) في « ثمود » فأما ثمود وسبأ فهما مرة للقبيلتين ، ومرة للحيَّين .

والمبرد : أن ثمود اسم عربي وانما هو « فعول » من الثمد ، فمن جعله اسماً لأب أو حي صرفه . ومن جعله اسماً لقبيلة أو جماعة لم يصرفه .

٣ — وقال في : (٣٧) « فلا تقل لهما أفٍّ » [الاسراء — ٢٣] ابن كثير وابن عامر « أفَّ » بفتح الفاء . وقرأ نافع : « أفٍّ » بالتنوين ، وكذلك في [الأنبياء — ٦٧] و[الأحقاف — ١٧] وحفص عن عاصم مثله ، وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي « أفِّ » خفضاً بغير تنوين .

وأبدى المبرد في التنوين رأيه فقال (٣٨) : « إذا جعلت شيئاً منها نكرة نونت . ويرى مكي : أنه يجوز تنوينه أو عدمه لأن به لغات : فمن نون

(٣٦) سيبويه ٢٥٢/٣ ، المقتضب ٣٥٣/٣
(٣٧) السبعة ص ٣٧٩ ، ٤٢٩ ، ٥٩٧
(٣٨) المقتضب ٢٢٣/٣ والكشف ٢٣/٢

قدر فيه التنكير ، ومن لم ينون قدر فيه التعريف ومعناه : لايقع منك ما تكره وتضجر.

٤ — وقال في (٣٩) « هذا يومُ ينفعَ الصادقينَ صدقُـهـم » [المائدة —١١٩] نافع وحده « هذا يومَ ينفع » نصباً ، والباقون : « هذا يومُ ينفع » رفعاً .

ذكر سيبويه والزجاج والفراء (٤٠) في أسماء الدهر الرفع والنصب عند اضافتها ، ولخَّصَ الأشموني (٤١) رأيهم بها فقال : البصريون لم يجيزوا غير الاعراب ، وأجازَ الكوفيون البناء .

والمبرد (٤٢) ذكر الرفع والنصب لكنه قال : « وإنما ظروف الزمان فانما كانت بالفعل أولى لأنها إنما بنيت لما مضى منه ، ولما لم يأت .

وقال مكي بن أبي طالب (٤٣) : وحجه من نصب أنه جعل الاشارة بـ « هذا » الى غير اليوم مما تقدم ذكره من الخبر والقصص في قوله : « وإذ قال الله ياعيسى » [١١٦]وليس ما بعد القول حكاية ، فان جعلته حكاية أضمرت ما يعمل في « يوم » والتقدير : قال إن هذا الذي اقتص عليكم يحدث أو يقع في يوم ينفع ، وإن لم تجعله حكاية فاعمل القول في « اليوم » على أنه ظرف للقول في المعنى ، قال الله تعالى : هذا القصص الذي قص عليكم ، أو هذا الخبر الذي أخبرتم به في يوم ينفع الصادقين . أي سيقوله في ذلك اليوم . . . فـ « يوم » منصوب ظرف خبر الابتداء الذي هو هذا لأنه حدث ، وظروف الزمان تكون أخباراً عن الأحداث نقول : القتال اليوم ، والخروج الساعة ، والجملة في موضع نصب بالقول ، ومذهب الكوفيين في فتح « يوم »

---

(٣٩) السبعة ص ٢٥٠
(٤٠) سيبويه ١١٧/٣ ، معاني القرآن واعرابه ٢٤٧/٢ ، معاني القرآن ٣٢٦/١
(٤١) شرح الأشموني ص ٣١٥
(٤٢) المقتضب ١٧٦/٣
(٤٣) الكشف ٤٢٣/١ والبيان ٣١١/١

أنه في موضع رفع على خبر هذا ، وهذا » إشارة إلى اليوم ، ولكنه فتح عندهم ، وفتحته بناء لأضافته الى الفعل ، لأنه غير متمكن في الاضافة إليه . والبصريون إنما يبنونَ الظرف إذا أضيف الى فعل مبني ، فان أضيف الى فعل معرب لم يُبْنَ . . . . .

وحجة من رفع انه جعل « يوم ينفع » خبراً لهذا ، والجملة في موضع نصب بالقول ، وهو محكي لا يعمل في لفظ القول ، وهذا اشارة الى يوم القيامة .

٥ — وقال في (٤٤) « سواءٌ العاكفُ فيه والبادِ » [الحج — ٢٥] كلهم قرأ « سواءٌ » رفعاً غير عاصم في رواية حفص ، فانه قرأ « سواءً » نصباً .

قال سيبويه (٤٥) : هي ظرف او نعت ، وذكر الفراء فيها الرفع والنصب ، ويعلل مكي (٤٦) فيقول : وحجة من نصب انه جعله مصدراً عمل فيه « جعلناه » . كأنه قال : سوينا فيه الناس سواء ، وارتفع « العاكف » ب « سواء » كأنه قال : مستوياً فيه العاكف ، فهو مصدر في معنى اسم الفاعل . كما قالوا : رجل عدل ، أي عادل ، ويجوز ان يكون « سواء » انتصب على الحال من المضمر في قوله : « للناس » المرتفع بالظرف ، ويكون الظرف عاملاً في الحال لأنه هو العامل في المضمر الذي هو صاحب الحال . أو يكون عاملا حالاً من الهاء في « جعلناه » ويكون العامل في الحال : «جعلنا» كما عملت الهاء التي هي صاحب الحال ، وحجة من رفع انه جعله خبراً لـ « العاكف » مقدماً عليه . والتقدير : العاكف والباد سواء فيه ، أي ليس أحدهما أحق به من الآخر .

وهكذا يتبين لنا كيف أن النحويين كانوا يعللون لكل قراءة تروى عن القراء ويتبين موقفهم منها في قبولها او رفضها .

---

(٤٤) السبعة ص ٤٣٥

(٤٥) سيبويه ٤٠٧/١ ، معاني القرآن ٤٧/٣

(٤٦) الكشف ١١٨/٢ ، وينظر البيان ١٧٣/٢

الاسانيد في الوقف والابتداء :

لقد علمنا أن القراءات تعتمد اعتماداً تاماً على اسانيد الرواية ، وتوجه على اساس منها ، وقد ترفض القراءة او تعد شاذة إذا تبين ان في الاسانيد ضعفاً ، فالقراءة تؤخذ على صحة السند ، يأخذ المتاخر عن المتقدم ، وكذلك اعتمدت عندما عرضت لصحة العربية وموافقتها لرسم المصحف .

أما هذه الأسانيد في الوقف والابتداء ، فلانجد الذين ألفوا فيها يراعونها تلك المراعاة ، وإنما تأتي في القراءات التي يستفاد منها في توجيه الشكل او نوع الوقت وموضعه ، وكيفية الابتداء بعــده ، فهـذه تعتمد على التعليل ، فما كان من الأسانيد ما يتعلق بضبط الشكل يأخذه صاحب الوقف ويستفيد منه لكن تظل خلافاتهم في الرأي والأعراب لها أثرها في مسائل هذا العلم ، وذكر المؤلفون أسانيد كتبهم في أول كل كتاب ، لكن إشاراتهم في مواضع الكتاب إليها قليل ، فهذا أبو بكر الأنباري ، وهو مؤلف أول كتاب من المتقدمين وصل إلينا مطبوعاً يذكر اسانيد كتابه في باب سماه (٤٧) :«ذكر أسانيد ما في الكتاب من القراءات » نلخص هنا ما ذكر في روايته عن نافع قال : فما كان في كتابنا هذا عن نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيـم القارىء فحدثنا به اسماعيل بن اسحاق القاضي ، قال : حدثنا عيسى بن مينا ، ويلقب « قالون » قال : قرأت على نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم القارىء هذه القراءة غير مرة وأخذتها عنه ، وقال : وحدثنا ايضا بها سليمان بن يحيى ابن الوليد التميمي المعروف بالضبي عن أبي جعفر محمد بن سعدان عن المسيبي عن نافع » وقال : وحدثنا بها ايضاً « محمد بن سليمان عن ابن سعدان عن المسيبي عن نافع . »

---

(٤٧) ايضاح الوقف والابتداء ص ١١١

ونذكر روايته عن عبدالله بن عامر ايضاً (٤٨) قال : « وما كان فيه عن عبدالله بن عامر وأهل الشـام ، فأخبرنا به الحسن بن علي المعمري عن هشام بن عمار عن سويد بن عبدالعزيز ، وأيوب بن تميم القارىء عن يحيى ابن الحارث الذماري انه حدثهما عن عبدالله بن عامر . »

ونذكر روايته عن يعقوب الحضر مي قال (٤٩) : « وما كان فيه عن يعقوب بن اسحاق الحضرمي . فحدثني به أبو بكر التمار المقرىء قال : أقرأني أبو عبدالله محمد بن المتوكل اللال المعروف بـ « رويس » عن يعقوب».

وإذا ما تتبعنا أمر هذه الأسانيد في روايته في الكتاب لا نجده يوردها إلا في خلافات القراءات وذلك بالضبط بالشكل ، ثم يأتي أثرها بعد ذلك في مسائل الوقف والابتداء ، إذ كان يأتي بخلافات القراءات ، وهذه مختلفة بالشكل الاعرابي مثلاً فتوجه التأويلات النحوية ، مكان جواز الوقف او منعه ، ومكان الابتداء بما بعده او امتناعه ، وقد وردت مسائل كثيرة في كتابه هذا معللاً لهذا على ما يميل إليه في النحو . فكان موقفه متشدداً في ذلك وخاصة موقفه من أبي حاتم السجستاني نذكر من ذلك :

١ ـ قال (٥٠) : « والوقف على قوله : « وحينَ البأس » [البقرة ـ ١٧٧] حسن غير تام . وقال السجستاني: هو تام . وهذا خطأ لأن قوله : « أولئك الذين صدقوا » [١٧٧] خبر . وحديث عنهم ، فلا يتم الوقف قبله .

٢ ـ وقال في (٥١) : « لمَن ضَرُّه أقرب من نفعه » [الحج ـ ١٣] وقف حسن . وقال السجستاني لا يكون « أقرب من نفعه » وقفاً تاماً،لأن خبر المبتدأ لم يأت بعد ، وإنما هو قوله : « لبئس المولى ولبئس العشير » [الحج ـ ١٣] بـ « يدعو » واللام لام اليمين . كأنه قال : « يدعو من لضره » أي :

---

(٤٨) المصدر نفسه ص ١١٢

(٤٩) ايضاح الوقف والابتداء ص ٤٢ ٥

من والله ضره أقرب من نفعه ، فنقلت اللام من الضر ، فأدخلت على « من » لأنها حرف لا يتبين فيه الاعراب . حكي عن العرب : عندي لما غيره خير منه ، يعني عندي ما لغيره ، وسمعت أبا العباس يقول : كان الأخفش يقول : المعنى : لمن ضره أقرب من نفعه إليه ، فحذف « إليه » قال: وأخطأ الأخفش في هذا لأن المحلوف عليه لا يحذف إذا قلت : والله لأخوك زيد ، ولم يحسن أن تحذف زيداً فتقول : لأخوك ، وفي هذه المسألة أقوال كثيرة اكتفينا منها بهذا . »

أما الروايات التي تسند فيها الخلافات في القراءات الى القراء الذين قالوا بها فكثيرة في كتابه ايضاً نذكر منها على سبيل المثال :

١ — قال في (٥٢) « والله اعلم بما وضعت » [آل عمران — ٣٥] قرأ الأسود ويحيى ابن وثاب وأبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي « بما وضعَتْ » بفتح العين وجزم التاء ، فعلى هذه القراءة يحسن الوقف على « وضعتها أنثى » ثم تبتدىء « والله أعلم بما وضعت » لأنه من كلام الله ، والذي قبله من كلام أم مريم ، وقرأ ابراهيم وعاصم في رواية أبي بكر : « والله أعلم بما وضعتُ » بتسكين العين وضم التاء ، فعلى هذه القراءة لا يحسن الوقف على « وضعتها أنثى » لأن الكلام الثاني متصل بالذي قبله ، وهو من كلام أم مريم » .

٢ — وقال في (٥٣) : « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق » [مريم — ٣٤] كان الحسن وابن كثير ونافع وابو عمرو وحمزة يقرأون « قولُ الحق » بالرفع ، وكان عاصم وابن أبي اسحاق يقرآن « قولَ الحق » بالنصب ،

---

(٥٠) المصدر نفسه ص ٧٨٠
(٥١) المصدر نفسه ص ٥٧٥
(٥٢) ايضاح الوقف والابتداء ص ٧٥ ٥
(٥٣) المصدر نفسه ص ٧٦٣

وكذلك قرأ ابن عامر ، فمن قرأ : « قولُ الحق » بالرفع لم يقف على « ابن مريم » ، لأن « قول الحق » نعت لعيسى ، ومن قرأ « قولَ الحق » بالنصب ، نصب على وجهين : أحدهما أن ينصبه على المصدر ، كأنه قال : أقــول قولاً حقاً ، والوجه الآخــر : أن ينصبه على خبــر « ذلك » ، ويجعل « ذلك » في مذهب « كان » كما تقول : هذا زيدٌ أخاك ، وهذا الخليفة قادمــاً ، فتنصبه لأنك قرنت بـ « هــذا وذلك » الفعــل ، ونصبت به كما تنصب بـ « كان » فمن الوجه الأول يحسن الوقف عليه للمضطر ، ومن الوجه الثاني لا يحسن الوقف عليه . أعني على « ابن مريم » كما لا يحسن الوقف على اسم « كان » دون الخبر .

ففي الآية الاولى إذا كانت القراءة بضم تاء « وضعت » فلايجوز الوقف على « وضعتها أنثى » لأن للكلام الثاني اتصالاً بالكلام الأول . أما إذا سكن فهو كلام لله تعالى فأجازوا الوقف ، وفي الآية الأخرى . إذا كان « قول» نعتاً وهي قراءة الرفع فلايجوز الفصل بين النعت والمنعوت ، وإذ جعلت « ذلك » مثل « كان » في العمل فلا يجوز الوقف على اسم كان دون خبرها ، وإذا نصبها على تقديرها مصدراً . أي ان لها فعلا أجازوا الوقف على « ابن مريم » لأن علاقة المصدر بالمتقدم تكون من ناحية المعنى ، فتختلط القراءات والنحو والوقف والابتداء حسب توجيهات كل قراءة ، وكذلك نرى ذلك في كتاب أبي جعفر النحاس – رحمه الله – فقد ذكر في « باب ذكر الأسانيد لما في هذ الكتاب » فقال (٥٤): « كل ماقلنا فيه : قال نافع ، فإنا كتبناهُ عن أبي جعفر احمد بن عبدالله بن محمد بن هلال المقرىء يرويه عن اسماعيل بن عبد الله المقرىء وأشعث بن سهل عن احمد بن محمد بن سقلان عن نافع ابن أبي نعيم . »

---

(٥٤) القطع والائتناف ص ٩٩

وكل ما قلنا فيه : قال يعقوب ، فهو عن هارون بن عبد العزيز عن أبي القاسم العباس بن الفضل عن احمد بن يزيد المقرئ عن زيد بن أخي يعقوب الحضرمي عن يعقوب .

وما كان عن سعيد بن مسعدة فهو عن أبي بكر بن شقير . وما قلنا : قال الكسائي فهو عن عبد الله بن محمد القزويني عن أبي العباس احمد بن ابراهيم وراق خلف ، عن خلف عن الكسائي .

وكذا وقف النحاس من تلك الأسانيد . فقد نقل مثلاً عن نافع في كتابه ما يقرب من أربعمائة موضع لم يذكر إلاّ ما كان نافع يطلق عليه في تعيين الوقف ، إذ كان يقول : « تم » ولم يذكر نافع في الأنواع الأخرى شيئاً ، فتقيد بلفظه وموضع ما كان يتناوله . فالنحاس كأبي بكر الأنباري ، كان لايذكر القراءات ولا أسانيدها إلا ما كان له تعلق باختلاف تسميات الوقف والابتداء ومواضعه ، ويكون للنحو أيضاً تعلق بهما فتختلط العلوم الثلاثة في المسألة الواحدة وننقل هنا مسألة واحدة نموذجاً لذلك قال (٥٥) : و « عطاء حساباً » [الانسان – ٣٦]يكون تماماً ويكون قطعاً كافياً ويكون ليس بتمام ولا قطع . وهذا يتبين إذ ذكرنا اختلاف القراءة فيه ، قرأ أهل المدينة وأبو عمرو : « ربُّ السموات والأرض وما بينهما الرحمن »[٣٧] برفعهما ، فعلى هذه القراءة « عطاء حساباً » تمام ، ثم يبتدئ : « ربُّ السموات والأرض » مبتدأ وخبر . وإن جعلت التقدير : « هو رب السموات » كان « حساباً » قطعاً كافياً ، وكان التمام على ما روى عن نافع : « « ربُّ السموات والأرض وما بينهما » ثم يبتدئ « الرحمن » وخبر الابتداء « لايملكون منه خطابا » وإن جعلت « الرحمن » على إضمار مبتدأ كان « وما بينهما » كافياً ، وقرأ حمزة : « ربِّ السموات والأرض » بالخفض ، « وما بينهما الرحمن » بالرفع ، فعلى هذه القراءة التمام « وما بينهما » إن ابتدأت ما بعده ، وإن

(٥٥) القطع والائتناف ص ٧٥٩

قدرته باضمار مبتدأ كان « وما بينهما » كافياً ، وقرأ عبد الله بن أبي اسحاق وعاصم : « ربِّ السموات والأرض وما بينهما الرحمن » بالخفض . قال أبو حاتم : ومن قرأهما مجرورين ، فالوقف : « لايملكون منه خطاباً » .

وهكذا أيضاً نجد تلك العلوم تختلط في الكتب الأخرى التي وضعت في الوقف والابتداء (٥٦) .

القراءات والوقف والابتداء :

لقد تبين لنا أن للقراءات منهجها ، وأن للوقف والابتداء منهجه ، ولكل منهما علاقة بالأخر . لكونهما يتناولان القرآن الكريم ، فتداخلت مسائلهما لأنه إذ تغير ضبط كلمة في شكل آخرها تغير المعنى وبتغيره يتغير موضع الوقف ونوعه وموضع الابتداء . ومع هذ فهناك اختلاف بينهما . فيستقلان عن بعضهما استقلالاً واضحاً فأبو بكر الأنباري وأبو جعفر النحاس . وهما من أقدم الذين خلفوا كتباً بالوقف والابتداء بهذه السعة . ويقرّان الفصل بينهما . فهذ أبو بكر الأنباري يقول : (٥٧) : « ومن تمام معرفة إعراب القرآن ومعانيه وغريبه معرفة الوقف والابتداء . فينبغي للقارئ أن يعرف الوقف التام والوقف الكافي الذي ليس بتام والوقف القبيح الذي ليس بتام ولا كاف » ثم قال (٥٨) : « وأنا مفسر ذلك كله باباً باباً وأصلاً أصلاً وذكر اختلاف القراء والنحويين فيه . ومبين ذلك بعد استقصاء هذا الوقف التام والكافي في كل سورة » . وقال أبو جعفر النحاس (٥٩) : « حكى لي بعض أصحابنا عن أبي بكر بن مجاهد (رض) أنه كان يقول : لايقوم بالتمام إلا نحوي عالم بالقراءة . عالم بالتفسير . . . الخ »

---

(٥٦) تنظر الكتب : المكتفى في الوقف والابتداء للداني والمقصد لتلخيص ما في المرشد للعماني ومنار الهدى للأشموني

(٥٧) ايضاح الوقف والابتداء ص ١٠٨

(٥٨) المصدر نفسه ص ١١٠

(٥٩) القطع والائتناف ص ٩٤

فالعلاقة بين علم القراءات وعم الوقف والابتداء وعلم النحو علاقات متشابكة ، إذ لايمكن استغناء أحدها عن الآخر ، بل ولا يمكن الفصل بين واحد منها عن الآخر ، لأن القراءات التي تروى باختلاف ضبط شكل آخر الكلمة لايمكن قبولها إلاّ إذا صحت عربية ، لأن لها أثراً في توجيه المعاني والمعاني مرتبط فهمها بالأحكام النحوية ، وهذا أيضاً يؤثر على موضع الوقف ونوعه ، وإذا ما استعرضنا أسماء من ألف في الوقف والابتداء نجدهم قراء ونحويين . فقد يضع واحد كتاباً بالقراءات ويضع آخر بالوقف والابتداء ، ويكتب نحوي بالنحو ثم يعود ليكتب بالوقف والابتداء . نذكر من القراء(٦٠) : عبد الله بن عامر وضرار بن الصرد وأبا عمرو بن العلاء وحمزة بن حبيب الزيات وعلي بن حمزة الكسائي ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم ويحيى ابن المبارك اليزيدي ويعقوب بن اسحاق الحضرمي وخلف بن هشام وحفص ابن عمر الدوري ومحمد بن سعدان وأبا حاتم السجستاني وأبو بكر بن مقسم ومكي بن أبي طالب .

ومن النحاة يحيى بن يزيد الفراء وسعيد بن مسعدة الأخفش واحمد بن يحيى ثعلب ومحمد بن أحمد بن كيسان وابراهيم بن السرى الزجاج ومحمد بن القاسم أبا بكر الأنباري وأبا جعفر احمد بن محمد النحاس .

فالقراء والنحاة معاً قد وضعوا في هذا العلم كتباً مستقلة عن علومهم التي برزوا فيها وعرفوا بها ، مما يدل على أن هذا علم له أسسه وقواعده وأحكامه ، وإن كانت القراءات والنحو من أهم ما يعتمد عليه ، ولو كان جزءاً منهما لما أفردوه بكتب مستقلة ، ولهذا نجد القراءات والنحو مختلطين فيه ، يعتمد تعليلات النحاة وتأويلاتهم في ذكر نوع الوقف وموضعه ،

(٦٠) ينظر بحثنا « كتب الوقف والابتداء وعلاقتهما بالنحو » / مجلة المجمع العلمي العراقي الجزء الرابع من المجلد الحادي والثلاثين .

ولهذا أيضاً نجد في كتب أصحاب الوقف والتمام مسائل نحوية اختلف النحاة فيها ، فاذا ما وجدوا خلافاً في مسألة عللوا لها من حجج النحاة وخلافاتهم وأحكامهم ليتأولوا لكل حكم ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، وقد رأينا في ثنايا بحثنا كثيراً من تلك المسائل والتعليلات ، ودليلنا على ذلك أن أبا بكر الأنباري وأبا جعفر النحاس ، وهما من أعمق الذين كتبوا فيه ووصل إلينا كتاباهما ، يذكران فيهما كثيراً من ذلك حتّى إن القارئ ليحس أنه يقرأ في كتاب نحو غني بالأحكام النحوية والخلافات وأسماء النحاة بصريهم وكوفيهم ، بل ونجد أبا بكر يفرد باباً في أول كتابه يسميه (٦١) «باب ذكر ما لايتم الوقف عليه» يحدد فيه المواضع التي يوقف عليها ، تبعاً لتلك الأحكام فقد قال : «إعلم أنه لايتم الوقف على المضاف دون ما أضيف إليه ، ولا على المنعوت دون النعت ، ولا على الرافع دون المرفوع ولا على المرفوع دون الرافع ، ولا على الناصب دون المنصوب ، ولا على المنصوب دون الناصب ولا على المؤكد دون التوكيد ، ولا على المنسوق دون ما نسقه عليه ، ولا على إنّ وأخواتها دون اسمها ، ولا على اسمها دون خبرها . . . الخ وكان يأتي بأمثلة على كل نوع منها قال مثلاً (٦٢) : «والفاء تنصب في جواب ستة أشياء في جواب الأمر والنهي والاستفهام والجحود والتمني والشكوك (علق المحقق عليه فقال : يبدو أنه يعني الرجاء) لايتم الوقف على هذه الست دون الفاء» وقال أيضاً (٦٣) : «وأما لا إذا كانت تبرئة فقوله : «ألم ذلك الكتاب لاريب فيه» [البقرة – ٢] الوقف على «لا» قبيح لأنها مع المنصوب بمنزلة شيء واحد ، ولا يتم الكلام على «ريب» لأن «فيه» خبر التبرئة» .

---

(٦١) ايضاح الوقف والابتداء من ص ١١٦ – ١٥٠

(٦٢) ايضاح الوقف والابتداء ص ١١٧

(٦٣) المصدر نفسه ص ١٤١

والى هذا ذهب النحاس أيضاً فعندما ذكر أن هذا العلم لايستغني عن النحو قال فيه (٦٤) : « ويحتاج الى معرفة بالنحو وتقديراته ، ألا ترى أن من قال : « ملةَ أبيكم ابراهيم » [الحج — ٧٨] منصوبة بمعنى : كملة ، وأعمل فيها ماقبلها لم يقف على ما قبلها ، ومن نصبهـا على الاغراء وقف على ما قبلها » . وقال : (٦٥) « ويحتاج الى المعرفة بالقراءات . . واذا قرأ « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين . . . والجروحَ قصاص » [المائدة — ٤٥] فهذا التمام عنده إذا نصب ، وهي قراءة نافع وعاصم والأعمش وحمزة ، ومن وقرأ : « العينُ بالعين » فرفعها ورفع ما بعدها ، فالوقف عنده : « ان النفس بالنفس » وهذه قراءة الكسائي واختيار أبي عبيد .. » ونجد مثل هذه المسائل في كتابه كثيراً ، وهذه ما نجده ايضاً في الكتب الأخرى التي وضعت في الوقف والابتداء ، وسبب اختلافهم في مواضع الوقف والابتداء جاء لاختلافهم بالتأويلات ولما يستندون إليه من من الأحكام النحوية والتعليلات .

ونذكر أخيراً عدداً من خلافاتهم في الأدوات والأسماء لم يكن للقراءات فيها أثر ، وانما تعليل النحاة لما قبلها أو لما بعدها وانما ينعكس هذا الأثر على هذه الأسماء والأدوات ، وجاء هذا واضحاً في كسر همزة « إن » او فتحها (٦٦) ، فقد تناولتها هذه الكتب في مواضع كثيرة ، ونذكر هنا أدوات اخرى غير « إن » منها :

١ — « أم » : قال أبو بكر الأنباري (٦٧) : وقوله : « أم أنا خير من هذا الذي هو مهين » [ص — ٥٢] قال الفراء : في « أم » وجهان : ان

(٦٤) القطع والائتناف ص ٩٥
(٦٥) المصدر نفسه ص ٩٦
(٦٦) ينظر الوقف والابتداء مثلا ص ٦٤٢ و ٦٤٦ ، ٦٨٩ ، ٧٠٨ والقطع والائتناف مثلا ص ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٧٢
(٦٧) ايضاح الوقف والابتداء ص ٨٨٤

شئت جعلتها هي الاستفهام ، وان شئت جعلتها نسقاً على قوله : « أليس لي ملك مصر » وقال بعض المفسرين : الوقف على قوله : « أفلا ينتصرون » أم « أي أتبصرون ، وقال قوم : الوقف على قوله : افلاتبصرون » ثم ابتدأ « أم أنا خير » بمعنى : بل أنا خير ، أنشد الفراء :

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى
وصورتها او أنت في العين أملح

فمعناه : بل أنت ، وأنشد الفرّاء :

فو الله ما أدري اسلمى تغولت
أم النوم ام كلٌ إليّ حبيب

فمعنى « أم » ههنا : « بل » ، وروى أبو زيد الأنصاري عن العرب أنهم يجعلون « أم » زائدة .

وقال القسطلاني في (٦٨) : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم » [البقرة –١٠٨] ويجوز الابتداء بـ « أم » المنقطعة التي بمعنى : « بل » وكذلك بقوله بقوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم » [الرعد –٣٣] فإنْ كانت المعادلة لهمزة الاستفهام كقوله : أخرج زيد ام عمرو ، او لهمزة التسوية نحو : « سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم » [البقرة – ٦] لم يحسن الابتداء بها .

٢ – « بل » قال القسطلاني » (٦٩) : وكذلك يجوز الابتداء بـ « بل » إذا كانت بمعنى الاضراب . وهو يكون بمعنى الابطال إن تلا « بل » جملة ، نحو : « وقالو اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباداً مكرمون » [الانبياء – ٢٦] والانتقال من غرض الى غرض آخر نحو : « قد أفلح من تزكىّ وذكر اسم ربه فصلّى بل » [الاعلى – ١١٤ ، ١٥ ، ١٦] وقوله : « ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا » [ص – ٢٢١] .

(٦٨) لطائف الاشارات ص ٢٦٠
(٦٩) المصدر نفسه ص ٢٥٧

٣ – بلى : قال فيهـا القسطلاني (٧٠) : هي حرف جواب يختص بالنفي ويفيد إبطاله ، وهي في القرآن الكريم في اثنين وعشرين موضعاً ، وهي على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما لا يجوز الوقف عليه إجماعاً ، لتعليق ما بعدها بما قبلها وذلك في سبعة مواضع : « بلى وربنا » [الانعام – ٣٠] و « بلى وعداً عليه حقاً » [النحل – ٣٨] وجوزه السخاوي في (سبأ والتغابن) لأن ما بعد « بلى » يجوز الابتداء به فيقول : « وربي لتبعثن » فيكون رداً لنفيهم البعث ، ثم أقسم على البعث ، فهو وقف كاف ، لأن تعلقه من جهة المعنى لا من جهة اللفظ .

القسم الثاني : ما فيه خلاف ، والاختيار المنع في خمسة مواضع : « بلى ولكن ليطمئن قلبي » [البقرة – ٢٦٠] و« بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » [الزمر – ٧١] .

القسم الثالث : ما الاختيار جواز الوقف عليه ، وهي العشرة الباقية .

٤ – ثم : قال القسطلاني (٧١) : « وجوز بعضهم الابتداء بـ « ثم » في جميع القرآن ، لأنها للتراخي والمهلة ، نحو قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه من نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة » [المؤمنون – ١٢ ، ١٣ ، ١٤] .

٥ – حتى إذا : وقال (٧٢) : « ويجوز الابتداء أيضاً « حتى إذا » كقوله تعالى : « حتى إذا فتحنا عليهم » [المؤمنون – ٧٧] و« حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج » [الانبياء – ٩٦] و « حتى إذا رأوا ما يوعدون »

(٧٠) لطائف الاشارات ص ٢٥٨
(٧١) المصدر نفسه ص ٢٥٧
(٧٢) المصدر نفسه ص ٢٦٠

مريم – ٧٥] واستثنى من ذلك قوله تعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح » [النساء – ٦] لأن الفائدة المقصودة لم تأتِ بعد،وكذا لا يبتدأ بها إذا كان ما قبلها مُغيّاً بما بعدها كقوله تعالى : « ولا تقربوهن حتى يطهرن » [البقرة – ٢٢٢] و « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله [النور – ٣٣] لقوة اتصال ما بين الغاية والمغيّا .

٦ – كلا : وقال (٧٣) : « وهي في ثلاثة وثلاثين موضعاً ... وهي عند سيبويه والخليل والمبرد والزجاج وأكثر البصريين حرف معناه : الردع والزجر ، حتى إنهم يجيزون أبدا الوقف عليها والابتداء بما بعدها ، ورأي الكسائي وأبي حاتم ومن وافقهما أن معنى الردع والزجر ، ليس مستمراً فيها فزادوا معنى ثانياً يصح عليه أن يوقف دونها ، ويبتدأ بها ، ثم اختلفوا في تعيين ذلك المعنى على ثلاثة أقوال :

أحدها : قول الكسائي ومتابعيه تكون بمعنى : « حقاً » .

الثاني : قول أبي حاتم ومتابعيه تكون بمعنى : « ألا » الاستئنافية .

والثالث : قول النضر بن شميل والفراء ومن وافقهما ، تكون حرف جواب بمنزلة : إي ونعم ، وحملوا عليه : « كلا والقمر » [المدثر – ٣٢] فقالوا : معناه : إي والقمر . واختار ابن هشام قول أبي حاتم ، لأنه أكثر اطراداً .

٧ – ما : قال أبو بكر الأنباري (٧٤) في قوله تعالى : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » [الذاريات – ١٧] في « ما » وجهان : إن شئت جعلتها توكيداً للكلام ، والخبر ما عاد من « يهجعون » كانه قال : كانوا يهجعون قليلاً من الليل ، والوجه الثاني : أن تجعل « قليلاً » خبر كان ، وترفع

---

(٧٣) لطائف الاشارات ص ٢٥٩ ، ٢٦٠

(٧٤) ايضاح الوقف والابتداء ص ٩٠٥

« ما » بمعنى : قليل ، كأنه قال : كانوا قليلا من الليل هجوعهم ،فمن الوجهين جميعاً لا يحسن الوقف إلا على « يهجعون » وروى عن يعقوب الحضرمي ، أنه قال : اختلفوا في تفسير هذه الآية ، فقال بعضهم : كانوا قليلاً ، معناهُ : كان عندهم يسيراً ، ثم ابتدأ فقال : « من الليل ما يهجعون » قال أبو بكر : وهذا فاسد لأن الآية إنما تدل على قلة نومهم ، لا على قلة عددهم ، وبعد : فلو ابتدأنا « من الليل ما يهجعون » على معنى : من الليل يهجعون ، لم يكن في هذا مدح لهم لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تجعل « ما » جحداً .

٨ — « من » بعد « إلا » : قال أبو بكر الأنباري (٧٥) في قوله تعالى : «لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر» [الغاشية — ٢٢] قوله : « لست عليهم بمسيطر » غير تام ، وقال السجستاني : هو تام ، وهذا خطأ لأن «من» منصوبة على الاستثناء من الكلام الذي يقع عليهم التذكير ، وان لم يذكر ، كأنه قال : فذكر الناس إلا من تولى وكفر ، وقال الفراء : هو بمنزلة قولك في الكلام اذهب فعظ ، وذكر إلا من لا يطمع فيه ، فمعناه : اذهب فعظ وذكر الناس ، ويجوز أن تكون « من » منصوبة على الاستثناء المنقطع كأنه قال : لكن من تولى وكفر فيعذبه الله ، فيكون من هذا الوجه بمنزلة قولك في الكلام : قعدنا نتحدث ونتذاكر الخبر إلا أن كثيراً من الناس لا يرغب فيما كنا فيه .

٩ — نعم (٧٦) : وأما نعم ففي اربعة مواضع : « قالوا نعم فأذّن » [الاعراف — ٤٤] والمختار الوقف عليها ، لأن ما بعدها لا تعلّق له بما قبلها ، إذ ليس من قول أهل النار ، والبواقي فيها وفي الشعراء ، : « قال نعم

---

(٧٥) ايضاح الوقف والابتداء ص ٩٧٥

(٧٦) لطائف الاشارات ص ٢٦٢

وإنكم إذاً لمن المقربين » [الشعراء – ٤٢] و « قل نعم وأنتم واخرون » [الصافات – ١٨] والمختار لا يوقف عليها لتعلق ما بعدها بما قبلها لاتصاله بالقول .

١٠ – الذي او الذين (٧٧) : كل ما في القرآن الكريم من « الذي والذين» يجوز وصله بما قبله نعتاً ، والقطع على أنه خبر مبتدأ إلا سبعة مواضع يتعين الابتداء بها : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه » [البقرة – ١٢١] ثم قال : وفي الكشاف في قوله تعالى : « الذي يوسوس » [الناس – ٥]يجوز أن يقف القارىء على الموصوف ويبتدىء « الذي » إن حملته على القطع بخلاف ما إذا جعلته صلة ، وقال الرماني : الصفة إن كانت للاختصاص امتنع الوقف على موصوفها دونها ، وإن كانت للمدح ، لأن عاملها في المدح غير عامل الموصوف .

الخاتمة :

يتبين للقارىء مما تقدّم أن القراءات والوقف والابتداء والنحو علوم يتعلق واحدها بالآخر ، لا يستغني واحد منها عن غيره ، فتتداخل أحكامها وقواعدها ببعضها . فهي علوم وضعت أصلاً لصون كتاب الله من أن يدخلة اللحن ، أو يقرأ على غير الصورة الأرجح التي رويت عن الرسول (ص) ، إلا أنها تفاوتت في هذه العلاقة نوعاً من التفاوت ، ففي القراءات حينما تروى كلمة مختلفة لغوياً أو نحوياً . يعلل النحويون لذلك الخلاف في الأعراب حسب ، على ما يعتقدون به من آراء وما يأتون به من علل او حجج ، لكن في الوقف والابتداء يكون النحو اساساً في توجيه مواضع الوقف وكيفية الابتداء ، وفي تعيين نوع تلك الوقوف . لهذا شرطوا على صاحب التمام الايستغني عن علم النحو .

وتلتقي هذه العلوم في أنهـا لا يمكن أن تستغني عن الرواية لأنها علوم نقلية ، إلا أنها تختلف اختلافاً يسيراً في الاعتماد على تلك الروايات ،

لأن للرأي أثره في النحو والوقف والابتداء استناداً الى خلافاتهم في التأويلات .

فجاء هذا البحث لينوه بأثر القراءات والنحو في مسائل الوقف والابتداء وطريقة الاستفادة من الروايات والأحكام والقواعد ، رجعنا فيه الى الكتب التي وصلت إلينا ، فأتينا بنماذج منهـا لتساعد في توضيح تلك العلاقة وخاصة علاقة القراءات بالوقف والابتداء ، والله من وراء القصد .

المصادر

ايضاح الوقف والابتداء ابو بكر الأنباري تحقيق د . محيي الدين رمضان دمشق ١٩٧١

البيان في غريب اعراب القرآن أبو البركات ابن الأنباري تحقيق د . طه عبد عبدالحميد طه القاهرة ١٩٦٩ .

تحبير التيسير ط ١ محمد الجزري تحقيق عبدالفتاح القاضي ومحمد الصادق قمحاوي حلب ١٩٧٢ .

التيسير في القراءات السبع ابو عمرو الداني نسخة مصورة عن نسخة استانبول ١٩٣٠ .

السبعة في القراءات أبو بكر بن مجاهد تحقيق د . شوقي ضيف مصر ١٩٧٢ .

شرح الأشموني ط ١ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد القاهر ة ١٩٥٥ .

غاية النهاية في طبقات القراء محمد الجزري نشر برجستراسر مصر ١٩٣٢ .

القطع والائتناف أبو جعفر النحاس بتحقيقنا بغداد ١٩٧٨ .

كتاب سيبويه تحقيق عبدالسلام محمد هارون القاهرة ١٩٦٦ — ١٩٧٥ .

الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها مكي بن أبي طالب تحقيق

د . محيي الدين رمضان

لطائف الاشارات شهاب الدين القسطلاني تحقيق
عامر السيد عثمان و د . عبدالصبور شاهين القاهرة ١٩٧٢ .

المحتسب أبو الفتح عثمان بن جني تحقيق علي النجدي ناصف ود . عبدالفتاح
اسماعيل شلبي القاهر ة ١٩٦٩ .

المقصد لتلخيص ما في المرشد ابو يحيى زكريا الأنصاري مصر –

المكتفى في الوقف والابتداء أبو عمرو الداني تحقيق جابر زيدان بغداد ١٩٨٢ .

معاني القرآن الفراء تحقيق احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار و د .
عبدالفتاح اسماعيل شلبي القاهرة ١٩٥٥ – ١٩٧٢ .

معاني القرآن واعرابه الزجاج تحقيق عبدالجليل عبده شلبي بيروت ١٩٧٣ .

المقتضب المبرد تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة مصورة بيروت .

منار الهدى في بيان الوقف والابتدا ط ٢ احمد بن محمد بن عبدالكريم الأشموني
مصر ١٩٧٣ .

علاقة مختصر العين لأبي بكر الزبيدي
بكتاب العين

الدكتور صلاح مهدي الفرطوسي
كلية التربية ـ جامعة بغداد

لعل البحث في مشكلات كتاب العين من أعسر بحوث تاريخ المعجم العربي فهي كثيرة معقدة متداخلة ؛ أشرت الى بعضهـا في بحث سابق نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي (*) .

ولايداخلني شك في أن أغلب النتائج التي توصل اليها الباحثون قديماً وحديثاً بشأن مادة الكتاب ، ومؤلفه ، وزمن تأليفه ، ونسخه ، هي نتائج قابلة للنقاش ، إذ إن أي باحث في هذا الموضوع لايمتلك أدلة دامغة تؤيد نتائجه تأييداً قاطعاً .

ولعلنا لا نطمح في الوقت الحاضر الى معرفة الحقيقة كاملة ، اذ إنه أمر مستحيل بسبب غيابها في غياهب الزمن الممتد اكثر من الف عام .

وكنت آمل أن أتبيّن وجهاً من وجوهها في أثنـاء عملي بتحقيق كتاب « مختصر العين » لأبي بكر الزبيدي (ت ٣٧٩هـ) فهو علم الأندلس في القرن الرابع ، اتسم بخلق علمي ، وتواضع للعلماء تجاوز المألوف ، لم يذكره أحد ممن ترجم له بأية شائبة ، كما لم يطعن بعلمه وحافظته أحد من أقرانه ، أو ممن جاء بعده ، وهو لغوي الأندلس ونحويها في عصره (١) ، وهو وارث

(*) الجزء الأول المجلد الثامن والثلاثون .

(١) ينظر في ترجمة الزبيدي : ابو بكر الزبيدي الاندلسي واثاره في النحو واللغة ٥٦ ـ ١٠٦ .

علم شيخه القالي وراوي أغلب مروياته وكتبه التي نقلها من المشرق . وبسبب اهتمام الزبيدي بكتاب العين ، وبعد تأليفه كتاب (مختصر العين) نال شهرة واسعة في المشرق والمغرب والاندلس .

وقد أثار الزبيدي زوبعة في الوسط اللغوي بشأن مؤلف كتاب العين ومادته اللغوية مازالت حتى الآن تثير نقاشاً وجدلا بين الباحثين ، ورجل مثل الزبيدي اتسمت بحوثه بالدقة والموضوعية لابد أن يكون قد أثار تلك الزوبعة بعد دراسة وروية ، ولابد أن يكون قد أثارها بعد أن راجع نفسه أكثر من مرة ، وقد ذكر حججه في مقدمة كتابيه (مختصر العين) و (استدراك الغلط الواقع في كتاب العين) . وقد أجملها زميلنا الدكتور نعمه رحيم العزاوي في أربع نقاط تعود الى اختلاف نسخ الكتاب ، وتأخر ظهوره ، ووقوع معاني النحو فيه على مذهب الكوفيين . وعدم تثقيفه الثنائي الخفيف من الصحيح والمعتل . والثاني المضاعف من المعتل ، والثلاثي المعتل بعلتين ، إذ أدخل كل ذلك في باب سماه اللفيف . كما أنه خلط الرباعي والخماسي من أولهما الى آخرهما (٣) .

ثم ناقش الدكتور نعمة حجج الزبيدي معتمداً في ما استنتجه على ما ذهب اليه الدكتور حسين نصار ، والدكتور مهدي المخزومي ، والدكتور عبدالله درويش . وغيرهم . وعلى ملاحظاته الخاصة من خلال دراسته للزبيدي(٤) ، وخص كتاب (مختصر العين) بفصل كامل من فصول كتابه الاربعة ، ذكر فيه بعض نسخه ودواعي تأليفه . وبسبب الرابطة التي تربط المختصر بكتاب العين تحدث عن أهمية كتاب العين ، وما ألف حوله ، والطريقة التي سار عليها الخليل في العين ، ثم عاد فتحدث عن منهج الزبيدي في الاختصار ،

---

(٢) ابو على القالي واثره في الدراسات اللغوية والادبية بالأندلس ٣٦٢ .

(٣) مختصر العين ١ ، استدراك الغلط الواقع في كتاب العين المقدمة ١٣٩ – ١٤٦ . ابو بكر الزبيدى الاندلسى واثاره فى النحو واللغة ١١٥ – ١١٧ .

(٤) ابو بكر الزبيدي الأندلسي واثاره في النحو واللغة ١١٧ – ١٢٩

ورأى أن الزبيدي صنع في كتاب العين أربعة أمور ليخرج مختصره هي : تنظيمه ، وتصحيح المختل والمصحف من مواده ، واختصاره ، والاستدراك عليه . ودعم رؤيته بأمثلة من مختصر الزبيدي (٥) .

وقد استوقفني الأمر الرابع الذي بحث عنه الكاتب بايجاز ، وهو الاستدراك الذي صنعه الزبيدي في مختصره ، اذ إنه لم يقدم دليلا واحداً يستطيع ان يثبت فيه أن هذه المادة أو تلك مستدركة على كتاب العين . قال : « وألف الزبيدي كتاباً حول زيادات القالي على (العين) اسماه (المستدرك من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي البغدادي ، فالزبيدي إذن عالم بفوائت (العين) ومحيط بما لم يرد فيه من المفردات ، وقد استدرك في (مختصره) الشيء الكثير من الفوائت إلا أنه – كما قال في خاتمة الكتاب – لم يستقص جميع ما أهمله العين لأنه اكتفى بكتابه الذي خصصه لهذا الموضوع ، ولأنه أراد أن يكون (المختصر) صورة موجزة لما في (الأصل) من مواد بعد تجريدها من الخطأ ، وا زالة ما لحقها من التصحيف » (٦) .

ويستفاد من النص الذي ذكرته ان الباحث اعتمد على أمرين للتدليل على أن المواد التي وردت في (المختصر) ولم ترد في (العين) هي مستدركة عليه .

الاول : معرفة الزبيدي بفوائت العين بدليل تأليفه (المستدرك) .

الثاني : ما ذكره الزبيدي في خاتمة كتابه المختصر .

إن هذا الأمر جدير بالعناية والتدقيق ، لكي نواصل البحث في دراسة الحلقات المفقودة في كتاب العين على أسس سليمة .

بين يدي خمس نسخ من أدق نسخ كتاب مختصر العين وأهمها ، وفي مقدمة هذه النسخ ،نسخة خزانة القرويين بفاس رقمها (١٢٣٨)(٧) وقد جاء في

(٥) المصدر السابق ٤٣٦ – ٤٨٢ .
(٦) المصدر السابق ٤٨١ .
(٧) ينظر في وصفها مختصر العين (المطبوع) : س – ع وسأفرد بحثاً بوصف نسخ مختصر العين التي تيسر لي الاطلاع عليها .

خاتمتها ص ٣٣١ (حرف الياء .... ومما ضوعف من فائه ولامه ، الياء : حرف هجاء ، وهي من تأليف ياء وواو وياء ، وتحقيرها يـوية ، والواو من تأليف واو وياء وواو ، وتحقيرها وبية ، ويقال : واو موأوأة ، همزوا تمّ مختصر العين ... » .

وجاء في ص ٣٣٢ منها « وقع في آخر نسخة الحكم المستنصر بالله رضي الله عنه . قال محمد : وأنا اذكر الآن جمل الأعداد الواقعة في ابواب الكتاب لأدل على المجتمع منها ، وأنص ما للمستعمل والمهمل والصحيح والمعتل من الثنائي واللاثي والرباعي والخماسي على حسب ما أورده صاحب الكتاب ان شاء الله . عدة مستعمل الكلام ... » .

وعلى اساس هذه الخاتمة التي أشار اليها نعمة لا نستطيع أن نستنتج أن زيادات (المختصر) استدراك من صاحبه على كتاب العين ، فخاتمة الكتاب ليس فيها أية اشارة الى زيادة أو استدراك . وما وقع في آخر نسخة الحكم من كتاب مختصر العين احصاء لما ورد في كتاب العين (على حسب ما اورده صاحب الكتاب) . وعلى هذا لابد لمن يبحث في هذا الباب أن يجد أدلة أخرى غير هذا الدليل .

وان من يقرأ مقدمة كتاب مختصر العين يستنتج أن مادة المختصر لابد أن تكون موجودة في كتاب العين إذ إن الحكم المستنصر بالله الذي أمر الزبيدي بالاختصار ألزمه بأن تؤخذ عيون الكتاب « ويلخص لفظه ويحذف حشوه » (٨) وقد ألزم الزبيدي نفسه في مقدمته بأمر الخليفة فقال : « فبدأنا في ذلك – بعون الله وتأييده – على الشريطة المذكورة » (٩) .

---

(٨) مختصر العين ١ .

(٩) المصـدر السـابق .

ثم أن الباحث المتعجل قد يرى في تأليف الزبيدي كتاب (المستدرك) دليلا آخر على أن مادة المختصر مأخوذة كلها من كتاب العين ، ولاسيما أن المؤلف أفرد المستدرك بكتاب مستقل ، أما (المختصر) فهو تهذيب وتنقيح وتصحيح واختصار لمادة (كتاب العين) .

وبسبب موقف الزبيدي من (كتاب العين) قد يستنتج الدارس أن الزبيدي لا يختصر كتاب العين الذي ألفه الخليل ، انما يختصر كتاب العين المنسوب للخليل المشكوك في نسبة أغلب مادته ، إذ إن الكتاب كما يرى الزبيدي « لا يصح له ولا يثبت عنه ... وأكبر الظن فيه ان الخليل سبَّب أصله ، ورام تثقيف كلام العرب به ثم هلك قبل كماله ، فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه . » (١٠)

وهو أمر قد يوقع الدارس بالحيرة ، ذلك أنه يعثر في (المختصر) على مادة لغوية كثيرة جداً لا وجود لها في مطبوع العين ، وقد ينساق الى استنتاج أمور أخرى في مقدمتها أن مطبوع العين لا يمثل الأصل تمثيلا دقيقا ولاسيما حينما يعثر على نصوص اخرى تنسب في كتب أخرى لكتاب العين وليست فيه (١١) ، وقد يساعده على الانسياق وراء هذا الاستنتاج إن أقدم نسخة حقق عليها كتاب العين يعود تاريخها الى سنة (١٠٥٤ هـ) (١٢) في حين أن مختصر العين الف في أوائل النصف الثاني من القرن الرابع (٣٦٢ هـ)(١٣) وقد اطلع صاحبه على نسخ من كتاب العين يعود تاريخها الى أواخر القرن الثالث) (١٤) . ومن المناسب ان أذكر بعض الأمثلة من المختصر مما جاء في حرف العين باب الثنائي الصحيح ولم ترد في كتاب العين .

(١٠) المصدر السابق .
(١١) أشرت الى بعضها فى بحث سابق نشر فى مجلة المجمع بعنوان (محاولة جديدة فى دراسة كتاب العين) .
(١٢) العين ١/٣٣ .
(١٣) مختصر العين ص ٣٣٣ .
(١٤) استدراك الغلط الواقع في كتاب العين ١٤٢ ــ ٢٤٣ .

١ – جاء في المختصر : (وقد أكعَّهُ الخوفُ وكَعْكَعَهُ الخوف ، إذا حبَّسَه ، وكَعَّ يكُعُّ كُعُوعاً) .

قوله : (يكع كعوعاً) ليس في العين ، وعن ابن الأعرابي في التهذيب .

٢ – جاء في المختصر : (ويقال : صَعْصَعَهُ : إذا حرَّكَهُ .

والقول ليس في العين ، وعن الأصمعي في التهذيب .

٣ – جاء في المختصر : (السَّعْسَعَةُ : زَجْرُ المِعْزَى ، إذا قلتَ سَعْ سَعْ).

والمادة ليست في العين ، وانظر الجمهرة ، وجاء في التهذيب عن الفراء . (سعسعت بالعناق ، إذا زجرتها فقلت لها : سع سع) .

٤ – جاء في المختصر : (العُطْعُط : الجَدْي) .

والمعنى ليس في العين ، وعن ابن السكيت في التهذيب .

٥ – جاء في المختصر : (وكل شيء بَاءَ بشيء فهو له عَرَارٌ) .

والمعنى ليس في العين . وعن أبي عبيدة في التهذيب .

٦ – جاء في المختصر : (العُرْعُرَةُ : غِلَظُ الجبل) .

والمعنى ليس في العين . وعن الأصمعي في التهذيب .

٧ – جاء في المختصر : (عَرْعَار : لعبة لصبيان الأعراب) .

والمعنى ليس في العين وعن أبي عبيد في التهذيب .

٨ – جاء في المختصر : (يقال : شاب رُعْرُع ورَعْرَعٌ)

ورعرع بالضم ليست في العين . وعن كراع في المحكم .

٩ – جاء في المختصر : (واليَعْلول : الغدير) .

وليس في العين . وفي التهذيب عن الأصمعي (اليعلول : غدير أبيضُ مُطَّرِد) .

١٠ – جاء في المختصر (اليعاليل : حباب المطر . واليعاليل من السحاب : قطع بيض . واحدها : يعلول .

وليس في العين ، وفي التهذيب (عن أبي عبيدة ... واليعاليل أيضاً : حباب الماء . . . وقال الأصمعي . . . وهو السحاب المطّـرد أيضاً) .

١١ – جاء في المختصر : (وقد لعلعت عظمه ، أي : كسرته) .
وليس في العين ، وعن أبي زيد في التهذيب .

١٢ – جاء في المختصر : وأعْنَنْت اللجام : جعلت له عِناناً)
وليس في العين ، وعن الكسائي في التهذيب .

١٣ – جاء في المختصر : (وشركةُ عِنَانٍ : شركة في شيءٍ خاص كأنه عُنّ) .
وليس في العين ، وعن الفراء في التهذيب .

١٤ – جاء في المختصر : (عن ، وهي تكون اسماً وحرفاً ، ومعناها ماعدا الشيء)
وليس في العين ، وعن النحويين في التهذيب .

١٥ – جاء في المختصر : (النُعْنُعُ من الرجال : الطويل) .
وليس في العين ، وعن الأصمعي في التهذيب .

١٦ – جاء في لمختصر : (والنُّعاعَة : بقلة) .
وليس في العين ، وفي النبات والشجر للأصمعي (هو بقل ناعم في أول ما يبدو رقيق) وفي التهذيب عن شمر : (لم أسمع نعاعة الا للأصمعي)

١٧ – جاء في المختصر : (العَبْعَابُ : الطويل من الناس)
وليس في العين ، وعن أبي عبيد في التهذيب

١٨ – جاء في المختصر : (وألقى عليك بَعاعَهُ ، أي : ثقله) .
وليس في العين ، وعن أبي عبيد في التهذيب .

١٩ – جاء في المختصر . (وامرأة مَعْمَعَة : ذكية متوقدة) .

وليس في العين . وفي التهذيب عن شمر : (امرأة مَعْمَعٌ ، وهي الذكية المتوقدة) ، والامثلة من هذا النوع كثيرة جداً ، وقد تسوق الى استنتاج

آخر هو أن الزبيدي كان محقاً في ما ذهب اليه ، إذ اناك تلاحظ من الأمثلة السابقة ان النصوص تنسب الى لغويين مختلفين ، بصريين وكوفيين ، وعلى هذا يكون الزبيدي محقاً في موقفه من نسخ العين التي اطلع عليها واعتمد عليها في الاختصار، ولولا وجود بعض المصادر التي ساعدت على كشف الحقيقة لاضطررنا الى الانسياق وراء تلك الاستنتاجات على ما سيتبين لنا .

أ ـ إن الأمثلة السابقة التي ذكرتها وغيرها كثيرة لم تنسب الى الخليل أو الى كتاب العين في المعاجم التي اهتمت بنسبة أقوال اللغويين الى أصحابها .

ب ـ هناك مواد لغوية كثيرة في المختصر وردت مهملة في مطبوع العين وقد أشير الى إهمالها في كتاب العين في كتابي التهذيب والمحيط أذكر أمثلة منها.

١ ـ جاء في المختصر : (تقول : عَهْعَهْتُ بالابل : إذا زَجَرْتَها ، فقلت : عَهْ عَهْ لتحتبسَ) .

والمادة ليست في العين ، وجاء في التهذيب (أهمل الخيل العين مع الهاء في المضاعف، وقد قال الفراء في بعض كتبه : عهعهت بالضأن عهعهة : إذا قلت لها : عَه عَه ، وهو زجر لها . وقال غيره : هو زجر للابل لتحتبس) .

٢ ـ جاء في المختصر : (هِدَعْ : كلمة تُسَكَّنُ بها صغار الإبل عند النفار ، يقولون : هِدَعْ هِدَعْ) .

والمادة مهملة في العين ، وجاء في التهذيب (قال ابن شميل: هِدَع زجر للبَكر) . وجاء في المحيط (هدع : أهمله الخليل . . . وهدع هدع : زجر للبكر) .

٣ ـ جاء في المختصر : (الأزعكي : الرجل القصير اللئيم) .

والمادة مهملة في العين ، وجاء في المحيط (زعك ـ: مهمل عند الخليل) وهي عن الخارزنجي فيه ، وعن أصحاب أبي عبيد في التهذيب .

٤ – جاء في المختصر : (الصَّعْوَن : الرقيق الرأس ، والأنثى صِعْوَنَة، وأُذنٌ مُصْعَنَّةٌ : دقيقة لطيفة) .

والمادة مهملة في العين ، ونص الأزهري على إهمالها عند الليث ، وفيه عن ابن الاعرابي (أصعن الرجل إذا صغر رأسه) وعن أبي عبيد : (الصَّعْوَنُ : الظليم الدقيق العنق الصغير الرأس ، والأنثى : صعونه) وفيه أيضاً يقال : (أُذُنٌ مُصَعَنَّة : مؤللّة) وعن أبي عمرو (أصعن : إذا صغر عقله) .

٥ – جاء في المختصر : (الصَّعْف : شراب لأهل اليمن ، وهو أن يُشَرَّخ العنب ثُم يلقى في الأوعية) .

والمادة مهملة في العين ، ونص الأزهري على اهمالها عند الليث وفيه عن محمد بن كثير (ان لأهل اليمن شراباً يقال له : الصعْف . .)

وجاء في المحيط (صعف : أهمله الخليل ، وحكى الخارزنجي : الصعف شراب لأهل اليمن) .

٦ – جاء في المختصر : (الفعص : الانفراج) .

والمادة مهملة في العين ولم ترد في التهذيب والمحيط ، وهي في المحكم .

وجاء في المحيط (فعس) (أهمله الخليل ، وحكى الخارزنجي : الفاعوسة. الفرج ، لأنها تنفعس ، أي : تنفرج . . .)

٧ – جاء في المختصر (السعابيب : شبه الخيوط من العسل الخِطمي ، يقال : سال فمه سَعَابيب) .

والمادة مهملة في العين ، ونص الأزهري على أنها مما أهمله الليث ، وفيه عن أبي عمرو : (السعابيب التي تمتد شبه الخيوط من العسل والخِطمي ونحوه) . وجاء في المحيط (سعب : أهمله الخليل وحكى الخارزنجي : السعابيب : ما جرى من الماء وغيره لزجاً ممتداً ؛ حتى يسمى به الشراب واللعاب .

٨ – جاء في المختصر : (معس في الحرب : إذا حمل ، ومعست الأديم : إذا لينته في الدباغ) .
والمادة مهملة في العين ، ونص ، الأزهري على أنها مما أهمله الليث ، وجاء في المحيط (معس: أهمله الليث) وذكر الأزهري والصاحب المعنى الثاني لمعس ، الأول ذكره عن الأصمعي والثاني عن الخارزنجي ولم يذكرا المعنى الأول ، وهو في المحكم .

٩ – جاء في المختصر : (مِسْعٌ : من اسماء الشمال)
والمادة مهملة في العين ، ونص الأزهري على أنها مما أهماه الليث ، وفيه (قال الأصمعي : يقال للشمال : نسْع ومِسْع) وجاء في المحيط (مسْع : أهمله الخليل، وحكى الخارزنجي والمسع والنسع : اسمان لريح الشمال) .

١٠ – جاء في المختصر : (ماله ثعْد ولا معد ، أي : قليل ولا كثير) .
والمادة مهملة في العين، وجاء في المحيط (ثعد : حكى الخارزنجي الثعد من البُسْر : ما لان عند التلوين ، والواحد : ثعدة . والعشب الغض . والماء . ويقال : عيش ثعْد مَعْد ، أي مخصب) .

١١ – جاء في المختصر : (العَدَاب : مُسْتَرَقٌ الرَّمل) .
وهي مهملة في التهذيب . ونص على أنها مما أهمله الليث ، وهي فيه عن أبي عبيدة والأصمعي. وجاء في المحيط (عدب: أهمله الخليل وحكى الخارزنجي : العداب : مسترق الرمل . . .) .

١٢ – جاء في المختصر: (العَرَّات: الرمح الشديد الاضطراب . وقد عَرِتَ وعَرَتَ أنفَه : إذا عركه) .
والمادة مهملة في العين ، وفي التهذيب عن الأصمعي (ومن الرماح العَرَّات والعَرَّاص . وهو الشديد الاضطراب ، وقد عَرِت يَعْرَتُ ...) وقال الأزهري (قد صح عَتَرَ وعَرَتَ ودل اختلاف بنائهما على أن كل منهما غير الآخر .

وجاء في المحيط (عرت : أهمله الخليل ، وحكى الخارزنجي : العَرَّات : الشديد الاضطراب ، وقد عَرَتَ وعَرِتَ بفتح الراء وكسرها) .

١٣ – جاء في المختصر : (أعْظَرَهُ الشراب اعظاراً : إذا كظَّه وثقل في جوفه) وهي مهملة في العين ، وجاء في المحيط (عظر : أهمله الخليل ، وحكى الخارزنجي . . . وأعظره الشراب كظّـه وثقّل جوفه) .

١٤ – جاء في المختصر : (أنْثع القيء من فيه ، وكذلك الدّم من الأنف انثاعاً: إذا اتبع بعضه بعضاً .
والمادة مهملة في العين وهي عن ابن الاعرابي في التهذيب .

١٥ – جاء في المختصر : (أصبنا مَرْتَعَة من طعام أو شراب، أي : قطعة ، وكذلك مرنعة من الصيد) .
وهي مهملة في العين، وجاء في المحيط (رنع : أهمله الخليل . وحكى الخارزنجي . . . والمرنعة : ماترنع فيه العين رنوعاً ، أي : تنتهي من خصب أو لهو أو شراب .... وأصبنا مرنعة: قطعة من الصيد) ، وغيرها كثير .

وهكذا يتبين لنا أن (مختصر العين) للزبيدي لم يكن اختصاراً بالمعنى الدقيق الذي توحيه مقدمته وخاتمته، إنما كان تأليفاً مستقلاً اعتمد على مادة في الأصل هي (كتاب العين) الذي اعتمد ت مادته كل المعجمات التي ألفت بعده ، وعلى هذا الاساس ، وبسبب عدم التزام الزبيدي بالمنهج الذي ذكره في مقدمة مختصره لانستطيع أن نضع تصوراً دقيقاً لكتاب العين من خلال مادة المختصر .

تضمن الظرف معنى (في)

الدكتور فاضل صالح السامرائي
كلية الاداب جامعة بغـداد

يسمي النحاة البصريون المفعول فيه « ظرفاً » ، والظرف هو الوعاء الذي توضع فيه الأشياء ، كالجراب والعدل والاواني ، وتسمى « ظروفاً » لأنها أوعية لمـا يجعل فيها ، وقيل للأزمنة والأمكنة « ظروف » ؛ لأن الأفعـال توجد فيها ، فصارت كالأوعية لها » (١) .

وهي تسمية مجازية ، وذلك لأن الظرف في الحقيقة هو الوعاء ذو الحدود ، المتناهي الاطراف ، كالقارورة والزّير والحبّ وسائر الآنية ، وليس هذا كذلك ، فان كلمة « فوق » و « تحت » و « زمن » و « حين » ، ليس لها حدود متناهية كالظروف الحقيقية ، وإنما سميت بذلك لأن الأحداث تكون فيها وهي تحتويها كما تكون الأشياء في الآنية . ويسميه الفراء « محلّاً » ، والكسائي وأصحابه « صفة » . ولعله باعتبار الكينونة فيه (٢) ، أي أن الشيء قد يكون متصفاً بالفوقية والتحتية والبينيّة ، وهي صفة له . فان قلت : « هو فوقك » ، فقد اتصف بالفوقية و « اقبل خلفك » اي : اتصف بالخلفية ، وهكذا .

حدّه : الظرف عند النحاة زمان او مكان ، ضمّن معنى « في » الظرفية باطّراد أو اسم عرضت دلالته على أحدهما ، أو اسم جارٍ مجراه (٣) .

---

(١) ابن يعيش ٤١/٢ .

(٢) التصريح ٣٣٧/١ ، حاشية الصبان ١٢٥/٢ ، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ١٩٦/١ .

(٣) انظر التصريح ٣٣٧/١ الأشموني ١٢٥/٢ - ١٢٦ ، ابن عقيل ١٩٦/١ .

ويقصدون بالاسم الذي عرضت دلالته على أحدهما ماينوب عن الزمان والمكان ، من مصدر او عدد او غيرهما ، وبالاسم الجاري مجراه ألفاظاً مسموعة توسعوا فيها ، نحو قولك « أحقا أنك ذاهب » فحقاً هنا جارية مجرى الظرف عند الجمهور .

تضمن الظرف معنى (في) : لا يسمي النحاة اسم الزمان والمكان « ظرفاً » حتي يتضمن معنى « في » الظرفية ، وذلك نحو « سرت يمينك » ، فالسير كان في جهة اليمين ، ونحو « قدمت صباح اليوم » ، فالقدوم كان في الصباح ، أي : كان اليمين ظرفاً للسير ، احتواه كاحتواء الوعاء للماء ، والصباح كان ظرفاً للقدوم ، أي : وقع فيه كما تحتوى الآنية ما فيها .

فإنْ لم يتضمن معنى « في » ، فلا يسميه النحاة « ظرفاً » ، وذلك نحو قوله تعالى : [واتَّقُوا يوماً لا تَجْزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً] — البقرة ٤٨ » . فـ « يوماً » ليس ظرفاً ، لأن الاتّقاء ليس واقعاً فيه بل هو قبله ، فكيف يكون ظرفاً للأتقاء وهو لم يقع فيه ؟ ونحوه قوله تعالى : [وأنذِرهم يومَ الحسرةِ إذْ قُضِيَ الأمر وهم في غفلةٍ ، وهم لا يؤمنون] مريم ٣٩ ، فيوم الحسرة وهو يوم القيامة ليس ظرفاً ؛ لأن الإنذار ليس في يوم القيامة،وانما هو قبل يومَ القيامة ، فلا يكون ظرفاً له ، بل هو مفعول به . ونحوه لو قلت : « أخاف يومَ القيامة » ، فهو مفعول به ، لا ظرف ؛ لأن الخوف ليس واقعاً في يوم القيامة ، بل قبله . فلو قلت : « أخاف أعمالي يوَم القيامة » ، كان ظرفاً ؛ لأن الخوف واقع فيه . ونحوه لو قلت : «أتذكر يوم سافرنا قبل عامين ؟ » ، كان اليوم مفعولا به ، وليس ظرفاً ؛ لأن الذكر واقع بعد يوم السفر ، لا فيه . ولو قلت « أذكرني يوم سفرك » كان ظرفاً . ونحوه قوله تعالى : [إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد بما نَسُوا يوَم الحساب] ص ٢٦ ، فالنسيان ليس في يوم الحساب ، بل قبله ، فهو ليس ظرفاً له . ونحوه أن

تقول : « نسيت يوم السفر » ، فهو ليس ظرفاً ، ولكن لو قلت « نسيت الكتاب يوم السفر » كان ظرفاً ؛ لأن النسيان وقع في يوم السفر .

ومما لم يتضمن معنى « في » قولك : « يومنا مشرق » ، فإنك لم تذكر حدثاً وقع فيه ، وإنما هو مبتدأ ، ونحوه أن تقول « ذهب وقت الشباب بما فيه » ، فانه فاعل ، وليس متضمناً معنى « في » ؛ لأن الوقت هو الذي ذهب ، لا أن شيئاً ذهب فيه . جاء في (التصريح) : « وخرج عن الحد ... نحو « يخافون يوماً » من أسماء الزمان ، ونحو : [الله أعلمُ حيث يجعَلُ رسالته] (٤) من أسماء المكان ، فان « يوماً و « حيث » ، وانْ كانا من أسماء الزمان . فليسا ظرفين ، فانّهما ليسا على معنى « في » ؛ اذ ليس المراد أن الخوف واقع في ذلك اليوم ، والعلم واقع في ذلك المكان ، وانما المراد أنهم يخافون نفس اليوم ، وأن الله يعلم نفس المكان المستحق لوضع الرسالة ، فانتصابهما على المفعول به ، لأن الفعل واقع عليهما لا فيهما » (٥) .

وجاء في (المقتضب) : « إعلم أن كل ظرف متمكن ، فالاخبار عنه جائز ، وذلك قولك اذا قال قائل « زيد خلفك » أخبر عن (خلف) ، قلت : « الذي زيد فيه خلفُك » . فترفعه ؛ لأنه اسم ، وقد خرج من أن يكون ظرفاً . وانما يكون ظرفاً إذا تضمن شيئاً ، نحو « زيد خلفَك » : ؛ لأن المعنى : زيد مستقر في هذا الموضع ، والخلف مفعول فيه . فان قلت : « خلفُك واسع » لم يكن ظرفاً . ورفعتَ ، لأنك عنه تخبر » (٦) .

وجاء في (الكتاب) : « هذا باب ما ينتصب من الأماكن والوقت وذاك لأنّها ظروف تقع فيها الأشياء وتكون فيها ، فانتصب ، لأنه موقوع

(٤) سورة الأنعام ١٢٤ .
(٥) التصريح ٣٣٩/١ وانظر الأشموني ١٢٦/٢ ، ابن عقيل ١٩٦/١
(٦) المقتضب ١٠٢/٣ .

فيها ، ومكونٌ فيها ، وعمل فيهـــا ما قبلها .... وكذلك يعمل فيها ما بعـــدها وما قبلها » (٧) .

فان صرح بـ « في » لم يُسَمَّ ظرفاً في الاصطلاح ، نحو « نحن في وقت طيب » و « جئت في الساعة الثالثة » . ومعنى التضمُّن أن يكون الحرف مقدراً في الكلام ، وإن لم يصح التصريح به أحيانا (٨) . فقد يمتنع التصريح بـ « في » وهو مع ذلك متضمن معنى « في » عند النحاة ، وذلك نحو قبل وبعد ومع واذا وفوق وتحت وإذْ ، فأنت تقول : « جئت قبل محمد » ، ولا يصح أن تقول « في قبل محمد » ، وتقول : « الكتاب فوق المنضدة » ، ولا يصح أن تقول « في فوق المنضدة » . ولكن المعنى أنه جاء في الزمان الذي سبق مجيء محمد ، أو الذي بعده ، وأن الكتاب حالٌ في هذا المكان . فـ « قبل محمد » احتوى المجيء وكان ظرفا له ؛ لأن الحدث وقع فيه . و« فوق المنضدة » احتوى الكتاب وقد حلّ فيه ، وهكذا .

ولابد أن يذكروا في حدّه أنه (فضلة)، وإلا فنحو « انطُلِقَ يومان » و (سُوفِرَ يوم الخميس) ، متضمن معنى « في » ، وليس ظرفاً .

ومعنى الاطّراد هو أن تتعدى اليه سائر الأفعال مع بقاء تضمنه لذلك الحرف (٩) .

وايضاح ذلك أنك تقول : « جلست فوق المنضدة » ، و « نمت فوق السرير » ، و « أكلت فوق السطح » ، و « بعت الحاجة فوق الحصان » ، و « صببت الماء فوق رأسه » ، فإنا نجد أن كلمة « فوق » تعدّت اليها أفعال متعددة ، وقدبقيت متضمنة لمعنى « في » ، بخلاف قولك « دخلت البيت » ، فالمعنى دخلت في البيت . فـ « البيت » هنا متضمن معنى « في » ، ولكنه غير

(٧) سيبويه ٢٠١/١ ، وانظر ١١٤/١ .
(٨) انظر حاشية الخضري ١٩٦/١ .
(٩) حاشية الخضري ١٩٦/١ ، الأشموني ١٢٦/٢ .

مطّرد في سائر الأفعال ، فلا تقول : « بعت البيت » بمعنى بعت في البيت ، ولا « أكلت البيت » بمعنى أكلت في البيت ، ولا « نمت البيت » بمعنى نمت في البيت ، ولا « قرأت البيت » بمعنى قرأت في البيت (١٠) . فالبيت لايسمى ظرفاً ؛ لأنه لا يتضمن معنى « في » باطّراد ، أي في جميع الأفعال .

وعلى هذا يلزم إخراج أسماء المقادير من الظرفية كالفرسخ والميل ، فانّها لايطّرد تعدي الأفعال اليها ، وانّما تتعدى اليها أفعال السير خصوصاً(١١) فانّك تقول « سرت ميلاً » ، و « ركضت فرسخاً » ، ولا تقول « بعت ميلاً » ، ولا « جلست ميلاً » ولا « نسيت ميلا » .

كما يلزم أن يخرج نحو « جلست مجلس محمد » ، أي ما صيغ من أسماء المكان والزمان ، فأنها لا تنصب على الظرفية ، الا اذا تعدى اليها ما اجتمع معها من مادتها (١٢) ، فلا يقال « نمت مجلس محمد » ، ولا « أكلت مجلس محمد » ، وهما مستثنيان عند النحاة .

ونعود الى تضمن الظرف معنى « في » . فقد ذكرنا أن الظرف عند النحاة ما تضمن معنى « في » باطّراد . وفي هذا نظر ، فانّ من الظرف مالا يتضمن معنى « في » ، بل اذا قدرت هذا الحرف معه تغير المعنى ، وذلك نحو قوله تعالى : [يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَو يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ] – البقرة ٩٦ ، فانّه لا يصح أن تقول : يُعَمَّرُ في ألف سنة ؛ لأن المعنى إنما هو يعمر ألف سنة ، لا في ألف سنة . والفرق واضح بين المعنيين ، فانك اذا قلت « عمّرت الدار في سنتين » كان المعنى أنه استغرق لتعميرها مدة سنتين . وأمّا « يُعَمَّر ألف سنة » فمعناه أنه يبقى ألف سنة . ونحو قوله تعالى : [قال قائل منهم كم لَبِثْتُم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعضَ يوم] – الكهف ١٩

(١٠) انظر الأشموني ١٢٦/٢ .
(١١) حاشية يس على التصريح ٣٤٠/١ .
(١٢) انظر حاشية الصبان ١٢٦/٢ .

فليس المعنى أنه لبث في يوم أو في بعض يوم . ومثله أن تقول « جلست في القاعة خمسين دقيقة » ، فلا يصح أن تقول (في خمسين) ، وتقول : « سرت خمسة أميال » ، ولا يصح في خمسة ميال . ونحو أن تقول : « فعلت هذا سبعة أيام » ، و « فعلت هذا في سبعة أيام » ، فانّ معنى الجملة الأولى اني كررت الفعل سبعة أيام ، ومعنى الثانية أنه استغرق فعله سبعة أيام . ونحو قوله تعالى : [يُسَبِّحُون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرُونَ] – الأنبياء ٢٠ وقوله : [فانْ استكبروا فالّذين عند ربكَ يُسبِّحُون له بالليل والنّهار وهم لا يسأمون] – فصلت ٣٨ . فالأولى معناها يسبحون الأبد لا ينقطعون ولا يفترون ، والثانية معناها أنهم يسبّحون في هذين الوقتين ، كما تقول : « أنام في الليل والنّهار » ، أي : في هذين الوقتين ، وأدرّس في الليل والنهار ، أي : في هذين الوقتين ، وليس التدريس مستمراً لا يفتر ، بخلاف قولك أدرّس الليلَ والنّهار فان معناه الاستمرار ، فان الأول جواب لـ « متى » ، والثانية جواب لـ (كم) ، وما كان جواب (كم) لا يكون العمل فيه الا متصلاً ، بخلاف متى (١٣) .

فليس الظرف اذن ما يتضمن « في » باطّراد فحسب ، فهذا نوع واحد من الظرف ، وانّما الظرف على ثلاثة أقسام فيما أرى :

١ – ما تضمنّ معنى « في » أي ما حلّ فيه الحدث ، وهو نحو « جئت يوم الخميس » ، و « سافرت يوم الجمعة » .

٢ – مادل على مدة أو مقدار زمان الحدث أو مكانه ، وذلك نحو [سَخَّرَها عليهِم سَبْعَ لَيالٍ] – الحاقة ٧ . و [يَوَدُّ أَحَدُهم لو يُعَمَّرُ ألفَ سنةٍ] البقرة ٩٦ ، « سرتُ يومين » ، و « سرت ميلين » ، و « فُسح له مدَّ البَصر » ، و « انتظرني صلاةَ ركعتين » ، أي مقدار زمان ذلك أو مكانه .

(١٣) انظر كتاب سيبويه ١/١١٠ .

٣ – مادل على عدد أزمنة الحدث أو أمكنته ، نحو أن تقول : « فعلت هذا سبعة أيام » ، أي تكرر الحدث في سبعة أيام . فهذا ليس مبيناً لمدة الحدث ، وإنّما هو مبين لعدد أزمنة الحدث ، ونحو « جلست خمسة مجالس » ، أي أي تكرر الحدث في خمسة أمكنة .

والذي ينطبق عليه حَدُّ النحاة ، هو القسم الأول . وأمّا الثاني والثالث ، فلا ينطبق عليهما الحد . ولذا نرى أن الأولى أن يُحَدُّ الظرف : بأنّه « اسم فضلة يدل على زمان أو مكان وقوع الحدث ، أو مقدارهما ، أو عددهما » .

فحد النحاة لا يشمل إلا ثلث المفعول فيه ، وهو القسم الأول . وعند الكوفيين أن ما يكون العمل في جميعه نحو [سخَّرها عليهم سبع ليالٍ] – الحاقة ٧ ، ونحو « جلست خمسين دقيقة » ، ليس ظرفاً ، وانّما هو ينتصب انتصاب المشبه بالمفعول ؛ «لأن الظرف عندهم ما انتصب على تقدير « في » . واذا عم الفعل الظرف ، لم يتقدر عندهم فيه « في » ؛ لأنّ « في » يقتضي عندهم التبعيض . وانّما جعلوه مشبهاً بالمفعول لا مفعولاً به ، لأنهم رأوه ينتصب بعد الأفعال اللازمة . قال أبو حيان : وما ذهبوا اليه باطل ، لأنهم بنوه على أن « في » تقتضي التبعيض ، وانّما هي للوعاء ، قال تعالى : [فأرسلْنا عليهم ريحاً صَرْصَراً في أيامٍ نَحِساتٍ] – فصلت ١٦ ، فأدخل « في » على الأيام . والفعل واقع في جميعها ، بدليل [سَخَّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حُسُوماً] الحاقة ٧ ، وقال : [فترى القومَ فيها صَرْعَى] فأدخل «في» على ضمير الأيام والليالي ، مع أن الرؤية متصلة في جميعها (١٤) » .

ويمكن رد أبي حيان بأن الآية ذكرت الأيام منكَّرة ، والأيام النَّحِسات كثيرة ، وأيام عاد منها ، فتكون للتبعيض .

ويرد الكوفيون بنحو قولنا « بنيت الدار في سبعة أيام » ، وقولنا « فعلت

(١٤) الهمع ١/١٩٨

هذا في ساعتين » ، فانها تفيد الاستغراق لا التبعيض ، ومنه قوله تعالى : [إنَّ رَبَّكُم اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّموات والأرض في ستة أيام ثُمَّ استَوى على العَرْش] – الأعراف ٥٤ .

ونرى أن تسمية هذا الباب بـ « الزمان والمكان » أولى من تسميته بالظرف ، لِما ذكرنا في أول الباب .

وقد يعرض سؤال في هذا المجال ، فيقال : قد نصرح بـ « في » أحيانا ، وقد نسقطها في التعبير الواحد ، نحو « حضر ليلاً » ، و « حضر في ليل » ، فهل هناك من فرق بينهما ؟

وسنجمل طرفاً من الاختلاف بينهما ، وان كنا قد ذكرنا قبل قليل طرفاً من الخلاف بين التصريح بـ « في » وعدمه .

١ – أن « في » تفيد الحلول نصاً وحذفها ليس فيه تنصيص على الحلول ، تقول : هو في السوق ، والزيت في القارورة ، وأكلت في الإناء فجعلت « في » هذه المحالّ ظروفاً لِما فيها . ولو حذفتها ، لم يفهم المعنى ، فهي تجعل مالا يصلح أن يكون ظرفا اصطلاحاً صالحاً للظرفية .
ونحوه أن تقول : « نحن في وقت طيب » ، و « نحن في زمن كله خير » ، ولا يصح إسقاطها ، فلا يصح ان تقول : « نحن وقتاً طيباً ، وزمناً كله خير » ؛ لأنه ليس فيه تنصيص على الحلول .

٢ – قد يفيد ذكرها استمرار الحدث طَوال الزمن المذكور ، بخلاف حذفها نحو قولنا « فعلت هذا في سبعة أيام » ، و « فعلت هذا سبعة أيام » . فان ذكرها أفاد حلول الحدث في هذه الأزمنة ، أي استغرق الحدث سبعة أيام . وأما حذفها ، فليس فيه هذا المعنى ،بل المعنى أن الحدث تكرر في سبعة أيام .

٣ – قد يفيد ذكرها النص على توقيت الحدث . وأما عدم الذكر ، فقد

يفيد استمرار الحدث وعدم انقطاعه ، فالأول جواب « متى » ، والثاني جواب « كم » .

وايضاح ذلك أن الظرف على ضربين : مايصلح أن يكون جوابا لكم ، وما يصلح أن يكون جوابا لمتى .

فما كان جواباً لـ (كم) استغرقه الحدث إن أمكن ذلك « كما إذا قيل لك: كم سرت ؟ فقلت : شهراً ، استغرق السير جميع الشهر ليله ونهاره ، الاّ أن تقصد المبالغة والتجوز . وكذا اذا قلت : شهر رمضان ، فان لم يمكن استغراق الجميع استغرق منه ما أمكن ، كما تقول : شهراً ، في جواب : كم صمت ؟ وكم سريت ؟ فالأول يعمّ جميع أيامه ، والثاني جميع لياليه » (١٥) .

وجاء في (الهمع) : « ما صلح أن يقع جواباً لـ « كم » ، ولا يصلح أن يكون جواباً لـ « متى » ـ هو كان موقتاً غير معرف ولا مخصص بصفة ، نحو ثلاثة أيام ويومين ـ فانه يصلح أن يكون جواب « كم سرت ؟ » . فهذا النوع يكون الفعل في جميعه . إمّا تعميماً ، وإمّا تقسيطاً . فاذا قلت : سرت يومين او ثلاثة أيام ـ فالسير واقع في اليومين ـ او في الثلاثة من الأول الى الآخر . وقد يكون في كل واحد من اليومين او الثلاثة ، وان لم يعمّ من أول اليوم الى آخره . ومن التعميم « صمت ثلاثة أيام » ـ ومن التقسيط : « اذنت ثلاثة أيام » ، ومن الصالح لهما « تهجدت ثلاث ليال » ـ ولا يجوز أن يكون الفعل في أحد الايام او الليالي ....

وما صلح أن يقع جواباً لـ « متى » . فان كان اسم شهر غير مضاف اليه لفظ (شهر) ـ فكذلك يكون الفعل واقعاً في جميعه تعميماً او تقسيطاً ، نحو : سرت المَحَرَّم ، وسرت صفر ، يحتمل الأمرين ....

(١٥) الرضى على الكافية ٢٠١/١ .

وان كان غير اسم شهر ، فالعمل مخصوص ببعضه ، نحو « متى قدمت؟» ، فيقال : يوم الجمعة ، فيكون القدوم في بعضه . وكذا إن كان اسم شهر مضافاً اليه لفظ « شهر » ، فانه يجوز أن يكون في بعضه وفي جميعه ، نحو « قدم زيد شهر رمضان » و « صُمت شهر رمضان » .

وكذا اذا كان جواب « متى » الأبد والدهر والليل والنهار مقرونة بالألف واللام ، فانها مثل (رمضان) اذا لم يضف اليه « شهر » يكون للتعميم نحو : سير عليه الليل والنهار والدهر والأبد . ولا يقال : لقيته الليل والنهار ، وأنت تريد لقاءه في ساعة من الساعات ، ولا لقيته الدهر والأبد ، وأنت تريد يوماً فيه . فان قصدت المبالغة ، جاز إطلاقه على غير العام ، نحو « سير عليه الأبد » ، تريد المبالغة مجازاً ، لا تعميم السير في جميع الأبد .

وما سوى ما ذكر من جواب « متى » من أعلام الشهور غير المضاف اليها شهر والأبد ونحوه . وذلك نحو اليوم والليلة ويوم كذا وليلة كذا وأسماء الأيام وأشباه ذلك ، يجوز فيه التعميم والتبعيض إن صلح له . فالأول نحو « قام زيد اليوم » ، والثاني نحو « لقيت زيداً اليوم » ، وتجعلهما نحو : سارَ زيد اليوم » (١٦) .

وجاء في (كتاب سيبويه) : « ومما لا يكون العمل فيه من الظروف الا متصـلاً في الظرف كله ، قولك : سـير عليه الدهر والليل والنهار والأبد . وهذا جواب لقوله : كم سير عليه ؟ اذا جعله ظرفاً ، لأنه يريد في كم سير عليه ؟ فتقول مجيبا له : الليل والنهار والدهر والأبد ، على معنى في الليل والنهار والأبد . ويدلك على أنه لا يجوز ان يجعل العمل فيه في يوم دون الأيام وفي ساعة دون الساعات ، أنك لا تقول : لقيته الدهر والأبد ، وأنت تريد يوماً منه بعينه ، ولا لقيته الليل ، وأنت تريد لقاءه في ساعة دون الساعات ،

(١٦) همع الهوامع ١٤٧/١ .

وكذلك النهار ، الا ان تريد : سير عليه الدهر أجمع ، والليل كله على التكثير ... وانما جاء هذا على جواب «كم» ؛ لأنه حمله على عدة الأيام والليالي »(١٧) .

وأما ما كان جواباً لـ « متى » فالمراد به التوقيت . قال سيبويه : « وأما متى ، فانما تريد بها أن يوقت لك وقتاً ، ولا تريد بها عدداً ، فانما الجواب فيه اليوم . أو يوم كذا ، أو شهر كذا ، أو سنة كذا ، أو الآن ، او حينئذ . وأشباه هذا » (١٨) .

وقال : « هذا باب وقوع الأسماء ظروفا وتصحيح اللفظ على المعنى . فمن ذلك قولك : متى يسار عليه ، وهو يجعله ظرفاً ، فيقول : اليوم أو غداً أو بعد غد . أو يوم الجمعة . وتقول : متى سير عليه ؟ فيقول : أمس وأول أمس ، فيكون ظرفاً ، على أنه كان السير في ساعة دون سائر ساعات اليوم ، أو حين دون سائر أحيان اليوم . ويكون أيضاً على أنه يكون السير في اليوم كله ، لأنك قد تقول : سير عليه في اليوم . ويسار عليه في يوم الجمعة ، والسير كان فيه كله » (١٩) .

فما كان جوابا لـ (متى) أفاد التوقيت . نحو : وصلت الى البيت صباحَ الجمعة . ولا يراد به الاستمرار . أما اذا كان الحدث صالحاً للاستمرار . فهو أمر يعود الى الحدث نفسه . لا الى التوقيت .

والخلاصة أن من الجمل ما يقع جواباً لـ « كم » فقط . نحو قولك : « سرت شهراً » . والمراد به استغراق الحدث ما أمكن . ومنها ما يقع جوابا لـ « متى » فقط . نحو « وصلت يوم الجمعة » أو « في يوم الجمعة » ، ويراد به التوقيت فقط .

---

(١٧) كتاب سيبويه ١١٠/١ – ١١١ وانظر الأصول لابن السراج ٢٢٩/١

(١٨) كتاب سيبويه ١١١/١ .

(١٩) المصدر السابق ١١٠/١ .

ومنها ما يصلح أن يقع جواباً لهما ، نحو قولك « سرت المُحـَرَّم »، و « سرت يومَ الجمعة » . فان قدرتها جواباً لـ « متى » فقد اردت بها ذكر الوقت فقط ، ولا يهمنا تطاَولَ الحدث او انقطع .

وان كان جواباً لـ « كم » ، فالمراد به تعيين مدة السير لا وقته ، وهو هنا استغرق الوقت . فان ذكرت « في » ، فقد نصصت على التوقيت ، نحو « سرت في يوم الجمعة » .

٤ ــ ان ذكرها يفيد عدم تعيين الزمن في قسم من التعبيرات ، وحذفها يفيد التعيين ، وذلك نحو قولك : جئت صباحاً ومساء وليلاً وعشاء ، فان هذا لا يقال الا اذا كان الوقت معيناً ، فتقول : جئت صباحاً ، اذا اردت صباح يومك بعينه ، أو صباح يوم آخر بعينه . فاذا قلت : « خرجت في صباح » كان اليوم غير معين . جاء في (كتاب سيبويه) : « ومثل ذلك صيد عليه صباحاً ومساء وعشية وعشاء ، اذا اردت عشاء يومك ومساء ليلتك ؛ لأنهم لم يستعملوه على هذا المعنى إلاّ ظرفا ... وكذلك سير عليه ليلا ونهارا إذا أردت ليل ليلتك ونهار نهارك » (٢٠)

وجاء في (الأمالي الشَّجَرية) : « القسم الثالث وهو الذي ينصرف ولا يتصرف أسماء أوقات الزموها الظرفية ، فلم يرفعوها ، ولم يجرّوها ، وهي : صباح وعشاء وضحوة وعتمة ، تقول : خرجت عتمة ، وخرج زيد ضحوة وعشاء ، اذا أردت ضحوة يومك او يوم غيره بعينه . وكذلك تريد عتمة ليلتك ، أو ليلة بعينها . فلو رفعت شيئاً من هذا أو خفضته فقلت : سير عليه عتمةٌ أو ضحوة او (خرجت في عتمة) لم يجز لأنهم لم يرفعوه ولم يجرّوه » (٢١) .

٥ ــ ان حذفها قد يفيد اقتران الحدث بالظرف وذكرها يدل على حلول

(٢٠) كتاب سيبويه ١١٥/١ وانظر الأصول لابن السراج ٢٣٠/١ ، المبع ١٩٦/١ .
(٢١) الأمالي الشجرية ٢٥١/٢ .

الحدث في الظرف وذلك نحو قولك (عشنا زمنا طيبا) و (عشنا في زمن طيب) فالأول يدل على اقتران الحدث بالظرف أي هم عاشوا الزمن الطيب، والثاني قد يفيد ذاك وقد يكون لمعنى آخر هو أن الزمن الذي عاشوا فيه كان طيبا وان لم يقترن خصوص عيشهم بالطيب . ونحوه أن تقول : (صمنا في في أيام ضاحكة أياما باكية) فهذا يدل على انه اقترن صومهم بزمن البكاء ولكن عموم الزمن كان ضاحكا . كما تقول : (عشنا في وقت سعيد أياما دامية) فقد اقترن عيشهم بالزمن الدامي وان كان الزمن العام سعيدا .

٦ — قد يكون ذكرها للتنصيص على الظرفية وذلك اذا كان حذفهـا يؤدي الى احتمال المفعولية والظرفية نحو قولك (قد أنسى يوم السفر) فهذا يحتمل أنك تنسى اليوم نفسه فيكون مفعولا به ويحتمل أنه يحصل النسيان عندك في يوم السفر فيكون ظرفا له . فان اردت التنصيص على الظرفية قلت : (قد أنسى في يوم السفر) .

مراجع البحث

١ — الامالي الشجرية لابي السعادات هبة الله بن الشجرى ط ١ — مطبعة دار المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٤٩ هـ .

٢ — حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل — مطبعة دار احياء الكتب العربية .

٣ — حاشية الصبان على شرح الأشموني — دار احياء الكتب العربية .

٤ — حاشية على التصريح للشيخ يس بن زين الدين العليمي — دار احياء الكتب العربية .

٥ — شرح ابن عقيل — دار احياء الكتب العربية .

٦ — شرح الأشموني على الفية ابن مالك — دار احياء الكتب العربية .

٧ — شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري — دار احياء الكتب العربية .

٨ — شرح الرضي على كافية ابن الحاجب .

٩ — شرح المفصل للزمخشري لابن يعيش — الطباعة المنيرية .
١٠ — كتاب الأصول لابن السراج — تحقيق الدكتور عبدالحسين الفتلي .
١١ — كتاب سيبويه مصور على طبعة بولاق (نشر مكتبة المثنى ببغداد) .
١٢ — المقتضب للمبرد تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة — القاهرة ١٣٨٦ هـ .
١٣ — همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي ١٣٢٧ هـ — مطبعة السعادة بمصر .

ما لم يُنشر من كتاب العشرات للقزاز القيرواني المتوفى سنة ٤١٢هـ

الدكتور حاتم صالح الضامن
كلية الآداب ـ جامعة بغـداد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

قبل اربع سنوات وقفت على نسخة مصورة من كتاب العشرات لأبي عبدالله محمد بن جعفر القزاز المتوفى سنة ٤١٢ هـ (*) عن مخطوطه سليم أغا باسلامبول ، وتقع في اربع واربعين ورقة، وتاريخ نسخها ١١١٤ هـ .

وقد تبين لي بعد استنساخ المخطوطة والمضي في تحقيقها أنّها ناقصة الآخر إذ انتهت عند كلمة (الهجر) من حرف الهاء .

ومكثت طيلة هذه السنين أبحث عن نسخ أخرى لهذا الكتاب فوافاني الاستاذ الدكتور حسين محفوظ مشكورا بصورة للكتاب عن نسخة طهران ناقصة الأول تبدأ بمنتصف مادة (الجلد)من باب الجيم وتنتهي بآخر الكتاب . وتقع هذه المخطوطة في ستين ورقة ، في كل صفحة خمسة عشر سطراً، وتاريخ

(*) لم افصل ترجمته لأن الاخوة : الاستاذ المنجي الكعبي والدكتور رمضان عبدالتواب والدكتور يحيى عبدالرؤوف قد اشبعوا الموضـوع بحثا في كتبهم : القزاز القيرواني ـ حياته وآثاره ، تونس ١٩٦٨ .
مقدمة كتاب (ما يجـوز للشـاعر في الضرورة) للقزاز .
مقدمة كتاب (العشرات) : للقزاز عمـان

نسخها ٧٦٠ هـ ، وهي نسخة نفيسة نُسبت غلطاً الى ابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠ هـ .

واشار الميمني في (اقليد الخزانة ٧٦) الى نسخة أخرى في رامبوربالهند فطلبت من الأخ الصديق الدكتور احمد خان أن يصور لي هذه النسخة فوعد بارسالها .

وبينما كنت اعدّ الكتاب للنشر إذا بالأخ الدكتور يحيى عبدالرؤوف جبر من الأردن الشقيق يصدر الكتاب محققاً على نسخة واحدة هي نسخة سليم أغا الناقصة فجاءت نشرته ناقصة إذ سقط منها تتمة الحديث عن مادة (الهجر) وباب الياء برمته وخاتمة الكتاب .

وقد بذل الاستاذ المحقق جهدا كبيراً مشكورا في تحقيق الكتاب ولكنه لم يفطن الى النقص الذي اعتور الكتاب إذ لم يشر الى ذلك في الدراسة التي قدّم بها للكتاب .

ومن اللافت للنظر أنّ الاستاذ المحقق نقل قول الصفدي في الوافي بالوفيات ٢-٣٠٤ عند حديثه عن كتاب العشرات في أثناء ترجمة القزاز :

(.. وصنّف كتاب العشرات في اللغة ، ذكر اللفظة ومعانيها المترادفة ، ويزيد بعضها على العشرة ، وقال في آخره : وعقيبها أجهز كتاب المثات) .

وعقّب الاستاذ المحقق على هذه العبارة قائلا :

إنّ هذه العبارة لم ترد في كتاب العشرات الذي بين أيدينا .

أقول : كان على المحقق أن يقف عند قول الصفدي إذ فيه اشارة صريحة الى نقص الكتاب .

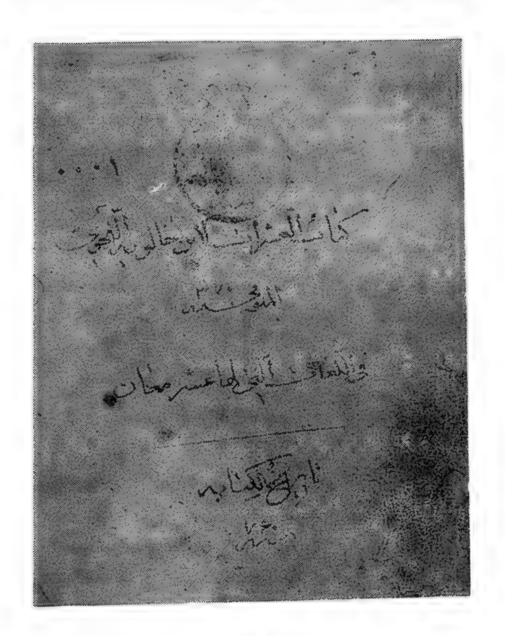
ورغبة في اطلاع العلماء على هذا النقص بادرت بنشره للافادة منه لحين صدور الطبعة التامة للكتاب .

وقد ارفقت بنشرتي هذه صورا من نسخة طهران ونسخة سليم أغا .

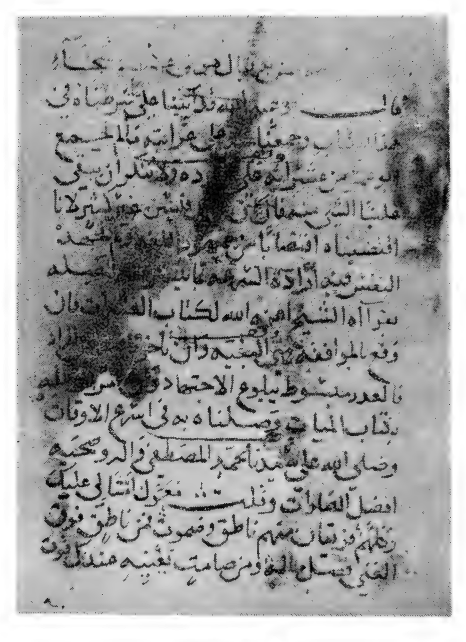
وأخيرا ارجو ان اكون بهذا الجهد قد أسديت الى العلم والعلماء خيراً ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله .



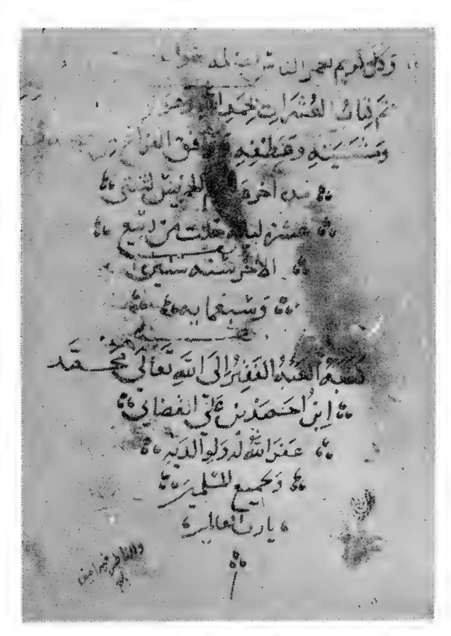
صفحة الغلاف



صفحة العنوان



الصفحة قبل الاخيرة



[illegible]

تم كتاب العشرات بحمد الله [illegible]

[illegible]

[illegible]

عشرة ليلة خلت من ربيع

الآخر سنة ستين

وسبعمائة

كتبه العبد الفقير إلى الله تعالى محمد

ابن احمد بن علي [illegible]

غفر الله له ولوالديه

ولجميع المسلمين

يا رب العالمين

الصفحة الاخيرة



الصفحة قبل الاخيرة من نسخة سليم اغا



الصفحة الاخيرة من نسخة سليم اغا

والهجر: الهجير (١) ، ومنه قوله (للبيد بن ربيعة) :

بسيط

٣٠٤ - راحَ القطينُ بِهَجْرٍ بعدَما ابْتَكَرُوا
فما تُواصِلُهُ سَلْمى ولا تَذَرُ (٢)

والهجر: تركُ الجماع للمرأة ، من قوله جلَّ وعَزَّ « واهجروهُنَّ في المَضاجِعِ » (٣) .

والهجر: ربط البعير بالهجار، وهو حبل يُشَدُّ في رجله (٤) .

وهذا كبش هَجْرٌ ، و بعيرٌ هَجْر ، وناقة هَجْر (٥) . /

---

١) الهجير والهاجرة : نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر ، أو من عند زوالها إلى العصر . التاج .

٢) ديوان لبيد (ط الكويت) ص ٥٨ ، وهو مطلع القصيدة التاسعة . وانظر له اللسان والتاج (هجر) وكتاب الأفعال ٥٣/٣ . قال الزبيدي : قرن الهجر بالابتكار ، والرواح عندهم : الذهاب والمضي ، نقلا عن التهذيب ٤٤/٦ حيث ورد صدر البيت .

٣) سورة النساء ـ الآية ٣٤ .

٤) يشد في رُسْغ رجل البعير ثم يشد إلى حَقْوة إن كان عريانا ، وإن كان مرحولا شُدَّ إلى الحَقَب .

٥) كبش هجر : حسن كريم جيد . يقال : جمل هجر ، وكبش هجر ، أي : حسن كريم . التاج . وأهجرت الناقة في الشحم والسير : فاقت . وأهجر الشيء : أفرط طولاً . الأفعال ١٣٣/١ وهذا أهجر من هذا : أطول وأحسن . المجالس ٤٥٧/٢ .

الصفحة الاخيرة من المطبوع

[بقية باب هـ]

. . . .

إذا كانَ حسناً (١) .

ويقولون : عدا هَجْراً ومَهْجَراً ، أي عدا عَدْواً شديداً (٢).

باب ي

اليَدُ من الإنسانِ وغيرِهِ معروفةٌ .

وأعطاهُ الشيءَ عن ظَهْرِ يدٍ ، أي ابتداء (٣) .

ويَدُ القوسِ : سِيَتُها العُليا .

ويَدُ الدَّهْرِ : مُدَّةُ زمانه

ويَدُ المالِكِ : مِلْكُهُ . تقولُ : هذه الضَيْعَةُ في يَدِ فُلانٍ ، أي في مِلْكِه .

ويَدُ الشيءِ : أمامَهُ .

وهم يقولون : تَهيجُ الرَّهْجُ (٤) بينَ يدي الغَيْثِ ، أي أمَامهُ .

ويهيجُ السِّباب (٥) بين يدي القتال .

واليَدُ : النِّعْمَةُ . ومنه قول الأعشى (٦) :

متى ما تُناخي عندَ بابِ ابنِ هاشمٍ
تُرِيحي وتَلْقَيْ مِن فَواضِلِهِ يدا

ويقولون : هذه يَدِي لكَ بكذا . يريدون : أنا كَفيلٌ بِهِ .

---

(١) تتمة الكلام على مادة (الهجر) وقبله : وهذا كبشٌ هَجْرٌ ، وبعيرٌ هَجْرٌ ، وناقةٌ هَجْرٌ .....

(٢) ينظر : اللسان والتاج (هجر) .

(٣) يعني تفضلاً ليس من بيع ولا قرض ولا مكافأة .

(٤) في الأصل : الريح . والصواب ما أثبتنا . والرهج : الغبار . (اللسان والتاج : يدي) .

(٥) في الأصل : الشباب . والصواب ما أثبتنا . (اللسان والتاج : يدي) .

(٦) ديوانه ١٣٥ (مصر) . وفي الصبح المنير ١٠٧ : من فواضله ندا . ولا شاهد فيه على هذه الرواية .

ويقولون : أَعْطَى يَدَهُ ، إذا كانَ أَبِيّاً فانقادَ (٧) .

باب

اليَسَرُ : القومُ الذينَ يتقامرونَ على الجَزُورِ ، واحِدُهم : ياسِرٌ ، كما تقولُ : غائِبٌ .

ويُقالُ للضارِبِ بالقِداحِ : يَسَرٌ (٨) .

ورجلٌ يَسَرٌ : إذا كانَ سَهْلاً لَيِّناً . ومنه قولُ الراجزِ (٩) :

إنِّي على تَحَفُّظِي ونَزْرِي
أَعْسَرُ إنْ مارَسْتَني بعُسْرِ
ويَسَرٌ لِمَنْ أرادَ يُسْرِي

ويقولون : هو أَعْسَرُيَسَرٌ ، إذا كان يعملُ بكِلتا يَدَيْهِ .

واليَسِرُ : الرجلُ السَّخِيُّ الذي إذا . . . . (١٠) القوم أتَى لليسير.

واليَسَرَةَ : نمو الألبان .

واليَسَرات : القوائمُ ، والواحدةُ: يَسَرَةٌ . ومنه قول كَعْب بن زُهَيْر (١١) :

تهوي على يَسَراتٍ وهي لاهِيَةٌ
ذوابِلٌ وَقْعُها بالأرضِ تَحْليلُ

---

(٧) ينظر عن معاني اليد : المنجد في اللغة ٤٦ ـ ٤٧ ، اللسان والتاج (يدي) .

(٨) ينظر : الميسر والقِداح ٣٠ ـ ٣١ .

(٩) بلا عزو في أساس البلاغة واللسان والتاج (يسر) .

(١٠) مكان النقاط كلمة غير مقروءة .

(١١) ديوانه ١٣ . وروايته :
تخدي ...... وهي لاحقة   ذوابل وقعهن الأرض .....

واليَسَرَةُ : وَسْمٌ بالفَخِذِ ، ومنه قولُ ابن مُقْبِل (١٢) :

على ذاتِ أَيْسارٍ كأنَّ ضُلوعَها
وأَلواحَها العُليا السَّقيفُ المُشَبَّحُ

قالوا : أَيْسار : سمات . وقيل : أَيْسار قوائم ليِّنة ، الواحدة : يَسَرَةٌ .

واليَسَرَةُ : فُرْجَةُ مابين أَسْرار الرّاحةِ يُتَيَمَّنُ به ، يُقالُ : هو من علاماتِ السَّخاء (١٣) .

قال أبو عبد الله (١٤) :

قد أَتَينا على ما شرطناه في هذا الكتاب ، وجمعنا منه على غرابته ما لم يجمع أبو عُمَرَ (١٥) من عشراتِه على وجوده ، ولا ننكر أنْ يبقى علينا الشيء منه ، فإنْ كانَ ذلكَ فيَسَرَةٌ غير كثير ، لأنّا اقتضبناهُ اقتضاباً من جمهورِ اللغة ، ولم نجهد النفسَ فيه إرادةَ السرعةِ بما تيسَّرَ لنصلهُ بقراءةِ الشيخ ، أعزّهُ اللهُ ، لكتابِ العشرات ، فإنْ وقعَ بالموافقةِ فهي البُغْيَةُ ، وإنْ تأخرنا فيه عن المُراد فالعُذْرُ مبسوطٌ ببلوغِ الاجتهادِ ، وإنْ أَمَرَ بوَصْلِه بكتابِ المثاتِ وصلناهُ به في أسرعِ الأوقاتِ .

وصلّى اللهُ على سيِّدنا محمد المصطفى وآله وصحبه أفضل الصلوات .

وقلتُ :

مُعَوَّلُ أمثالي عليكَ وكُلُّهُمْ
فريقانِ منهم ناطِقٌ وصَموتُ

---

(١٢) ديوانه ٥٢ . وفيه : ذات اسآد . ولا شاهد فيه على هذه الرواية . والاسآد : الدأب على السير . والمشبح : المعرّض .

(١٣) ينظر : اللسان والتاج (يسر) .

(١٤) هو المؤلف .

(١٥) أبو عمر الزاهد محمد بن عبدالواحد ، ت ٣٤٥هـ . (طبقات النحويين واللغويين ٢٠٩ ، معجم الأدباء ٢٢٦/١٨) . وكتابه العشرات مطبوع .

فمِنْ ناطقٍ فوقَ الغِنَى فَضْلُ مالِهِ
ومِن صامتٍ يُغنيهِ عندَكَ قُوتُ
وكُلُّ كريمٍ يغمرُ الناسَ فَضْلُهُ
سواء لَدَيْهِ مَنْطِقٌ وسكوتُ

تَمَّ كتابُ العشرات بحمدِ اللهِ وعونهِ وتوفيقه ولُطْفِهِ ومشيئتِهِ وعطفِهِ .

ووافق الفراغُ من نسخِهِ في مُدَّةٍ آخرها يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ستين وسبعمائة .

كتبهُ العبدُ الفقيرُ الى الله تعالى محمد بن أحمد بن علي القضائي غَفَرَ الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ياربَّ العالمين .

مصــادر البحث ومراجعه

– أساس البلاغة : الزمخشري ، محمود بن عمر ، ت ٥٣٨ هـ ، القاهرة ١٩٥٣ .
– اقليد الخزانة : الميمني ، عبد العزيز ، ت ١٩٧٨ ، لاهور ١٩٢٧ .
– تاج العروس : الزبيدي ، محمد مرتضى ، ت ١٢٠٥ هـ ، مط الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ .
– ديوان الأعشى (الصبح المنير) : تح جابر ، لندن ١٩٢٨ ، وطبعة مصر ١٩٥٠ ، تح محمد محمد حسين .
– ديوان كعب بن زهير : طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ .
– ديوان ابن مقبل : تح د . عزة حسن ، دمشق ١٩٦٢ .
– طبقات النحويين واللغويين : أبو بكر الزبيدي ، محمد بن الحسن ، ت ٣٧٩ هـ ، تح أبي الفضل . دار المعارف بمصر ١٩٧٣ .
– العشرات : القزاز ، محمد بن جعفر ، ت ٤١٢ هـ ، تحدد . يحيى عبد الرؤوف ، عمان ١٩٨٤ .
– لسان العرب : ابن منظور ، محمد بن مكرم ، ت ٧١١ هـ ، بيروت ١٩٦٨ .
– معجم الادباء : ياقوت الحموي ، ت ٦٢٦ هـ ، مط دار المأمون بمصر ١٩٣٦ .
– المنجد في اللغة : كراع النمل ، علي بن الحسن الهنائي ، ت ٣١٠ هـ ، تحدد . أحمد مختار عمر وضاحي عبد الباقي ، القاهرة ١٩٧٦ .
– الميسر والقداح : ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم ، ت ٢٧٦ هـ ، نشر محب الدين الخطيب ، مط السلفية ، القاهرة ١٣٨٥ هـ .
– الوافي بالوفيات : الصفدي ، خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤ هـ ، منشورات المعهد الألماني ببيروت ١٩٣١ .

نحو المعـــاني

الدكتور احمد مطلوب

عضـو المجمع

عرفت الدكتور احمد عبدالستار الجواري استاذاً ومؤلفا فقد درست عليه مادتي : منهج البحث الادبي ، والكتاب القديم قبل اكثر من ثلاثين عاما وكان في المادتين بحرا زخرا ذا منهج علمي في البحث وذوق رفيع في الادب ، وعلم غزير في اللغة والنحو . وكان اول كتاب اصدره « الحب العذري — نشأته وتطوره » ثم «الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري » وكتبت عنه مقالة في جريدة اليقظة عام ١٩٥٦ م . ومال الى دراسة اللغة والنحو بعد ان وجد المنهج الكلامي يطغى على تعليم العربية فأصدر في عام ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢م. كتاب « نحو التيسير » وكتبت عنه مقالة في مجلة « المعلم الجديد » سنة ١٩٦٣ وتلقى ملاحظاتي برحابة صدر وقبول حسن وهو الاستاذ الكبير . وشرفني وأنا في ديار الغربة بكتابيه « نحو القرآن » و « نحو الفعل » اللذين اصدرهما المجمع العلمي العراقي عام ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م فوجدت فيهما علما غزيرا ، ونظرات ثاقبة تدل على غوصه على المعاني الدقيقة . ووقوفه عند الاساليب البليغة . وأخذه بأساليب البحث العلمي ، والاعتماد على القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والكلام البليغ في استخلاص القواعد والاصول . وسار في سبيله التي رأى فيها اصلاح الدراسات اللغوية وإعادة الحياة الى النحو الذي

سلبته الكتب المتأخرة رونقه ورواءه فأصدر له المجمع العلمي العراقي عام ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م . كتابه الجديد « نحو المعاني » الذي قال عنه : « هذا بحث دار في الذهن وشغل به الفكر منذ امد بعيد وظل يتهيّبه ، ويرتدّ عن اقتحام ميدانه ، ويعرض لاطراف منه ، ويتحامى عن خوض عبابه زمنا طويلا » وحدّد هدفه بقوله : « وليس مما يقصد اليه في هذه الاسطر تنويه بجهد او ادلال بمجهود . وانما يراد بها لفت انظار الباحثين الى خطورة المسائل التي عرض لها هذا البحث المتواضع ، والفزع الى انصاف القارىء الباحث في اغتفار الزلة واحتمال السقطة والهفوة ، والطماح الى النقد الذي يُقوِّم المعوجّ ، ويسدد الناشز ، ويعين على درك الحقيقة وقصد الصواب » .

ويقوم الكتاب على اساس اغفلته كتب النحو المتأخرة وهو العناية بمعاني النحو وما تؤديه الصيغ من معانٍ يقصدها المتحدث او الكاتب ، وقد اوضح الدكتور الجواري هذا الاساس في مقدمة كتابه فقال :

« ان في انتزاع معاني النحو من النحو قضاءً على النحو بالجمود والتحجر واقتطاعا لشطر مهم منه هو الذي يبعث في قواعده رواء وحيوية وقدرة على ممازجة الافكار والاذواق والمشاعر . وان في تجريد معاني النحو واستقلالها بعلم سمي « علم المعاني » ما جعل تلك المعاني تعاني ما تعانيه فنون البلاغة من خلخلة في كيانها وشيء غير قليل من الفجاجة وهلهلة النسج احيانا حتى جعل ذلك بعض مؤرخي علوم العربية يصفون البلاغة بأنها العام الذي لم ينضج ولم يحترق .

ان علوم العربية بمجموعها أشبه بجسم الانسان ولا يجوز ان تقطع اجزاؤه فتدرس مستقلا بعضها عن بعض ومنفصلا بعضها عن بعض اذ دم الحياة الذي يغذيها ويحييها ويبعث فيها النماء مصدره واحد ووظيفته تكاد تكون واحدة في كل جزء . اما التجزئة اذا قضى بها البحث العلمي وضروراته

فلابد ان تراعي الصلة بين الاجزاء وان تبقي النظرة الشاملة الى علاقات الاجزاء بعضها ببعض نصب عين الباحث . وقد تبين بعد معاودة النظر في مسائل علم المعاني انها بغير اسسها النحوية مسائل قلقة لانكاد تثبت او تستقر ، وانما يعيدها الى موضعها من علم العربية أن تعود الى أصولها في النحو فيكون ذلك خيراً لها وللنحو على العموم فتتضح صورها . وتستبين معالمها ، ويتلاقى في درسها الذوق والادراك ، ويكون فقه العربية مجمعا لاداة درس العربية فنا للتعبير قائما على اساس متين » . وهذا ما دعا اليه عبدالقاهر الجرجاني حينما وجد الناس يزهدون في دراسة النحو والوقوف على معانيه ، قال : « وأما النحو فظنته الطائفة القاصرة ضربا من التكلف ، وبابا من التعسف ، وشيئا لا يستند الى أصل ولا يعتمد على عقل ، وأن مازاد منه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك مما تجده في المبادىء هو فضل لا يجدي نفعا ولا تحصل منه على فائدة ، وضربوا له المثل بالملح – كما عرفت – الى أشباه هذه الظنون في القبيلين . وآراء لو علموا مغبتها وما تعود اليه لتعوذوا بالله منها ولأنفسهم من الرضا بها . ذلك لانهم بايثارهم الجهل بذلك على العلم في معنى الصادّ عن سبيل الله ، والمبتغي اطفاء نور الله تعالى » . وكان كتابه « دلائل الاعجاز » من اروع كتب التراث التي التفتت الى معاني النحو وتبيان رسومها ومعالمها . وهو ما أشار اليه الاستاذ ابراهيم مصطفى في كتابه « إحياء النحو » ولم يقف عنده طويلا . وما أشرتُ اليه في بعض دراساتي ولاسيما مقالة « رأي في البلاغة العربية » التي نشرت سنة ١٩٦٢ م في الجـــزء الاول من « مجلة الكتاب » التي كانت جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين تصدرها في بغداد . وكتاب « نحو المعاني » خطوة كبيرة في هذا المجال لانه فصّل القول فيما أشار اليه بعض المعاصرين ووقف عنده القدماء كعبدالقاهر الجرجاني الذي اهتم بالنظم وقال : إنه توخّي معاني النحو . وقد جاء في مقدمة وتمهيد وبابين ، اما المقدمة فهي ايضاح لاهمية الموضوع وخطورته ، واما التمهيد فهو في مصطلح

« نحو المعاني » الذي لم يستعمل تلاعباً بالالفاظ او تفنناً في التعبير وانما جاء احياءً لمصطلح « معاني النحو » وتعبيراً عما يسعى اليه المخلصون في دراساتهم اللغوية . واما الباب الاول فهو النحو ومعانيه ، وقد ضم اربعة فصول هي : النحو ونظم الكلام ، ونظم الكلام ، ومعاني الاعراب ، ومعنى البناء ، وهذه الفصول تقرير للاسس التي انطلق منها المؤلف . وأما الباب الثاني فهو صور التركيب وأحوال الاسناد ، وقد جاء في سبعة فصول هي : الحذف والذكر ، وحذف الحرف ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، وأحوال الاسناد وضروب الجملة ، والجملة الاخبارية والجملة الانشائية والجملة الشرطية ، والانشاء وأقسامه ، والايجاز والاطناب والمساواة . وهذه الفصول هي جوهر القضية التي عني بها الدكتور الجواري وهي ما أطلق عليه عبدالقاهر اسم « معاني النحو » وسماه البلاغيون المتأخرون كالسكاكي والقزويني وشراح التلخيص « علم المعاني » ، إنّ إعادة هذه الفصول الى النحو تكسبه رواءً وتمدّه بحياة افتقدها يوم اهتم المتأخرون بالاعراب والبناء ، والعلل الثواني والثوالث ، وأهملوا ما وراء ذلك من معانٍ يقصدها المتحدث او الكتاب . لقد حوت كتب النحو والبلاغة كثيرا من جزئيات هذه الفصول ولكنها ضاعت في غمرة التقعيد والتعقيد ، والاهتمام بالاعراب والبناء ، وعلى الرغم من أن كتاب « دلائل الاعجاز » طبع منذ مطلع القرن العشرين بعناية الامام محمد عبده فأنه لم يجد من ينتفع به كثيرا ويعيد الحياة الى الدرس النحوي إلاّ ما كان من اشارات عابرة لا ترسم منهجا ولا تعرض مادة ولا تحدد هدفا .

وشاء الله أن ينهض بهذه المهمة استاذ جليل أحب لغته فسعى الى إعادة اشراقتها الاولى وإضاءة مناهج بحثها بما يرفدها ويجلوها في احسن صورة واروع بيان . إنّ كتاب «نحو المعاني» لون من ألوان الدرس اللغوي الحديث استند الى القديم واستخلص أنفع مافيه واعتمد على القرآن الكريم وأخذ من الكلام البليغ أبدع ما فيه . وقد استطاع مؤلفه ان يحقق ما دعا اليه في كتبه السابقة

من عناية بالنحو والاهتمام بالاساليب ووقف على معاني النحو التي هي اهم ما يسعى اليه الكلام الرائع البليغ ، وفي الكتاب ايضاح لآداء السلف الصالح ومناقشة لها ، وفيه آراء للمؤلف لم ينطق بها الا بعد ممارسة طويلة للتدريس ، ومراجعة واسعة للتراث ، وتذوق رفيع للنصوص ، وادراك عميق للمعاني وبذلك جاء « نحو المعاني » وثيقة صادقة تبشر بالخير العميم للغة الكريمة التي حفظها كتاب الله الخالد وصانتها الامة قرونا . وليس من السهل عرض كل ما في الكتاب من آراء ترفد الدرس النحوي وتعيد الى اللغة رواءها . ومن ذلك رأيه في نظم الكلام الذي ينبغي ان يقوم على رعاية معاني النحو،ومعنى الابتداء والاخبار ، ومعاني النحو ومقتضى الحال ، ومعاني الاعراب ، قال : « الاعراب ومعاني الاعراب شطر معاني النحو بل هو شطرها الاكبر وهو الذي غلب على النحو او غلب عليه واستأثر بأهم ابوابه وفصوله ، ذلك لانه هو الذي يكشف عن مواقع الالفاظ في التراكيب ويدل عليها دلالة محسوسة مشهودة في الاعم الاغلب ، أما الشطر الاخر من معاني النحو فهو الذي خرج من أبواب النحو او اخرج منها ، وهو جدير بأن يرد الى أصله وأن يتبوأ مكانه من ذلك الاصل ، ذلك ما يعرف بأحوال الاسناد وصور التركيب او صور التراكيب » . ومن آرائه اهتمامه بالتذوق الذي يتأبى على التعليل بالقواعد المقررة القائمة على المنطق ، وهو ما أشار اليه عبدالقاهر الجرجاني في « دلائل الاعجاز » عند كلامه على الحذف فقال : « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الامر ، شبيه بالسحر ، فأنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الافادة ازيد للافادة ، وتجدك أنطق ما تكون اذا لم تنطق ، وأتم ماتكون بيانا اذا لم تبن . وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر » . ومن آرائه القول في الحذف في التنازع وحذف « أن» المصدرية ، والفصل والوصل ، وأقسام الجملة ، والاهتمام بجملة الشرط التي « تستحق أن تعد قسماً قائما بذاته بين الجمل ، لان في طبيعة صيغتها وفي

أداء معناها ما يميزها عن جملتي الخبر والانشاء ، وعن الجملتين الاسمية والفعلية كذلك . وهي في اللغات الحديثة صيغة مستقلة يصاغ لها الفعل على هيئة معنية ، وهي تنفرد بأحكام خاصة تختلف بها عن صيغ الازمنة وفروعها وعن صيغة الطلب » . ومن ذلك القول في أقسام الخبر وتسمية الجملة الخبرية اخبارية لتقابل الجملة الانشائية ، والمجاز العقلي الذي « تناوله البلاغيون تناولاً ينأى به عن فنية التعبير وتذوق الاسلوب البليغ ، وأقحموا في تعريفه وبيان حقيقته امورا تتصل بالاعتقاد والعقيدة لاصلة لها قريبة بما يريده المتكلم او يرمي تقريره » . ومن ذلك الفرق بين وجهي القصر ومعنييهما ، والتعجب الذي هو استفهام خرج عن معناه الاصلي ، والالتفات الذي عده البلاغيون المتأخرون من فنون البديع وهم ليسوا في ذلك على صواب ، وقاعدة « متعارف الاوساط » التي وضعها السكاكي لقياس الايجاز والاطناب ، والمساواة التي لا تعد من الكلام البليغ لان المراد بها « لايزيد على قضاء حاجة وسد خلل ، ولس هو مما يتوسل بالوسائل الفنية التي تجعله ذا تأثير بالغ فيمن يلقى اليه » .

وليست هذه الاراء كل ما في الكتاب فهناك الكثير مما جاء به المؤلف معززاً بكلام الله تعالى وكلام العرب البلغاء ، وهذا يدل على رؤية دقيقة ، وفحص دائم لكتب التراث ، وتأمل عميق فيها ، ولولا ذلك لجاء الكتاب كغيره عرضاً لما استقر ، أو تلخيصاً لما شاع . ومن هنا تأتي اهميته في هذه المرحلة التي تنادى فيها المخلصون الى العناية باللغة العربية ، واصدار التشريعات للحفاظ عليها وتطويرها لتستوعب متطلبات الحياة في هذا العصر الذي كثرت فيه المعارف والعلوم وتشعبت ، وظهرت دعوات الى تطبيق الاراء الغريبة او اهمال قواعد اللغة العربية واصولها وتجنب الخوض في خصائصها ومعاني تراكيبها . وقد يجد الباحث في كتاب « نحو المعاني » ما يدعو الى التأمل او المناقشة ، وهذه ميزة الكتاب الجيد ، فهو عرض وتوجيه وإثارة ، ولم تفت المؤلف هذه الاهداف فقال في الخاتمة : « ان الذي قصد اليه هذا البحث

ووجّه اليه النظر ان علم العربية ـ النحو ـ ليس محض اشكال ومظاهر وعلامات يعرف بها معنى الكلام في أبسط صورة ، وأقرب هيئة وأدنى منال ، وانما لعلم العربية فوق تلك العلامات وقواعدها طريقة في اداء المعنى واضحا مؤثرا مفيدا الفائدة التي يحسن السكوت عليها كما قال بذلك علماء العربية ، الفائدة بكل ما يقصد اليه في التعبير من افادة واشارة وامتاع » . وقال : « ان البحث في هذا المجال قد زاد في قناعة الباحث ان علوم البلاغة لم تبلغ من النضج ما بلغته علوم العربية الاخرى ولاسيما النحو ، ولذلك فهي جديرة خليقة بأن تخدم مزيدا من الخدمة ، خدمة اساسها الاستناد الى قواعد اللغة بحيث يقام بناؤها على اساس متين راسخ ثم يكون الذوق الادبي والحس الفني الذي يستمد مادته من تدارس الكلام البليغ ، وأساليبه البديعة هو المادة التي تقام عليها قواعد علوم البلاغة . وان من اهم ما يمكن أن يستثمر من مثل هذا البحث ان قضايا النقد الادبي ينبغي ان توصل بعلوم البلاغة من حيث دراسة الاساليب وتنوعها وانسجامها مع الموضوعات والافكار في الوانها وطرق ادائها والتعبير عنهـــا . ومن حيث أثرها في نفوس من يتلقون النتـاج الادبي ويتذوقونه . وحينئذ لا يعود النقد الادبي في جملة قضاياه كلاما كقبض الريح لا يستقر ولا يتماسك ، او اقتباسا من آداب الامم الاخرى وان يكن الاتصال بها مما ينبغي أن لا يغفل جانبه او تهمل العناية به ولكن على شرط أن تكون الخصائص الاصيلة هي موضع النظر ومحل العناية والاهتمام » . وما أصدق هذا الكلام فهو تشخيص لحالة النقد الادبي في هـــذه الايام . اذ أصبح كلاما لا يستند الى اساس من اللغة العربية وخصائصها . ولا الى تحليل يكشف مزايا النص ويقربه الى المتلقين . وعلة ذلك ابتعاد النقاد عن اصول اللغة العربية وخصائصها وأساليبها . واهمال التحليل اللغوي المتمثل في معاني النحو التي اهتم بها الاوائل . ولعـــل صـــدور كتاب « نحو المعاني » يدفع النقاد الى الأخذ بأصول اللغة العربية ، ودراسة النص دراسة تحليلية تستمد أصولها من خصائص العربية

ومما بذل القدماء من جهد في ابراز خصائصها وأساليبها الرائعة ، وما أظهر المعاصرون من قدراتها بعد أن قتلوا القديم درسـا وعرفوا ما لدى الغرب من مناهج ، وفي ذلك بناء لنقد عربي السمات ، يقرأه العربي فيقول هذا ما أريده ، ويطلع عليه الاجنبي فلا يقول : « هذه بضاعتنا ردت الينا » . وصفوة القول : ان صدور كتاب « نحو المعاني » في هذه الايام عودة الى نبع التراث الصافي ، ودعوة الى احياء الدرس النحوي ، وتجديد لطرائق بحثه في ضوء خصائص اللغة العربية وما استجد في عالم البحث اللغوي الحديث .

آراءٌ وَأنباءٌ

لقد رزئ المجمع العلمي العراقي في عامه السالف (١٤٠٧ – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٦ – ١٩٨٧) بوفاة خمسة أعلام من أعضائه العاملين . . ذهبوا إلى ربهم جلّ وعلا ، مُشيَّعين بالذكر الحميد والأسى اللاذع ، لما أسلفوه للمجمع وللعلم والبحث من جهد مرموق وأيادٍ بيض لا تُنسى . وهم الأساتذة : د . أحمد ناجي القيسي . وقد توفي في شهر رمضان ١٤٠٧ هـ – أيّار ١٩٨٧ م . ثم د . جواد علي ، وقد توفي يوم السبت ٣ صفر ١٤٠٨ هـ – ٢٦ أيلول ١٩٨٧م ثم د . كامل حسن البصير ، وقد توفي بالسكتة القلبية مساء الخميس ٢٢ تشرين الأول ١٩٨٧ م . ثم د . جابر عزيز الشكري وقد توفّي في ١ كانون الأول ١٩٨٧م . ثم د . أحمد عبدالستار الجواري فخسر المجمع بفقدهم زملاء أعزاء ، تميزوا بالجد والاجتهاد والإنتاج المفيد الممتع . وقد عقد لكل واحد منهم جلسة خاصة ، لتأبينه وعرض سيرته العلميــة وأعماله ومحامده . وقـد أسلفت المجلة كلمات السيـد رئيس المجمع وبعض السـادة الأعضاء العاملين في تأبين د . أحمد ناجي القيسي . وتتـابع في هذا الجزء نشـر كلمات السيد رئيس المجمع ونفر من السـادة الأعضاء العاملين في تأبين الأعضاء الأربعة الراحلين ، سائلة الله العلي القدير أن يتغمدهم برحمتــه ويجزل ثوابهم على ما أسلفــوه من صالح الأعمـــال .

وإنّا لله وإنّا اليه راجعون .

(١)

الدكتور جواد علي

عقد المجمع في تشرين الأول ١٩٨٧ م جلسة خاصة لتأبينه ، افتتحها السيد رئيس المجمع د . صـــالح أحمد العلي . وتلاه الأستاذ محمـــد بهجة الأثري فأفاض في القول في سيرة الفقيد العلمية والعملية والسلوكية ، ثم د . نوري حمودي القيسي بكلمة وقصيدة .

وهذا ماقالوه :

١ ــ كلمة رئيس المجمع الدكتور صالح أحمد العلي :

فقد المجمع العلمي العراقي عضوه العامل الدكتور جواد علي الذي وافاه الأجل المحتوم ظهر السبت ٢٦ ــ ٩ ــ ١٩٨٧ بعد مرض عضال تحمله بصبر وجلد ، وبوفاته خسر البحث العلمي علماً كرس حياته للبحث المتعمق والعمل في كشف المجهول ، وإجلاء الغوامض والإنتاج العلمي الرصين في ميدان التاريخ العربي الغني ، وفقد المجمع ركيزة من دعائمه بما أسهم فيه من أعمال علمية، وما تحلى به من جدية واتزان وحرص على أداء الواجب ، وخلق رضي اتسم بحب الخير والتعاون والإسهام المخلص بكل عمل علمي بنّاء .

ولد الفقيد في الكاظمية ، وأكمل دراسته الابتدائية والثانوية في بغداد ، ثم تابع دراساته العالية بجامعة هامبورغ بألمانيا وحصل على اجازة الدكتوراه ، وعاد الى العراق يتابع البحث ويقوم بالتدريس . وكان من أعضاء المجمع العلمي العراقي عند أول تأسيسه سنة ١٩٤٧ . وتولى أمانته العامة ، فأسهم في تنظيم أسسه وترتيب ادارته بما يؤمن تحقيق أهدافه السامية وفق الأسس المجمعية، ثم كان من أعضاء المجمع العلمي العراقي بعد اعادة تكوينه سنة ١٩٧٩ ، وتابع خلال ذلك دراساته الدقيقة المتعمقة في جوانب من ميادين الحضارة والفكر العربي ، ومن أبرزها دراساته عن موارد تاريخ الطبري ، وموارد كتب المسعودي التي ظلت منذ نشرها في مجلة المجمع مثال الدقة والأصالة والشمول ، ومرجعاً للباحثين .

وركز جهوده العلمية على تاريخ العرب قبل الاسلام ، فاستوعب مصادره ، وما كتب فيه الأقـدمون والمحدثون في العربية وغيرها من اللغـات ، فأحاط بمادتها ، وغربل معلوماتها ، ونسق محتواها ، بعد نقد نفاذ وتحليل عميق ، وعرض ثمار عمله في هذا الميدان بعشر مجلدات ضخمة ، تبوأت مكانتها المتميزة الجديرة بها . وأصبحت المرجع المعتمد الذي يرجع اليه الباحثون . ويستهدي به المختصون . وطغت على كل ما ألف في هذا الميدان ، وحظيت بالإقبال والرواج ، فلم تخل منها مكتبة عامة أو خاصة ، ولم يستغن عنها باحث أو دارس .

وأولى اهتماماً خاصاً باللغة العربية القديمة وبتاريخ اليمن قبل الإسلام ، واستوعب في ذلك النقوش والكتابات القديمة ، وكان من قلائل الأفذاذ المختصين باللغة اليمانية القديمة ، وأعد معجماً للغة السبئية ، إضافةً الى أبحاث مستوعبة عن مختلف جوانب الحضارة اليمانية القديمة ، ولم يثنه المرض المنهك الذي تحمله بجلد وصبر عن متابعة دراساته ونشر أبحاثه فيها الى آخر أيام حياته .

إن لوفاته وقعاً أليماً على إخوانه وزملائه المعجبين بخلقه الرضي وحرصه على الواجب واستقامته ورصانته وحبه للخير . وهي خسارة للبحث العلمي في ميدان التاريخ العربي ، لا يخفف أثرها الا الإنتاج الفني الواسع الذي سيبقى شاهداً على مكانته . ومناراً يخلد اسمه . ويبقي ذكره حياً ومبعثاً للتقدير ، ويضعه بجدارة في عداد من هم أحياء عند ربهم يرزقون .

«كل نفس ذائقة الموت» ، «وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» ، وإنّا لله وإنّا اليه راجعون .

*

٢ ـ كلمة السيد الأستاذ محمد بهجة الأثري عضو المجمع العامل مؤبّناً وباسطاً سيرة الفقيد العلمية والعملية والأخلاقية :

إلى الله أشكو ، لا إلى النّـاس ، أنّـني
أرى الأرضَ تبقى (والأخـلاءُ) تذهَبُ
(أخِـلّايَ !) لو غيرُ الحِمـامِ أصابكم ،
عَـتَبْتُ . ولكنْ ما على الموت مَعْتَبُ[1]

أجل ، « ما على الموت مَعْتَب » .

إنّه قَـدَرُ الأحياء ، وداعيه لأهل الأرض داعٍ ، وسبيلُه غاية كلّ حيّ مَهْـما طال به العُمُر ، لا مَهْرَب له منه ولا مَنْجاة ، ولو سكن الأبراج ، أو سلك نَفَقاً في الأرض ، أو تَعلّق بأسباب السماء !

(كل نفس ذائقة الموت) .

و(كل مَنْ عليها فانٍ) .

لايُبْعِدِ اللهُ إخواناً لنا ذَهَبُوا
أفناهُمُ حَدَثانُ الدَّهْرِ والأَبَدُ
نَمُدُّهم كُلَّ يومٍ من بَقيَّتِنا
ولا يَؤُوبُ إلينا منهُمُ أحَدُ[2]

أجل ، « لايؤوب إلينا منهم أحد » ، والرحلة متواصلة لا تنقطع . . يُمْعِنُ سيرُها وسُراها ، وتأويبُها وإدلاجُها ، في السَّفَر القَصِيّ القَصِيّ الذي لانهايةَ له تُرَى ، ولا أوبَةَ منه لأحد !

شخوص وأشباح . . تطفو على سطح الوجود ، ثم تغوص في لُجَج الفَناء ، كأنّها الطيوف التي تُلِمّ بالنائمين الحالمين ، وتغيب وَشيكاً لاتُمسكها أشراك

(١) للغَطَمّش الضَّبّيّ .
(٢) لم يُعرَف قائل البيتين ، وهما في عيون الاخبار ، وديوان الحماسة ،

الأهداب . وكأن هذه الأشباح والشخوص التي يدركها الموت وتُغيِّبُ في بطن الأرض . لم تُوجَدْ ، ولم يَمُرَّ خيَالها بالكائنات ، وكأنّ الزّمن الذي تقلبت عليها فصوله وآناؤه . وذاقت منه فيها الحلوَ والمرّ — شيء لم يكن . وإنّما للحيّ الساعةُ التي هو فيها . . . هي كلٌ ملكه . . هي كلٌ ملكه ! ثم هي تنقضي غير أن شيئاً واحداً يبقى بعد كل ما جدّ وانقضى وفات، ذلك هو الأحاديث والذِكر .

يفنى الجوهر . ويبقى العرَض الى حين .

و « إنما المرء حديث بعده » . . حديث يُؤْثَرُ عنه . قد يقصر وقد يطول . وقد يحلو وقد يمرّ . . وفاقاً لما صدر عنه في حياته من أقوال وأفعال وآثار . « إنْ خيراً فخيراً وإن شرّاً فشراً » !

وقد ينطوي مع الإنسان (خبَرُه) ساعةَ (مُبْتَدأ) موته ، ولحظة مواراته التراب . فلا يكاد يذكره ذاكر . مِن هَوانِ شأنه !

وقد يموتُ كثيرٌ لانُحِسّهُمُ
كأنّهم من هَوانِ الخَطْبِ ماوُجِدُوا[3]

كهذا الزَّبَد الذي يطفو على وجه الماء . ويذهب جُفاءً .

وآخرون تتعالى بموتهم الزّمازم . وتكون لهم الأحاديث والذكر . ولكن من جنس السِيَر التي ساروا في الحياة !

والسعيدُ السعيدُ مَنْ كُتب له أن يسير السيرة الفاضلة المستقيمة . وآثرَ في أعماله (الآخرة) ، وصلح وأصلح . وأثّلَ الحسَنات . ورفع بها لنفسه بعد موته ذكراً حميداً « والذِكر للإنسان عمرٌ ثان[4] » . بل « إنّ طيبَ الذّكر عمرٌ لايَبيدْ[5] »

---

(٣) لاحمد شوقي .
(٤) لاحمد شوقي .
(٥) لصاحب الكلمة من قصيدة (ملحمة الشهيد) .

إخواني . .

إنني لآسىَ أشدَّ الأسى إذْ أرْمي بطرفي الآنَ الى مقاعد رفاقٍ لنا كِرام . كانوا معنا بأعيانهم ، ففارقونا فراق الأبد . . فلا نرى منهم من أحد، ولا نُحِسّ لهم رِكزاً . فيالهول الفواجع وكآبة الوحشة !

ستةٌ – خلال سبعة أعوام – تَخَرَّمَتْهُم المنون . وتتابعوا واحداً بعد واحد ، مخلّفين في النفوس الأسى والألم . ولولا طِيبُ الذِكر الذي أنشؤوه لأنفسهم ، والحَسَناتُ التي أثّلُوها في عالم العلم والفضيلة ، لَعَزَّ السُّلُوُّ ودام الحَزَن :

فخري . سوسة . طَهَ . موسى . أحمد ناجي . وأخيراً جواد علي . .

لقد فجعنا بوفاة جواد علي قبل عشرة أيام من يومنا هذا ، ويحزُنُنا أننا نفتتح الجلسة الأولى من عامنا المجمعي العتيد ، وهو عنها غائب،ونحن نبتدر تأبينه . وقد كان خليقاً بأن ينال على حسن سيرته في الحياة ومآثره في دنيا البحث الجادّ الرصين النافع المكرُمةَ التي يستحقّها من طيب الأحاديث عنه ، وهو حيّ يسمع مايقال فيه، وإنْ كان كما عرفته زاهداً في طلب الثناء والإطراء، بل في طلب العرَض الفاني من عرَض الدنيا.. إيماناً منه بأنّ الباقيات الصالحات التي يخلّفها الإنسان . هي اللسان الذي يتحدث عنه ويُطْرِيه دواماً ، وهي المكرُماتُ التي استحدثها لنفسه بنفسه ، لا مِنَّةَ لأحدٍ بها عليه .

إن صِلتي بجواد علي ، أو صلة جواد علي بي ، صلة قديمة .. بدأت في صدر شبابي وشبابه على مقاعد الدراسة ، واستمرّت الى مقاعد «المجمع» في خدمة العلم الإنساني وتاريخ العرب والإسلام ، في صفاء دائم وآصرة وُثْقَى . فرضَهما خلوص النيات ، والتجرُّد في مسعاتنا في سبيل إعلاء شأن الأمة والمِلّة والوطن .

بدأ جواد علي مع أخيه وصفي محمد علي الرحلةَ في طلب العلم والاستزادة منه . من مدارس مسقط رأسيهما (الكاظمية) إلى جارتها على الجانب الشرقي من دجلة ؛ (الأعظمية) ، حيث استقبلتهما « كلية الإمام الأعظم » ، وأَشْبَلَتْ

عليهما . فارتضعا منها أفاويقَ من علوم العربية والعلوم الإسلامية . على مستوى الدراسات الثانوية . ثم سما بهما الطموح ، فانتقلا إلى بغداد حيث « الثانوية المركزية » ، وقد كانت يومئذ الثانوية الوحيدة ببغداد ، وكنت حديث عهد بالتدريس فيها : أدرّسُ النحو والصرف والبلاغة وتاريخ الأدب العربي وصناعة الإنشاء ودروس الأخلاق ، وأنا في عنفوان الشباب ، في نحو الثلث الأخير من العقد الثالث من العمر . وأحسب الأخوين النجيبين كانا في مثل سنّي أو قريبين منه . ومثلهما آخرون جاؤونا من « كلية الإمام الأعظم » لينالوا حظّاً جديداً من العلوم الحديثة يؤهّلهم للانتماء الى ما يَصْبُون اليه من الكليات . .

وكان جواد ووصفي من خيرة الطلاب النجباء أدباً وسلوكاً وجدّاً وحسن تلقٍّ واحتفاءٍ بالفهم والحفظ .

أمْضَيا معنا عامين تأهّلا فيهما للانتماء الى « الكليات » .. فانتمى وصفي الى « كلية الطب » ليكون طبيباً . وآثَرَ جواد « دار المعلمين العالية » ليكون مدرساً .

وتابع جواد الدراسة في « دار المعلمين العالية » الى أن حصل على شهادتها . ثـم بُعث في سنـة ١٩٣٣ م الى « جامعـة هامبـرغ » في « ألمانيـة » . وحصل في سنة ١٩٣٩ م على « الدكتوراه » أي « العـالمِيّة » في التاريخ . وكانت أطروحته في «المهديّ المنتظر» باللغة الألمانية . وقد ادّخرها لنفسه ولم ينقلها الى اللغة العربية . وعاد الى بغداد ، وقد اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية . فعهد اليه تدريس التاريخ في « دار المعلمين العالية » . وطفق يكتب وينشر مقالات في التاريخ العربي وفي شؤون أُخَر . ولست أتذكر أنني التقيت به خلال تلك الأعوام . ثم ترامى إليّ — وأنا في معتقل سامراء منقولاً اليه من معتقل الفاو بسبب اعتلال صحتي هناك ، وذلك في أعقاب إخفاق ثورة ١٩٤١م على بريطانية وعودة بريطانية الى إحكام قبضتها على الدولة —: أن « جواداً » قد اعتُقِل ونفي الى معتقل الفاو . غير أنه أدركته العناية ، فأطلق بعد نحو شهرين من

مكثه في المعتقل ، ودام اعتقالي ثلاثة أعوام الى أواخر عام ١٩٤٤ م ، ولم ألْقَ « جواداً » الا في أوائل سنة ١٩٤٧ م في « لجنة التأليف والترجمة والنشر » في « وزارة المعارف » . وقد انتخبت عضواً فيها ، فوجدته يُدير شؤون هذه اللجنة مُسَمّىً « سكرتيراً » ، أي : « أمين السر » ، فاذا هو على عهدي به أيام طلبه العلم ذلك التلميذ الرضيّ الأدب والخلق ، وقد ازداد تواضعاً . ولم تَسْتَخِفّه « الدكتوراه » فيزهو ويتغيّر ، وكذلك الأُصَلاء العقلاء من الناس لايزيدهم الارتقاء في سُلّم العلم الا علماً بأقدار أنفسهم وأقدار الآخرين .

وواصل « جواد » صلته بي ، على قدر متزايد من الاحترام . وواصلت حبي وتقديري له . وما لبثنا في « لجنة التأليف والترجمة والنشر » الا أشهراً معدودات ، إذْ أُلْغِيت اللجنة ، واستحدث بديلها « المجمع العلمي العراقي » في أواخر سنة ١٩٤٧ م ، فكنّا – أنا وجواد – من مؤسسيه العشرة المنتخبين ، وعهدنا اليه « أمانة سره » .

كان «المجمع» مجرد فكرة . أصابت حظاً من التشريع الرسمي،ووضِعت في إطار قانوني،ولم يكن بُدّ من إخراجها الى حيزّ التنفيذ ، وما كان المؤسسون العشرة كلهم مؤهّلين للاضطلاع بهذا الجانب العملي، بحكم أعمارهم المتقدمة واشتغال بعضهم في الإدارة وبعض آخر في السياسة أو الطبابة . فكم كانت أعباء القلة القليلة منهم ثِقالاً ، تتطلب منهم احتمالها والصبر عليها طويلاً ليقيموا كيان هذا «المجمع» بكل متطلباته المادية والمعنوية ، وهي متطلبات مختلفات الصفات والغايات .. منها الإدارة ونظامها ورجالها ، ومنها إنشاء المكتبة الضخمة التي تليق بالمجمع ومطالبه كمّاً ونوعاً ، ومنها إيجاد المطبعة الخاصة به تطبع كتب الأعضاء وغير الأعضاء . ومنها استحداث المجلة التي تذيع دراسات أعضائه وغيرهم من العلماء والباحثين ، ومنها تملك أرض تشاد عليها دار المجمع ، الى أمور أُخَرَ تبتغي كلها مواصلة العمل والدّأب على التنفيذ . فكان « جواد » والقلة في مثل سنه ونشاطه هم محور التأسيس والإنشاء ، بل الأداة الفاعلة في تحقيق هذا المطلب الكبير .

هذا ومُوازنة المجمع المالية السنوية كانت لأوّل أيّام إنشائه خمسة وعشرين ألف دينار ، وما لبثت بعد بضعة أشهر أن خفـّضت فجأة الى ثلاثة عشر ألف دينار ، والمطلب جسيم يقتضي أضعاف ذلك ، ولم يكن بُدٌ من الصبر ومن المراجعات المستمرة لزيادة « الموازنة » التي تيسر الأعمال ، ودام الحال والمطال الى أوائل العهد الجمهوري ، فزيدت عشرة آلاف دينار إن لم تخُنِّي الذاكراة . وما كان حظ العضو العـامل منها ليَسُدَّ أجور ركوبته . ولو كانت المـادة الهدف والغاية ، لارتدّت العزائم ، وخاب المسعى . ولكنه الحب الخالص للعلم ، وإرادةُ أن يعاد الى العراق سالف مجده العظيم ، كانا هما الدافعين وراء تحقيق هذه الغاية النبيلة المقدسة .

وأشهد أن « جواداً » كان جواداً سبوقاً في هذا المضمار ، وكانت له مع القلة القليلة من الأعضاء العاملين اليدُ الباسطة في هذا الشأن ، وهو جلَل . وقد تمت لهم سعادتهم حين أبلغهم جِدّهم ودأبهم المتصل الغايةَ ، ومكنهم إخلاصهم في العمل أن يقيموا – برعاية الدولة وزملائهم – هذا الصرح العلمي – بكل مشخصاته ومقوماته – لأوّل مرة في حاضرة الدنيا العربية القديمة ، وحاضرتها في مستقبلها الزاهر المرجُوّ تحقيقه بعزائم المخلصين الصادقين .

وشيء آخر لجواد يجب أن أذكره الى جانب هذه الأعمال ولا أغفله ، هو أنه أعطى البحث المتخصص حقّه من العناية والإظهار ، فاستطاع خلال تلك المدة التي استغرقت نحو ستة عشر عاماً في التأسيس والإنشاء – أن يؤلف ويطبع بمطبعة المجمع كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » ذا الأجزاء الثمانية الكبار ، وأن يكتب وينشر في مجلة المجمع بحوثاً قيمة ، تصدرتها « موارد تاريخ الطبري » ، و « موارد كتب المسعودي » .

ثم كان ما كان ممّا لست أذكره من عسف الجور ، وهـو يخبط خبْطَ

عشواء .. فنزعت من جواد – وهو في لندن – عضويته المجمعية في أواخر سنة ١٩٦٢ م ، لِنَبأ عنه لم تَتَثَبَّتِ العدالة فيه كما أمر الله ، حتى إذا دالت الأحوال بعد هذه السنة عاد الى بغداد ، وعاود سيرته في تدريس التاريخ في « دار المعلمين العالية » ، ونشط لتجديد كتابة مؤلَّفه « تاريخ العرب قبل الإسلام » على ما سأذكره في موضعه من أخباره . ولكنه ظلّ بعيداً عن « المجمع » ، فلم ينتخب في المجمع الذي أعيد تكوينه في سنة ١٩٦٣ م ، وانتخب في المجمع الموحّد الذي أُلّف في سنة ١٩٧٩ م ، فكان واحداً من الأعضاء العاملين الأربعين الذين أهلتهم الدولة لعضوية هذا المجمع ، فكان أحقّ بها وأهلها .

وكان جواد – بعد طول ما أنفق من العمر في التدريس والبحث والتأليف – قد بقيت عنده صُبابة من القوة ، فاستنجدها ، فأعانته أن يكتب وينشر في مجلة هذا المجمع الجديد بحوثاً تاريخية قيمة ، كان آخرها هذا البحث النفيس « مقوّمات الدولة العربية قبل الإسلام » .. كتبه والعِلل قد اصطلحت على جسمه ، والفناء قد دَبَّ فيه عُلْواً وسُفْلاً على حدّ قول الحَكَمي الحسن بن هانىء ، وذلك قبل بضعة أشهر من فراقه دنياه ، وإنّي لأَعجب كيف تسنّى له أن يكتبه وهو في حاله تلك !

هذا طرف من ذكرياتي عن جواد علي الإنسان العامل . أما جواد علي الإنسان الأخلاقي وسلوكه الاجتماعي وآدابه النفسية ونحوها ، فقد ارتسمت منه في ذهني صُوَر جميلة ، أعُدُّها مثالية ، وأذكر منها هذه السماحة النفسية وسجاحة الخُلُق ودماثة الطبع في غير تكلف ولا تصنع ، وقد وجدته ينظر الحياة بمنظارها ، ويسير على هَدْيها وتسديدها في تصرفه وعلاقته بالناس ، متفتّحاً للخير ، ومترفّعاً على الشرّ والصَّغار والسَّفْساف وهذه العُقَد النفسيّة التي تستفحل في عهود الانتقال والتّحوُّل وتحكُمُ تصرُّفَ الكثيرين من أصحاب العاهات والعصبيات .

وقد وجدته على تعاقب الأيام وتقلُّباتها ثابتاً على هذه النازعة ، ودائم التّحلي بالوّد الصادق لمن خبرهم فودَّهم وأجلَّهُمْ ، لا مماذقاً ولا مرائياً ، فكان لهم الصديق الدائم العهد والإخلاص ، ولم يكن لي ولا لغيري ممن توثقت صلته بهم « صديقَ عين » أو « عبد عَيْن » (أي ما دُمْتَ تراه ، فهو كالصديق لك أو كالعبد لك ، وأمّا بعدَ ذلك فلا) كما كانت العرب تنعت بهما من يظهر لصاحبه من نفسه ما لا يفي به إذا غاب ، ولكن جواداً كان الصديق الذي يفي للصديق حاضراً وغائباً ، مخلصاً كل الإخلاص ، وصادقاً كل الصدق .

ووجدت الكلمة عنده واحدة ، يقولها صريحةً وواضحة ، ويَعْنيها .. غير مُوارب . ولا مُخادع . ولا مُراوغ ، ولا مُخْفٍ في نفسه معنى غير معناها ، لينقلب على عَقِبَيْه من بعدُ ، كما يفعل بعض « الشُّطّار » ، ويَعُدُّون ذلك من الذكاء !

ذلك لأنه إنسان مطبوع على الجد والصدق ، ومن شأن صاحب هذه الخصلة أن يكون حازماً وصارم الإرادة ومؤتَمناً على ما يُوَسّد إليه من عمل . وكذلك كان صاحبنا فيما عهدت من اضطلاعه بالإدارة وصرامته فيها .

ومن هنا كان « الالتزام » عنده خصلة ملازمة له ، فكان يرى الإخلال به عيباً وخيانة ، إن لم يحاسبه عليه أحد فهو يحاسب نفسه ويلزمها الأداء بجدّ وصدق وإخلاص .

فكان يكره نفسه على حضور جلسات المجمع ولجنة التاريخ والحضارة وهو في أشدّ حالات الضعف وفقدان القوة على احتمال أيسر المَشاقّ ، وبين مسكنه في أقصى الكرخ ودار المجمع في أقصى نواحي الرصافة أميال وأميال كان يحمل نفسه على قطعها بالسيارة ذهاباً وإياباً في حَمارّة القيظ وصَبارّة الشتاء ، وهو في غاية من العجز ، وكنت أراه إذْ يهبط من السيارة ، وعيناه زائغتان ،

ورأسه يرتجف ، وجسمه يكاد يتداعى به الى الأرض .. فيقف طويلاً مرتعشاً لا يقدر على الخَطْو معتمداً على عصاه وعلى من يرافقه ساكناً وعيناه الى الأرض كالذاهل عن الوجود من حوله ، ثم بعدَ لأْيٍ يخطو وئيداً ، رُوَيداً رُوَيداً ، الى أن يبلغ السُلَّم ، وهو طويل ذو دورتين ، فما يزال يرتقيه درجةً درجةً ببُطْء وتثاقل ، يقف بعد كل درجة يرتقيها لاهثاً ، حتى يبلغ موضع الاجتماع وحالته من الخَوَر أشدُّ منها عند ترجّله من السيارة .

حالة من « الالتزام » غريبة ونادرة .. ظَلّ مثابراً عليها ، ومواظباً على الحضور من حيث يعذر منه مَنْ يغيب لِأوْهَى الأسباب والعلل ، رعايةً منه للواجب مهما كلفه من جهد وعناء ، الى أن أدركه العجز التام عن الحركة وألزمه الداء العياء فراش الموت في الشهر الأخير من السنة المجمعية ، وظل بعده ثلاثة أشهر ، وهي أشهر عطلة المجمع ، يعاني مايُشبه السَّكَرات من حالات الضَّنَى ، الى أن حانت ساعة منيته ، فأسلم الروح الى بارئها وقابضها ، بعيد أذان الظهيرة من يوم السبت ثالث صفر ١٤٠٨هـ الموافق ٢٦ أيلول ١٩٨٧م .

وأذكر من خصاله هذا التواضعَ الذي صاحبه طوال طلبه العلم، وهو يرتقي سُلَّمَهُ ، فقد ظلّ يَعُدّ نفسه طالباً ، به حاجةٌ دائمة الى السعي الدائب في محاولة الوصول الى الغايات ، وهي وراء قدرات الإنسان ، فلم يتعالم في شيء مما أصاب من حظوظ المعرفة ، ولم ينتفخ في الدعاوي العريضة ، ولم يمد عنقه للظهور ، ولم يزاحم على مكانة . وظلّ على سجيّته وفياً للبحث ومتابعة التحصيل ، ووفياً كلّ الوفيّ لمن علموه .. يستشيرهم ويسائلهم ويعرض على بعضهم ما يكتب ويؤلّف ، كما كان أيام التلمذة ، ليقوّموا له عربيته ، وهو على سلامتها حريص ، وليوافوه بالرأي الأسدّ والنظر الأصح فيما فيما يسترثيهم فيه ، ويتلقى ما يقال له بالترحيب والارتياح ، ويسجّل لمن نفعوه بشيء من علمهم وتوجيههم في مطالع كتبه ما نفعوه به ، لم يُخْفِ لأحدٍ يداً أسدوها اليه ، بل يعلنها في كثير من الأدب والصدق والإكبار .

وقد كان من كرامة نفسه عليه لا يتكلم في علم يرى غيره في الحاضرين من هم أعلم به ، ويعجب ممن يثرثرون في مناسبة وغير مناسبة بما لا يعلمون ، كما كان يعجب ممن يتصفون بالعلم ، ويتخذون لحياتهم وسائل غيره ولا يترفعون .

وجملة القول في جُمّاع أحوال جواد أنه إنسان صاحب جدّ واجتهاد واستقامة ، وترفع وإباء ، وصدق ووفاء ، وهي خصال يحقق مجموعها للإنسان « إنسانيته » ، ويرتفع به إلى حيث قُدّرَ له أن يرتفع اليه ويبلغه من منازل الشرف .

وأما جواد علي ، العالم المؤرخ ، الذي تخصص في كتابة التاريخ وصيّرَه وُكْدَه وهِجّيراه ولم يجاوزه الى غيره ، فانما تتحدّث عنه آثاره ، وهي ميراث ضخم خلفه بعده ، ينتفع به الدارسون والمعنيون بالتاريخ من كل الأجيال ، وهي :

١ — أطروحته في المهدي المنتظر : كتبها باللغة الألمانية ونال بها شهادة « العالمية » من جامعة هامبرغ في ألمانية :

Der Mahdi der Zwölfer — Sethia und seine cetier (Thess : Phfl unizersität Hambrurg, 1939).

وقد استبقاها بلغتها الألمانية ،وادّخرها لنفسه،ولم ينقلها الى اللغة العربية ، فأوصد الباب دون الوصول اليها لتعرُّف ما ضمّنها من بحث ورأي ، فبقيت سراً في ضمير الغيب .

٢ — تاريخ العرب قبل الإسلام : ثمانية أجزاء كبار (نشرها المجمع العلمي العراقي ١٩٥١ — ١٩٦٠) ، وقد جوّد فيه البحث تقصّياً وبسطاً وتحقيقاً ، وبه عرف واشتهر وعدّ في طليعة المؤرخين العرب المعاصرين .

٣ — المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : تسعة أجزاء كبار (طبعت في بيروت) ووضع له ناشره فهارس فنية في مجلد ضخم . جدّد به كتابه « تاريخ

العرب قبل الإسلام » واستدرك ، وزاد ، وفصّل ، وقدّم ، وأخّر . ولم تتسنَّ له تسميته ، فسألني وهو يُطالعني بمسوّداته تباعاً : ماذا يسميه ، وهو في موضوع كتابه الأول ؟ فقلت له من فوري : سَمِّه « المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » . ففعل ، وأعلن ذلك في مقدمة الكتاب .

٤ — تاريخ الصلاة في الإسلام : (بغداد ، ١٩٦١) .

٥ — تاريخ العرب في الإسلام : السيرة النبوية (طبع في بغداد ، ١٩٦١ ، ثم في بيروت قبل نحو عامين) .

وقد قرأت من هذا الكتاب موادَّ مسوَّدةً كثيرة في سيرة الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ولم يتسن له طبع هذا الكتاب .

٤ — أصنام العرب : (طبع في بغداد سنة ١٩٦٧ م) .

٧ — معجم الألفاظ العربية الجنوبية (السبئية) : كتبه موجزاً ، وقرأته كله ، فبدا لي أن أقترح عليه توسيعه والتبسط في شرح موادّه ، وتقصي ما أثبت من هذه الألفاظ في لسان العرب وتاج العروس ، وهو مطلب كبير جدّاً ، فاستسهله ونفّذ ما اقترحت عليه أن يفعل . وقد قرأت كثيراً من موادّه . وذكر لي أنه مثابر على إنجازه ، وأن وزارة الثقافة والإعلام قد وعدته بطبعه .

٨ — مجموعة بحوثه في « موارد تاريخ الطبري » ، و « موارد كتب المسعودي » ، وغيرهما غير قليل ، جوّد كتابتها ، ونشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي ، وهي خليقة بأن تجمع في كتاب مستقل وتنشر .

رحم الله جواد علي ، وأجزل ثوابه .

لقد مضى الى ربه محموداً ومشكوراً . وقد عمل صالحاً ، وعلى الرجال أن يجازوا الأعمال بالأعمال ، فينشروا كتبه المخطوطات ، وأحسب أنني لا أذكّر ناسين ، ولا أُسمع غير سامعين ومبادرين الى الاستجابة ، حفاوةً بالعلم وتقديراً له ، وحظُّ السالفين الذكرُ الحميد ، ونصيب الخالفين الانتفاع بما حرَّروا وحقّقوا وأضافوا إضافات مفيدة وممتعة

٣ ـ كلمة السيد الدكتور نوري حمودي القيسي وقصيدته :

هي سُنّة الله في خلقه . . تمتد رحلة الحياة بالانسان،ليستقر في عالم هو أوفى،ويخلد في حياة هي أنعم وأبقى .

رحلة العمر التي لن نجد فيها إلا الحركة الى نموذج فيه عبرة وحالة فيها اعتبار ، رحلة العمر التي يخلد فيها العمل الصالح ويبقى فيها الجهدُ المحمود ، واليوم يغادرنا عالِم آخر أمضى رحلة الحياة بما ينفع ، وأنهى دوره فيها بما يفيد ، ليدخل في عداد الرجال الكبار ، ويلج التاريخ بما قدم .

واذا كان الشعر أوفى في التعبير كما يقال،فانني أعتقد بأن الألفاظ بما تضُمه من العواطف هي التي تحدد قيمة الكلام ، ولهذا آثرت أن أقول في تأبيني الأستاذ جواد علي ما وجدتُه في نفسي .

فالرحمةُ والغفران له ، والله نسأل العفو ، إنه سميع مجيب .

وسائلةٍ أرّقتها الشجون
ورّوع صوتُ القضا حالَها

وألهبَ وقدُ الحنين الضلوعَ
فقامت تلملم أوصالها

وأضنى النوى كُلّ قلب مشو
قٍ يلوّعه مشفقاً قالَها

وألوى بقيّة أصدائه
يُعيدُ على النفسِ أحوالها

فما عزّه في الشجا سامعٌ
ولا كف عن نوحه والها

ولا أطبقت مُقلةٌ تأتسي
ولا غادرت آفةٌ سالها

تقــــول التي هزهـــا نعيُـــه :
أهــذا الجــوادُ اعتلى آلهـا ؟

أهــذا الــذي جــال في الخافقيــ
ــن يــؤرخ في السفــر أجيالهــا

يلــم بقايــا الحــديث الطــويــل
وينشر بالعــــزّ أفعــالَهـــا

فمــا أتعبتــه خبايــا الزمــان
يبدّدُ بالجهــــد إكـــلالهـــا

فكـــان جواداً على عــــزّه
يــروّض بالصمـــت أحمـالها

وكانت لــه طــوع ما يبتغيــه
بما أضمرتــه وكـــانَ لهـــا

وتلك إرادة رب العبــــاد
وحكمــةُ مــن سَنّ أفعالهـــا

تــودّ الودائــع مـــأمــونــة
فـإمّـا عليهــا وإمّــا لهـــا

هــــو العمر تحسبُ أقدارُه
وما كــان غرّك أدنــى لهـــا

*

(٢)

الدكتور كامل حسن البصير

١ ـ كلمة رئيس المجمع الدكتور صالح أحمد العلي :

فقد المجمع العلمي العراقي عضوه العامل الدكتور كامل حسن البصير الذي وافاه الأجل المحتوم إثر نوبة قلبية مفاجئة نقلته الى دار الخلود مساء يوم الخميس ٢٢ / ١٠ / ١٩٨٧ ، وبوفاته فقد المجمع عضواً تميز بالخلق الفاضل ، والتفكير الرصين ، والعلم الغزير ، والاخلاص في الواجب .

ولد الفقيد في بغداد سنة ١٩٣٣ ، وأكمل فيها دراسته في المراحل الابتدائية والثانوية . ثم تابع دراسته في كلية الآداب بجامعة بغداد ، فحصل على إجازة البكالوريوس في اللغة العربية برتبة الشرف سنة ١٩٥٨ ، ثم حصل على شهادة الماجستير سنة ١٩٦٦ في رسالته عن « رسائل الإمام علي : دراسة أدبية » ، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ عن رسالته « المجازات القرآنية ومناهج بحثها : دراسة بلاغية نقدية » .

وعمل في التدريس في ثانوية السليمانية بضع سنوات .

وبعد حصوله على الدكتوراه ، تولى رئاسة قسم اللغة الكرديه في جامعة السليمانية، ثم رئيساً لقسم اللغة العربية. ثم عُيّن سنة ١٩٧٧ عميداً في كلية الآداب في جامعة السليمانية . وفي سنة ١٩٨٠ انتقل الى الجامعة المستنصرية في بغداد للتدريس في قسم اللغة العربية . ثم تفرغ في الجامعة المذكورة للتدريس في الدراسات العليا والإشراف على ما يعهد له من رسائل الماجستير والدكتوراه .

وفي سنة ١٩٧٩ عُيّن عضواً عاملا في المجمع العلمي العراقي .

وكان من أنشط الأعضاء في لجان هيئة اللغة الكردية في المجمع العلمي العراقي . فأسهم في إعداد معجم للغة الكردية ، وفي تثبيت الصلة بين

الكردية والعربية وتوثيقها ، وتصفية الكردية من الدخيل ، وكان عضواً في لجنة اللغة العربية في المجمع ، فأفاد اللجنة بأفقه الواسع ، وتفكيره السليم ، واخلاصه للمثل العلمية . ونشر أبحاثاً عن « الشاعر الكردي كامران » و « الترابط الفني بين العرب والأكراد في قضية الإخاء والإسلام » ، و « تطور تعليم اللغة العربية في منطقة الحكم الذاتي » ، و « مذكرات طالب في كردستان » . ونشر في اللغة الكردية دراسات عن المصطلح الكردي ، و « علم المجاز » ، و « الشيخ نوري الشيخ صالح » ، فضلا عن عدد من الكتب المدرسية . ونشر له المجمع العلمي العراقي أبحاثاً في « قضايا المرأة بين آيات قرآنية واتجاهات شعرية ، و « القرآن الكريم ومنهج صياغة المصطلح العربي » ، و « الإحالة والتقليد في النقد الأدبي الكردي » ، و « نقد نظرية الشعر » ، و « الأدب ومنهج بحثه » ، وكتاب « الصورة الفنية في البيان العربي » .

وتابع التدريس في الجامعات العراقية ، والإشراف على عدد من الطلبة في إعدادهم رسائل الماجستير والدكتوراه .

وتميز في مسيرة حياته بالنشاط والحيوية ، وحب العلم والحرص على الاستزادة منه ، مع نظرات عميقة وتفكير سليم وأفق واسع ، واتزانٍ في الدراسة والتصرف ، ورغبة صادقة في بذل العون لمن يطلبه .

لقد كان انتاج الفقيد كثيراً غنيا ، وسيبقى شاهدا على علمه وحرصه ، وكان أمامه إنتاج أغزر على إنتاجه لولا أن اخترمته المنون ونقلته الى الدار الآخرة.

رحم الله الدكتور كامل حسن البصير ، وأسكنه فسيح جناته ، وإنا لله وإنا اليه راجعون .

*

٢ ــ كلمة الدكتور جوامير مجيد سليم :

شهدت السنوات الأخيرة رحيل نخبة جليلة من زملائنا الأفاضل أعضاء المجمع . وهم : الدكتور أحمد سوسة ، والأستاذ طه باقر ، والدكتور فخري الدباغ ، والأستاذ موسى صمد ، والدكتور أحمد نا جي القيسي ، والدكتور جواد علي .

وها نحن اليوم نودع زميلنا المرحوم الدكتور كامل حسن البصير الذي وافاه الأجل مساء يوم الخميس ٢٢ - ١٠ - ١٩٨٧ إثر نوبة قلبية ، وهو لايزال في عنفوان نشاطه العلمي والأدبي وفي أوج عطائه الفكري .

ولد البصير من أسرة كردية متواضعة ببغداد سنة ١٩٣٣ . ودرس في مدارس بغداد . وبالرغم مما أصابه من بلاء بفقد بصره كان من الأوائل على القطر في الدراسة، حيث أكمل دراسته الثانوية سنة ١٩٥٣، وتابع بعد ذلك دراسته في كلية الآداب بجامعة بغداد ، وحصل على شهادة بكالوريوس آداب في اللغة العربية بمرتبة شرف ١٩٥٨ ، ومارس بعدها التدريس في ثانوية السليمانية لعدة سنوات الى أن التحق بالجامعة مرة أخرى . وحصل على شهادة الماجستير في الآدب العربي سنة ١٩٦٦ . ثم أوفد في بعثة علمية الى جمهورية مصر العربية حيث نال شهادة العالمية « الدكتوراه » بمرتبة شرف من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ عن رسالته الموسومة « المجازات القرآنية ومناهج بحثها: دراسة بلاغية ونقدية ».

تولى الفقيد بعد رجوعه الى الوطن رئاسة قسم اللغة الكردية في جامعة السليمانية . ثم تولى عمادة كلية الآداب في نفس الجامعة من سنة ١٩٧٧ الى سنة ١٩٨٠ حيث انتقل الى قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة المستنصرية . ومارس تدريس الدراسات الأولية والعليا ، وأشرف على رسائل طلبة الماجستير والدكتوراه . وقد تخرج على يديه عدد غير قليل من الطلبة ، ونال بعد ذلك مرتبة الأستاذية قبل نحو سنتين .

لقد كان الفقيد مدرساً ناجحاً . ومربياً فاضلا . وكان كتلة من الحيوية والنشاط بالرغم من وضعه الصحي وفقدانه البصر .

لقد اختير المرحوم عضواً عاملا في المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٧٩ ، وكان من أنشط أعضاء الهيئة الكردية في المجمع حيث كان مقرراً للجنتين في مجال اللغة الكردية وآدابها ، إضافة الى إسهامه في لجنة اللغة العربية في المجمع .

لقد فقدت الهيئة الكردية بشكل خاص أحد أبرز أعضائها حيث أسهم الفقيد في نشاطات الهيئة بكل نكران ذات وجهد متواصل ، وإن أعماله وإسهاماته في الإعداد لمعجم اللغة الكردية وتحقيق المخطوطات الكردية ونشره لعديد من المقالات في مجلة الهيئة والمجلات الكردية الأخرى ، وإصداره لعديد من المؤلفات ، تبين بوضوح مكانته العلمية الرفيعة بين الأدباء والمثقفين الأكراد .

كان الفقيد يتميز بأفقه الواسع وعلمه الغزير وتفكيره السليم واخلاصه للمثل العلمية العليا ، وكان موضع احترام وتقدير لدى زملائه ومن عرفه .

كان الدكتور البصير مؤمناً بحب الوطن ولغاته وآدابه ، فلهذا أحبه العرب والكرد ، وخدم اللغتين العربية والكردية من خلال مؤلفاته ومنشوراته ، واهتم بشكل خاص بالإملاء الموحد للغة الكردية . وتميز الفقيد في حياته بالنشاط والحيوية وحب العلم والحرص على الاستزادة منه ، مع اتزانه في الدراسة والتصرف ، ورغبة صادقة ومخلصة في بذل العون لمن يطلبه ، كان متواضعاً في علاقاته وفياً لزملائه وأحبائه .

إن رحيل زميلنا الدكتور كامل البصير ترك فراغاً كبيراً لنا خاصة بالنسبة الى الهيأة الكردية ، وإن ذكراه ستبقى خالدة في نفوسنا ، وإن نهجه سيبقى عوناً لنا في مسيرتنا . وإن الكلام ليعجز عن التعبير عن شعورنا بهذا المصاب ، ولايسعنا إلا أن ندعو له بالرحمة، ولذويه ولنا الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا اليه راجعون .

(٣)

الدكتور جابر عزيز الشكري

١ ـ كلمة رئيس المجمع الدكتور صالح أحمد العلي :

يعزّ عليّ أن يفقد المجمع العلمي العراقي عضوه العامل الدكتور جابر عزيز الشكري الذي انتقل الى الدار الآخرة مساء يوم الثلاثاء الأول من شهر كانون الأول ١٩٨٧ أثر مرض عضال عانى منه وصبر عليه ولم يفلح في علاجه نطس الأطباء . ونفذت في نهايته إرادة الله ، وقد خسر المجمع بفقده زميلا عزيزاً تميز بالعلم الغزير في جوانب متعددة ميادين المعرفه ، امتدت من اختصاصه في الكيمياء الى تاريخ العلوم العربية ، مع تعمق في اللغة العربية ودقائقها . وحرص على مدّ استعمالها لتواكب التطورات السريعة في ميادين العلوم الطبيعية ، وكان سخيا في تقديم حصيلة علمه لخدمة ثقافة الأمة . فأسهم إسهاماً جدياً واسعاً لسنوات طويلة في أعمال تعريب المصطلحات ، وفي نشر الدراسات والأبحاث في هذا الميدان الواسع الدقيق ، إضافةً الى ما نشره من أبحاث في تاريخ العلوم عــامة ، والكيمياء عند العرب خاصة .

ولد الفقيد سنة ١٩١٨ في الكوفة ، وتلقى فيهـــا دراسته الابتدائية والمتوسطة . ثم انتقل الى بغداد ، وتابع فيها الدراسة الإعدادية حتى سنة ١٩٣٨ ، ثم سافر ببعثة حكومية الى ألمانية وسويسرة . وحصل على « الدكتوراه » من جامعة زوريخ سنة ١٩٤٦ بعد أن تَلْمَذَ على العالم الكيميائي البارز بول كارير الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء .

وبعد إكمال دراسته عاد الى العراق ، وعين في دار المعلمين العالية في بغداد ، ثم شَغَل عدداً من المناصب في العراق ، فكان مديراً عاماً للمصرف الصناعي . ثم ملحقاً ثقافياً في سفارة الجمهورية العراقية في بون ، وفي جدة . ثم عاد الى العراق ، فتولى المديرية العامة للتعليم في وزارة التربية ، فمشرفاً تربوياً فيها ، ثم

عاد الى الجامعة باحثاً علمياً متفرغاً وأستاذاً للكيمياء ولمادة تاريخ العلم والحضارة العربية في كليتي العلوم والتربية الى أن أحيل على التقاعد سنة ١٩٨٣ .

وكانت صلته وثيقة في المجمع ، فكان عضواً مؤازراً فيه ، ثم عضواً عاملا فيه سنة ١٩٧٩ الى أن توفاه الله ، كما كان عضواً مؤازراً في مجمع اللغة العربية الأردني ، وعضواً في عدد من الجمعيات العلمية ، وشارك في مؤتمرات علمية ضمن اختصاصه في الكيمياء واهتمامه في التعريب وتاريخ العلوم العربية .

وأسهم في الإنتاج العلمي ، فترجم كتاباً في الكيمياء العضوية ، ونشر كتباً في « النفط والبتروكميائيات » و « الكيمياء عند العرب » و « تاريخ العلم اليوناني » كما نشر في مجلات علمية ، وفي مجلة المجمع العلمي العراقي مقالات في « الكيمياء التطبيقية في حضارة وادي الرافدين » ، و « المآثر العربية في دراسة المنتجات الطبيعية » و « المآثر العربية وأثرها في نشأة الحضارة الأوربية » ، و « المصطلح الكيميائي في التراث العربي » ، و « أبحاث في الكيمياء العضوية » ، و « النفط في التراث العربي » و « الجوانب الفنية في إخراج المخطوط العربي » .

كما نشر أبحاثاً أصيلة سجلت في الدوريات العالمية في الكيمياء العضوية وتبلغ نحو مئة مادة كيمائية .

وكان موئله في المجمع العلمي العراقي حيث قضى فيه سنوات طويلة عضواً مؤازراً ، فعضواً عاملا ، وشارك بجد ونشاط في تحقيق أغراضه العلمية بما قام به من أعمال في لجانه المختصة وفي ما يحال عليه من استفسارات ، وما يتقدم به لرفد المجلة بالدراسات والأبحاث ، إضافةً الى مشاركاته في كثير من اللجان والهيئات التي تعمل في تنظيم دراسة العلوم في المدارس والكليات ، وبما كان ينشره من كتب عامة أظهرت سعة اطلاعه ، وأنارت كثيراً مما غمض فأغنى المكتبة العربية ، وعمت فائدتها بين الناس .

ووسعت الأعمال الإدارية التي أسندت اليه آفاق اتصالاته في داخل العراق

وخارجه ، ونمّت خبراته . وزادت من اطلاعاته ، وصب ثمار كل ذلك في خدمة أمته وتوجيه تنظيماتها ، والعمل على تقدمها في السير على الطريق السليم من أجل الرقي والازدهار .

واتسمت تصرفاته طوال حياته بالجدية والاستقامة والتفكير السليم . والصدق في القول والعمل ، والدماثة في المعاملة ، ورغبة فطرية لإسداء العون لمن يطلبه ، وحرص على التعاون في أداء الواجب وخدمة الأمة ، وكل هذا عزز مكانته في قلوب إخوانه وزملائه ومعارفيه .

لقد ظل الفقيد الدكتور جابر الشكري مثابراً على العمل العلمي وبالروح الجدية السمحة طوال حياته ، ولم يعطله ما كان يعانيه في الأشهر الأخيرة من أمراض عن متابعة دراساته . وغرست أعماله وشمائله في قلوب زملائه ومعارفيه وللناس مكانة وطيدة وأثراً عميقاً تخلد ذكره .

نسأل الله العلي القدير أن يتغمده برحمته ، ويدخله فسيح جناته ، ويلهم أهله الصبر والسلوان ، وإنّا لله وإنّا اليه راجعون .

*

٢ ـ كلمة د. جلال محمد صالح عضو المجمع العامل :

كثيرون أولئك الذين يموتون في كل يوم وفي كل مكان . فيدبّ الحزن دائرة ضيقة حولهم قد تتسع لتشمل غير أهلهم الى أصدقائهم . أما الذين يموتون لتشمل دائرة الحزن شرائح واسعة من الناس فهم قلة دائما ، ولا سيما حين يكون هؤلاء الناس قمة الهرم العلمي والثقافي في المجتمع . واذا كان هذا يُذَكِّرنا بمصطفى جواد وغيره من علمائنا الراحلين رحمهم الله ، فهو يفرض نفسه اليوم من خلال فقيدنا الراحل « جابر الشكري » طيب الله ثراه .

لقد سمعنا وقرأنا عن أساطير البحث عن الخلود على نحوٍ مّا . على أن هذا محض خيال سعى إليه الإنسان وما وصل . فبقي الموتُ حقاً لرب العباد على العباد . ولا يبقى لهم إلا العمل الصالح يُبقيهم في ذمة التاريخ : كلٌ على حسب عمله إلى يوم الدين . وهو الخلود الحق الممكن لهذه الدنيا الزائلة . وحسبُنا بالمرحوم

الدكتور جابر رجلاً عمل بيديه قدر ما كان يقول أو يزيد .... إذ عرفتُه عن كَثَب زميلاً في قسم الكيمياء في كلية العلوم بجامعة بغداد ، حيث انضم إليه في أواسط السبعينات مُتَوِّجاً مُهِمّاته الإدارية الطويلة خارج الجامعة وكأنه بهذه العودة يقول : هذه نافذتي الحقة على الحياة .

كان هذا صعباً وشاقاً على رجل في أواخر العمر ، ولكنه بالمثابرة والعناء والصبر استطاع في مدة قصيرة التكييف للعمل العلمي الجامعي ومستلزماته من خلال :

(١) قيامه بتدريس مادة الكيمياء العضوية لطلبة الكيمياء في كليتي العلوم والتربية بجامعة بغداد ، ولو اكتفى لكفى . ولكن الرجل انفرد بتدريس مادة « تاريخ العلم » على أتم وجه والتي استحدثت في قسم الكيمياء بكلية العلوم خلال مناهج السبعينات على الرغم من قلة المصادر العلمية في هذا الموضوع ، وعمل من خلال هذا على إبراز تاريخ الكيمياء وتطوُّرها عند العرب وكأنه بذلك كان وفياً لجذوره العريقة بالعلماء العرب الذين ولدوا بالكوفة مثله . على أن مادة دراسية كهذه استهوته تعمقاً وتفرداً حتى دوَّنها من خلال جُزء مهم من كتاب منهجي بين أيدي طلبتنا اليوم شاهداً على مثابرته وفضله .

(٢) تفرده بالعمل في المختبر الى أواخر عمره بنفسه ، فصنَّع وحضَّر الكثير من المركبات الكيميائية العضوية على الرغم ممّا كان يكلفهُ هذا دائما من انتظار طويل صابر ومصابر عملاً متواصلاً ومراقبة متفحصة ، وعلى الرغم مما يعرض له من المخاطر التي تُرافق العمل المختبري عادة .

(٣) إشرافه على رسائل قسم من طلبة الدراسات العليا في مجال تخصصه وبحثه .

(٤) تمكنه من خلال عمله وإشرافه من تحضير بعض الأصباغ الكيميائية ، وتقدمه لتسجيلها كبراءة اختراع .

(٥) جهده ومواظبته وحبه للعمل من خلال المجمع العلمي العراقي منذ عام ١٩٧٩ ، اذ كان عوناً لنـــا في لجنـــة الكيمياء ، فكان يقوم رحمه الله بترجمة قسم من المصطلحات والمراجع التي كتبت باللغـة الألمـــانية ، إضافةً الى جمعه لمـــا تنتهي اليه اللجنة من مصطلحات والعمل على كتابتها في بطاقات ، ثم إعـــادة تدوينها في قوائم بحسب الأحرف الأبجدية ، وهو عمل يتثاقل منه شباب اليوم ، فصبر عليه شيوخُه . وهو ما تؤكده سيرته منذ أن انضم الى البعثـــة العراقية عام ١٩٣٨ لدراسة الكيمياء في ألمانيـــة ، فلم تثنه الحرب العالميـــة الثانية عن هدفه ، فانتقل الى سويسرة تلميذاً للأستاذ « بول كاريو » الحـــائز على جائزة نوبـل حتى حصل على الدكتوراه عام ١٩٤٦م . وعُيّن بعدها في دارالمعلمين العالية .

واذا كان المرحوم الدكتور جابر الشكري بكل هذا التاريخ الموجز والحافل قد سجل معرفته الدقيقة بالأصل الذي أراده الله للانسان على الأرض خليفة ، فكان علِمُه وعملُه عبادةً خالصة خلال تلك المعرفة ، فقد كان في الوقت نفسه صورة جلية الوضوح للآية القرآنية الكريمة (إنّما يخشى الله من عباده العلماءُ) .

أخيراً فان كفة الميزان في هذا كلّه لا تكاد ترجح الكفة الأُخرى الملأى بتواضعه المعهود وخُلُقه الجم ورقة عواطفه وعمق مشاعره مما يجعلنا نرفع يد الضراعة الى الله تعالى أن يعظم أجره ، ولله في خلقه شؤون ، والسلام عليكم .

*

الدكتور أحمد عبدالستار الجواري
في ذمة الخلود
(٤)
كلمة السيد رئيس المجمع الدكتور صالح أحمد العلي

بسم الله الرحمن الرحيم

كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام

ينعى المجمع العلمي العراقي عضوه العامل الدكتور احمد عبد الستار الجواري الذي وافته المنون اثر نوبة قلبية مفاجئة يوم ٢٢ - ١ - ١٩٨٨ وهو في طريقه لاداء صلاة الجمعة ، ونقلته الى الدار الاخرة ، وبوفاته فقد المجمع والامة والثقافة العربية الاصيلة علماً تميز بالجد في العمل والاخلاص في القول ، والعمق في التفكير ، والحرص على انماء الثقافة العربية الاسلامية الاصيلة وتعزيز مكانتها مع ايمان قلبي اصيل بهما واستقامة في الحياة ، وصراحة في القول ، ودماثة في المعاملة ، وحب الخير ، ووفاء وتسامح وتواضع .

ولد الفقيد سنة ١٩٢٤ م في مطلع محرم الحرام عام ١٣٤٤ هـ في الكرخ ببغداد من اسرة عرفت بالتقوى والورع والتمسك بالاخلاق العربية الاسلامية الاصيلة والصدق في المعاملة والتآزر عند الملمات فترعرع فيها متشبعاً بروحها ، مؤمناً بمثلها ، مقتدياً بها قولاً وعملاً سائراً على خطاها متابعاً لتقاليدها برصانة واتزان وجدية وثبات وصمود .

اتم الفقيد دراسته الابتدائية والثانوية في الكرخ مع اقرانه في المنطقة ، وفيهم كثير ممن شب على تقاليد الخلق العربي الاسلامي الاصيل والاخلاق والجدية ، وصارت لهم مكانة في المجتمع والادارة والثقافة .

ثم التحق بدار المعلمين العالية ليدرس فيها العربية وعلومها على يد اساتذتها الاجلاء امثال الاستاذ طه الراوي والدكتور محمد مهدي البصير والدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور زكي مبارك . ولم تفته خلالها فرصة متابعة الافادة من شيوخ بغداد في العلم من امثال الشيخ قاسم القيسي والحاج حمدي الاعظمي .

وبعد تخرجه بمرتبة الشرف من دار المعلمين العالية اوفد ببعثة علمية الى جامعة القاهرة فتابع دراسته على جهابذة العلم فيها ، ومنهم احمد امين . وعبدالوهاب عزام ، واحمد الشايب ومصطفى السقا وامين الخولي ، ووثق خلالها اتصالاته بعدد ممن كانت تزخر فيهم القاهرة من علماء العربية والبارزين من رجالات الامة وافذاذها ، وكان من زملائه في الدراسة عدد من اللامعين الذين تبوأوا مكانة مرموقة في الحياة الفكرية والسياسية .

وبعد ان حصل من جامعة القاهرة على الليسانس بامتياز سنة ١٩٤٥ . والماجستير بمرتبة الشرف سنة ١٩٤٧ ، والدكتوراه بمرتبة الشرف سنة ١٩٥٣ ، عاد الى بغداد للتدريس في دار المعلمين العالية وصار من ركائزها المعتمدة في العلم والتوجيه . ثم اشتغل أمداً في وزارة التربية وكان مديرا عاما فيها دون ان يقطع صلته بالتدريس او يتوقف عن القاء المحاضرات على طلبة العربية في كليات بغداد .

وعندما اجتاحت العراق عواصف السياسة العاتية بعد ثورة ١٤ تموز اسهم بما املاه عليه شعوره بالواجب الوطني في الانضمام بتياراتها للدفاع عن مكانة العروبة والاسلام وصيانتها بوجه المزعزعات . واتخذ من قطاع التعليم ميدانا لعمله . فعمل على بث روح الثبات عند المعلمين والمدرسين ، ولقي من ذلك شدائد تحملها بجلد وايمان لا يتزعزع ، واتسع اتصاله بالحياة العامة . وروابطه بمن هم على مشربه من رجالها ، وانتخب نقيبا للمعلمين في العراق سنة ١٩٦٢ . ورئيسا لاتحاد المعلمين العرب سنة ١٩٦٩ وتجدد انتخابه في رئاستها حتى نهاية سنة ١٩٨٢ ، ويسر له ذلك مجال العمل على تنظيم توجيههم على وفق الاسس التي آمن بها من العروبة والاسلام . وتبنى عددا من الاعمال التي استهدفت نشر العلم وتقدمه . ورفع سوية المدرسين وتيسير سبل الحياة ومجالاتها امامهم . وتولى عمادة كلية الشريعة سنة ١٩٦٣ .

وقدّر المسؤولون في العراق مواهبه واخلاصه وجديته،وعملوا على الافادة منها في خدمة البلاد والامة ، فتقربوا اليه وسمعوا منه ، وقبلوا توجيهاته ، واسندوا له المناصب العليا المنسجمة مع ميوله واتجاهاته ، فتولى وزارة التربية سنة ١٩٦٣ وسنة ١٩٧٥ ووزارة شؤون رئاسة الجمهورية سنة ١٩٧٠ ، ووزارة الاوقاف سنة ١٩٧٩ ، وعمل مديراً في وزارة التعليم العالي ، وقام بعدد من المهمات في البلاد العربية ، وحضر كثيرا من المؤتمرات ، واسهم في اعمالها ورسم توجيهاتها ، مما رفع مكانة العراق ووسع دوره ، وعزز مثله العليا في العروبة والاسلام ، وصارت له مكانة مرموقة ، وعلاقات وثيقة بقادة الفكر والتوجيه في مختلف اقطار الامة العربية والاقطار الاسلامية .

ولم تحجب هذه الاعمال الواسعة اهتمامه بالفكر والعلم ، ولم تقطع صلته بالحياة المجمعية ، فكان عضواً عاملا في المجمع العلمي العراقي ، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية ، وعضوا مراسلا ثم عضوا عاملا في مجمع اللغة العربية في القاهرة ، وعضوا مؤازراً في مجمع اللغة العربية في دمشق ومجمع اللغة العربية الاردني ، اضافة الى عضويته في عدد غير قليل من المؤسسات والجمعيات التي تعنى بالثقافة والفكر ، وحرص على المشاركة في جلسات المجامع والقاء المحاضرات فيها والاسهام في اعمالها وتحقيق منجزاتها ، واوفى علاقاته مع رجالها من جهابذة العلم واساطين الفكر .

وكان للمجمع العلمي العراقي النصيب الاوفى من خدماته ، فقد عمل على تعزيز مكانته وتوسيع دوره ، وحرص على حضور جلساته ، وشارك في لجانه المعنية بدراسة العربية والفكر وابدى فيها الاراء الصائبة ، والابحاث الرصينة ، وغذى مجلته بعدد من الدراسات القيمة (من دلائل التقدم في اللغة العربية) و « رأي في مصادر الافعال الثلاثية » و « حقيقة التضمين ووظيفة حروف الجر » و « الوصف » و « البيان » في قضايا النحو العربي » و « الوصف بالمصدر » و « الوصف بالجملة » و « ضروب الصفة » و « ضبط عين التعريف » بالاضافة الى اسهاماته الواسعة في اعداد مصطلحات علم الجراحة والتشريح والطب ، وعلم المياه ، وعلوم الحياة .

ونشر له المجمع اربعة كتب هي « نحو التيسير » (١٩٦٣) و « نحو القرآن » (١٩٧٤) و « نحو الفعل » (١٩٧٤) و « نحو المعاني » (١٩٨٧) اضافة الى كتبه في « الحب العذري » (١٩٤٨) و « الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري (١٩٥٦) و « المقرب لا بن عصفور » (١٩٧١) .

ان وفاته المفاجئة وهو في اوج نشاطه وعز عطائه ولدت فراغاً كبيراً يخفف عنه ما تركه من مخلدات الاثار ، وما غرسه في قلوب اخوانه ومعارفه ومقدري فضله من حب وتقدير ، فندعو الله العلي القدير ان يتغمده برحمته ويسكنه فسيح جناته ويلهم اهله الصبر والسلوان ، ويجعله في عداد من هم احياء عند ربهم يرزقون .

وانا لله وانا اليه راجعون ..

كلمة الدكتور محمود الجليلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

ان الرزء لعظيم والخطب لجليل بفقد علم من اعلام اللغة العربية ، كان من حسن توفيقي ان عملنا معاً منذ اكثر من عشرين سنة في اعداد المصطلحات الطبية والعلمية ، فكان العنصر الفعال في انتقاء الكلمة المناسبة ، واختيار الصيغة ذات الدلالة الواضحة والاشتقاق وفق قواعد اللغة الواسعة .

لقد تميّز الفقيد – رحمه الله – بادراك شامل للقواعد والاسس في النحو والصرف ، وقابلية كبيرة لتطبيق ذلك . لقد كان فهمه لتطور الحضارة والانسانية ، واطلاعه الواسع على لغة العلوم وخصائصها ومميزاتها وما تحتاجه من دقة ومعرفة أمراً عجباً عمل على الاستفادة منه ، لتتمكن الامة من مسايرة ركب الحضارة المسرع ، وليتمكن العاملون في حقول المعرفة الكثيرة والتقنيات المتقدمة التي تتطور بتسارع مذهل ، من الاستفادة من هذه الحقول ومن المساهمة فيها لتقدم البلاد والامة والانسانية جمعاء .

ولقد كانت مقدرته على التحليل والتركيب ، والاستنباط والاستنتاج . والاستفادة من هذا البحر الزاخر من اللغة العربية وصيغها امراً نادراً في هذا العصر . ومع احترامه الشديد للغة المدوّنة في معاجم اللغة ، الا انه رأى بقويّ بصره وثاقب بصيرته ان اللغة العربية قد تطورت على مرّ الازمان ، وان واجب اللغوي ان يثبّت ذلك وفق القواعد والاسس التي سجلها علماء اللغة ، لا ان يكون نسخة اخرى مشوّهة من معجم .

لا اريد ان ابحث في انجازاته الرائعة – رحمه الله – في النحو ، ولا في اهمية مؤلفاته ، ولا في الآراء التي اعجب بها الجميع في مؤتمرات مجمع

اللغة العربية في القاهرة ولا المناقشات التي كانت مثار الاهتمام في اجتماعات المجمع العلمي العراقي ، ولكن اريد ان اشير الى دوره المهم في وضع المعجم الطبي الموحَّد الذي استمر اعداده سبع سنوات من سنة ١٩٦٦ الى ١٩٧٣ ، وكان لي شرف رئاسة تحريره ، وشارك فيـه علماء افاضل من الاقطـار التي فيها كليات طب وطنية راسخة ، فكان اطلاعه الواسع على القواعد وكيفية الاستفادة منها ومعرفته باللغة الانكليزية وتحريه لاصل الكلمة فيها ، مع معرفة كبيرة بمفردات اللغة العربية ، مع عمل متواصل دقيق ، كل ذلك كان من اسباب انجاز المعجم الطبي الموحَّد ، والتوصل الى كلمة واحدة باللغة العربية مقابل المصطلح الانكليزي .

وكانت مشاركته فعّالة في اعداد مصطلحات التربية وعلم النفس منذ تكوينها .

وشارك في أعمال لجنة الطب وعلوم الحياة في المجمع العلمي العراقي ثماني سنوات ، وقد تمّ انجـاز اعداد كبيرة من مصطلحات علوم الحياة وعلم الحيوان وعام النبات .

وكان عضواً في الهيئة المجمعية التي عهد اليهـا بتدقيق المصطلحات التي تعدّها اللجان والتنسيق فيما بينها .

لقد ربطتنا صداقة تزيد على اربعين سنة ، وقد مرّت فيها صروف وظروف ولكن لم يشب هذه الصداقة المخلصة اي كدر في اي وقت . ان الاخلاق الفاضلة والتواضع الجّم واحتـرام النفس واحترام الغير كانت من اهم مميّزاته رحمه الله .

وبالاضافة الى انجازاته في مجالات متعددة ، كان له دور فعّال في انشاء الدراسات الجامعية في الموصل والبصرة سنة ١٩٦٣ .

لقد فقدت فيه الامة العربية علماً من الاعلام كان يعمل على توحيد لغتها العلمية وتقدمها .

وفقد فيه العراق احد رجالاته في اللغة والتربية .

وفقد فيه المجمع العلمي العراقي ومجمع اللغة العربية في القاهرة عضواً عاملا لا يمكن تعويضه ، جمع المعرفة الواسعة مع الخلق العظيم .

وفقدتُ فيه صديقاً وأخاً .

ويحضرني قول احمد شوقي في رثاء حافظ ابراهيم :

قد كنت اوثر ان تقول رثائي يامنصف الموتى من الاحياء

وانا لله وانا اليه راجعون ..

*

كلمة الدكتور جميل سعيد :

سيدي الاستاذ الدكتور رئيس المجمع العلمي العراقي

اخواني الزملاء السادة الكرام اعضاء المجمع

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

عرفت الزميل الصديق المرحوم الاستاذ الدكتور الجواري ، منذ اكثر من اربعين عاماً ، عرفته في دار عمي المرحوم الاستاذطه الراوي . كان الجواري يومذاك طالباً بدار المعلمين العالية ، وكان المرحوم الراوي استاذا فيها . وكان يزوره زيارة الطالب لأستاذه ، وكان المرحوم الراوي يهش لزيارته اذا حضر ، ويتحدث اليه حديث الاستاذ لتلميذه ، وحديث الأب لابنه . وكان يعاتبه عتاب الصديق حين يباعد مواعيد زيارته ، وكنت اراه لا يجد الردّ عليه الا بابتسامته الحلوة الممزوجة بالخجل عن الجواب وعن العذر .

وكان عمي يطيل الثناء عليه بعد انصرافه ، ويقول : هذا طالب اديب خلوق ، وسيكون — إن شاء الله — ممن يشار اليه في علمه وفي خلقه .

كنت يومذاك طالباً بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة . وانهيت الدراسة الجامعية الأولى ، وابتدأت بالتحضير للماجستير . وجاء الجواري الى مصر ، طالب بعثة ، للدراسة في كلية الآداب ، فالتقيت به هناك ، لقاء

الصديق تلقاه على غير موعد ، بعد ان تكون الأيام قد باعدتك عنه . وكان لا ينفك يحدثنا عن المرحوم الراوي ، وكأن صلته به لا تقل عن صلتنا به ، وكنت ارى فيه مايراه الناس في الزميل وفي الأخ والصديق .

كان — يرحمه الله — ورعاً تقياً ، وكان يحبّ ان يصلي صلاة الجمعة في الجامع الذي يقرأ فيه القارىء المشهور الشيخ محمد رفعت بدرب الجماميز وكنا كثيراً ما نتواعد اللقـاء هناك ، ونقضي امسية الجمعة معاً . وكنت احسّ بي بعض الأحيان ، بعطشى للقائه ، فاصبرّ نفسي الى مجييء الجمعة ، فأذهب الصلاة وللقائه هناك .

كنتَ احضّر رسالتي للدكتوراه مع استاذي المرحوم احمـد امين بك صاحب كتاب فجر الاسلام ، وضحى الإسلام ، وكان الجواري يحضّر رسالته للماجستير معه ، وكنّا نتواعد اللقاء في زيارته معاً ، وكان المرحوم احمد امين بك يُسَرّ بلقائنا ويفسح لنا صدره ومجلسه في السؤال عن العراق وعن بغداد . وقد يحدثنا عن بغداد في ماضيها ويسألنا عمّا هي عليه في حاضرها .

وانهينا الدراسة ، وعدنا زملاء في التدريس بدار المعلمين العالية ببغداد ، وظلت صلتنا تتوثق وتزداد على الأيام .

واختلفت بنا السبل ، وكنت اسافر للتدريس في الجامعات خارج العراق ، وكنت اسمع اخباره يتنقّل في وظائف الدولة الهامة العالية ، عميدا للكلية ، ومديراً للمعارف ووزيراً للمعارف . وكنّا لا نتقاطع ؛ اكتب له برقيّة في التهنئة فيرد عليّ ببرقيته يُعقبها برسالة طويلة يتحدث فيها حديث الصديق الودود الى صديقه الودود ...

كان — يرحمه الله — عجباً في سرعة الحفظ ، وفي قوة الذاكرة . كنت اسمع ما يقال عن المعرّي في قوة حافظته ، وكنت اشك في ما يقال ، حتى رأيته . سكن مع عائلة يونانية في القاهرة ، فصار بعد شهور من سكناه ،

يحادث اليونانيين بلغتهم . ومرَّ بنا مرة في مقهى بباب المعظّم ، ورجوناه ان يشارك في الجلوس ، وجلس وكان يبدو عليه القلق ، وسألناه ، فقال : إنه حضر الإحتفال الذي القى به الشاعر الجواهري قصيدة في تكريم الدكتور هاشم الوتري عميد كلية الطبّ ، واخذ الجواهري في شتم نوري السعيد، فهرب الناس من الحفل . وقرأ علينا نحو سبعة ابيات مما سمعه من القصيدة . وقد عجبنا لقوة ذاكرته وحفظه .

ومع انه كتب رسالته للماجستير في « الحب العذري » ورسالته للدكتوراه في الشعر في بغداد ؛ اقول مع ان رسالتيه كانتا في الأدب فقد رأى ان يتخصص في الكتابة والتدريس في النحو . وكان يقول لي ان المرحوم الراوي حبّب اليه دراسة النحو ، وقد الف فيه نحو المعاني ونحو القرآن ، وكان معروفا في جامعاتنا العربية بأنه من افاضل النحاة . وقد استدعته كلية الآداب بجامعة الامارات العربية المتحدة ، وكنت هناك ، مرتين للنظر في مناهج النحو ، ولمحاورة الأساتذة في بعض المشاكل النحويّة ، وكان محل العجب من الزملاء اعضاء قسم اللغة العربية المتخصصين بتدريس النحو .

كان – يرحمه الله – يتأنى ويجود فيما يؤلف . سأله بعض الأساتذة عن كتبه ، فعدّد له كتبه ، وبدا على وجه السائل انه استغلَّ عدد الكتب ... ومضينا ... فقال لي : كأن الأخ لم يبلغه خبر مسلم بن الوليد في حديثه الى ابي العتاهية في قوله : « والله ! لو كنت ارضى ان اقول مثل قولك لقلتُ في اليوم عشرة آلاف بيت » . وحدثني انه يعاود تلاوة القرآن الكريم ، وانه سيُخرج كتاباً فيما وجده فيه مما فات النحاة الأقدمين .

كنا نحضر لجنة الأصول في المجمع ، ونذهب بعد فراغنا منها الى غرفة صديقنا الاستاذ الدكتور رئيس المجمع ، وكان يعاتبه في انه لم يُفرد له غرفة خاصة به ، شأن الكثير من الزملاء الاخوان الأعضاء ، وكان يردّ عليه بما يشبه الإعتذار بقلّة عدد الغرف ، ويعده في ان يعمل على هذا ، ولم

يدر ان مكانه الذي ينتظره قد اعدّ له بمقبرة معروف الكرخي . « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ ارض تموت » . وحدّثت الاستاذ الدكتور رئيس المجمع بشأن كتاب لي طال بعثه في مطبعة المجمع ، فالتفت اليّ – يرحمه الله – وقال : سننزل سويّةً الى المطبعة ، واشار كالمستأذن للانصراف الى الوضوء لصلاة الظهر ، وكان تقياً ورعاً يحرص على اداء الصلاة في اوقاتها .

وكان – يرحمه الله – مع ورعه وتقاه وعفّة لسانه – عنيفاً اذا احسّ بما يقلّل من شأنه . او ينكر من جميله . سألته – ونحن في طريقنا الى المطبعة – عن زميل كنت اعرف له الأيادي علية ، فقال لي : فلان قليل الوفاء ، فقلتُ كالمعتذر لفلان هذا : « إن الدنيا شواغل » كما يقول اخواننا اهل مصر ، فاحتدّ وزاد . وهو يبتسم ابتسامة المغضب : أنسيتَ قولة الجاحظ التي كنتَ تردّدها ، ونحن بحضرة استاذنا المرحوم احمد امين ، عن ابراهيم النظّام ! : « كان ابراهيم قليل الزّيْغ » وقوله : « وانا اقول قليل الزيغ . كما تقول : فلان قليل الحياء وانت تعني : الا حياء عنده » .

ووقفنا في المطبعة . ولم نجد من له علم بخبر الكتاب ، فقال : سأستوضح الأمر . واتصل بك غداً او بعده ..

كان هذا كلّه يوم الثلاثاء . ورن جرس الهاتف في دارنا يوم الجمعة . فإذا المتحدث السيد عبدالملك الأعظمي يحييني ، وكأن العبرة تخنقه ، وهو يقول : الأستاذ الدكتور الجواري .. وحسبته سيقول لي شيئاً عن الكتاب ، فإذا به ينعاه إليّ . لقد مادت الأرض بي . وانعقد لساني ، وتصبّب جسمي عرقا . ولم استطع الحديث ولا الوقوف .

يرحمك الله ابا محمد ، ويرحم مجاوريك في قبرك . وتغمدّك الله برحمته ورضوانه . وجعلك من الذين قال سبحانه فيهم : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربّهم بايمانهم . تجري من تحتهم الأنهار في جنّات

النعيم ، دعواهم فيها سبحانك اللهمّ ، وتحيّتهم فيها سلام » والهمنا والهم ذويك جميل الصبر فيك ، وقد — والله — حز في نفوسنا وقلوبنا فقدك ، لقد اختُطفتَ من بيننا اختطافاً لا نجدك لأنفسنا عزاءً فيه ، الا ترديد قوله تعالى : « لكل امةٍ اجل » و « لكل أجلٍ كتاب » « وإنا لله وإنا اليه راجعون » .

وإني إن اسلوك أو ادع الأسى فباليأس اسلو عنك لا بالتجلُّد

*

كلمة الدكتور نوري حمودي القيسي :

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

السيد رئيس المجمع العلمي المحترم

السادة اعضاء المجمع العلمي الافاضل . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اما بعد فان الموت حق ، والفناء واقع والدنيا ذاهبة وان احقّ من تعزّى واولى من تأسىّ من تنجّز من الله وعده وفَهِمَ من كتابه أمرّه واخلص له نفسه واعترف له بما هو أهله .. وقد اختار الموت من هذه الرفقة صفوة ، وآثر ان يحترَم من بيننا — على قرب — أحبّة ، نُوَدِّعُ الغائبين وهم حضور ، ونستذكر سيرَهم وهم معنا في كُلّ مرة حتى اذا حان الحَين وازفتْ ساعة الفراق كانوا مع الذين اختارهم الله الى جواره فانا لله وانا اليه راجعون .

وما الدهر والأيام الإ كمــا ترى
رَزّيةُ مــالٍ او فراقُ حبيبٍ

فالالتماس بما وَعَدَ الله من ثوابه يكون بالتسليم لقضائه . . والانتهاء الى أمره فان ما فات غير مُستدَرك وما ذهب غيرُ عائد والبقاء لله وّحده فهو الحي الباقي ..

لكُلّ اجتماعٍ من خليلين فُرقــةٌ
وكُلّ الذي دون الممات فقليــلُ

وان افتقادي واحداً بعد واحـــد
دليلٌ على أن لا يدومَ خليـــــل

وهكذا ودّعنا فخري وموسى والقيسي وجواد وكامل وجابر . واليوم نعودُ لنؤبن الدكتور الجواري .... نودعُه وهم بيننا كما كانوا يستمعون لما نقولُه بحقّهم من ثناء بعد أن ودعوا الحياة وهم يفيضون عطاءً ويجودون علماً ويواصلون البحث فرحمهم الله برحمته وانعم عليهم بما هم أهل له .. بعد أن سلكوا الطريق الذي يمر منه البشر الى عالم الخلود والرحمة . ودنيا العمل الصالح والخلود الذي تستقر فيه النفوس وديعة مطمئنة ..

علي أيِّ نعي تُستجادُ الهَــوامِلُ
وسود المنايا داميات نــوازلُ
لهـــا كُلَّ يومٍ وقعــةٌ تستثيرها
فيهــوي لهـــا طودٌ وتُردى معاقِل
وتَدمى قلــوبٌ أرّقتَهـــا فواجعٌ
وتبلى ضــلوعُ اثقلتهـــا الغــوائل
وتبكي دمــاً عينٌ تقرّح جفنُهـــا
هَمَتْ بالنجيع الوردِ منهـــا المسايل
هـو الموتُ كأسُ يرشف الناسُ وردهُ
وكُلُّ امريء من رشفةِ الكأس ناهِلُ

. . .

عذيري إذا كان الشجا يبعث الشجا
دليلُ السُّرى تطويه نُجْبٌ رواحلُ
مشت وقلوبُ الواهيــن تحفّهـــا
وعزّ الليالي ترتجيــه القــوافــل

وعمر السنا يهفو على غير مَوْعِـدٍ
وفيه مِنَ الضـوء المشعِّ دلائـل
وصوتُ الرجا يُطوى وآيـاتُ عزِّهِ
تردّدهـا في جانبيهـا المحافـل
عجبتُ لهـذا الدهر كيف تتابَعت
علينا عواديه وهُنَّ طوائـــل
سَعَتْ والردى يَطوي خطاها سريعة
ونحن حيارى كيف تسعى المقاتِـل
نعلِّلُها في كُلِّ حينَ تَعِلَّـةً
وتقصرُ كفُّ العُذر عمـا نحـاول
ولكننا نلوي الحديـث بقـولنـا
والناس أقدار بهـا ومَنَازِلُ
عذيري ابا أروى فمـازال ذكركم
تُردّده في خافقينـا الشـمائـل
نذرتَ لها نفساً وصُنْتَ امـانـةً
يُعَزُّ بها في الذكريـات الامـائل
وخُضْتَ دروبَ العزّ تحدوك نخوةٌ
يَجِدُّ بها من صولة العـزم باسِل
فتىً انبعث في راحتيه مَكارِمٌ
يباركُها صبر وعِـلمٌ ونائـل
فأورثَها طلابَـه النُجت شيمةٍ
يطول بِها ذكرٌ وتسمو مَحـافِـل
بها يُستطاب الذكرُ حمداً وسؤدداً
وتكْبُرُ فيهـا للرجـال فضائـل

* * *

عذَيري أبا اروى إذا فاض دَمعنُا

وريعت قلوبٌ واستُثيرت دَواخِل

وقيل الذي يبكي له كُلُّ مـدمعٍ

وناحتْ به من شجوهِنَّ الثواكـل

فما رَدَّ دمعٌ غـائباً بعـد غيبـةٍ

وما حيلَ بين الموت ــ ان حَلَّ ــ حائل

ولكنْ امانات تُـودُّ لأهلهـــا

وكُلُّ امريءٍ رهنٌ بما هو فـاعـل

عليك سلامُ الله ما ذَرَّ شارقٌ

وقيلت احاديثٌ وطابت فضـائـل

مطبوعات المجمع العلمي العراقي

اعدها مدير المكتبة السيد صباح ياسين

لعام ١٩٧٨

الكتاب	المؤلف / المحقق
١ ـ العباب الزاخر واللباب الفاخر حـ١ للصاغاني	تحقيق ڤير = فير محمد حسن
٢ ـ معجم لغات القبائل والامصار حـ١	الدكتور جميل سعيد والدكتور داود سلوم
٣ ـ معجم لغات القبائل والامصار جـ٢	الدكتور جميل سعيد والدكتور داود سلوم
٤ ـ سيبويه امام النحاة	الاستاذ كوركيس عواد
٥ ـ الفتح الوامض عن المنح الفائض علم الفرائض	الشيخ عمر الشهير بابن القرداغي
٦ ـ كتاب المولودين ـ لحنين بن اسحق	تحقيق الدكتور يوسف حبي
٧ ـ طريق الكمال الفه باللغة السريانية مار فيلوكسينوس المنبجي (ت ٥٢٢م)	
٨ ـ مأساة عتليا جان راسين	ترجمة ابراهيم عبسو
٩ ـ المروج النزهية في اداب اللغة الآرامية	القس يعقوب اوجين منا الكلداني

١٩٧٩

الكتاب	المؤلف / المحقق
١ ـ المعجم الموحد للمصطلحات العلمية في مراحل التعليم العام ـ مصطلحات الرياضيات	
٢ ـ المعجم الطبي الموحد اتحاد الاطباء العرب .	
٣ ـ قواعد اللغة الكردية	الدكتور عبدالرحمن معروف

١٩٨٠

الكتاب	المؤلف / المحقق
١ ـ مخطوطات المجمع العلمي العراقي حـ١	ميخائيل عواد
٢ ـ الراعي النميري	تحقيق الدكتور نوري القيسي وهلال ناجي
٣ ـ مذكرات مأمون بك بن بيكه بك	نقله الى العربية جميل روزبياني وشكور مصطفى
٤ ـ شعراء الكرد (باللغة الكردية)	صادق بهاءالدين عاميدي
٥ ـ كنز اللسن المكنوز فيه ستة السن واثنا عشر فنا	احمد فائز البرزنجي
٦ ـ مجموعة اشعار الفقيه قادري هماوند (باللغة الكردية)	عبدالكريم المدرس، فاتح عبدالكريم

٧ ــ كشكول تراث الادب الكردى (باللغة الكردية)	محمد علي القرداغي
٨ ــ اسم لبطلي رواية تراجيديةفيالادب الكردي (باللغة الكردية)	شكور مصطفى

١٩٨١

١ ــ مخطوطات المجمع العلمي العراقي حـ٢	ميخائيل عواد
٢ ــ مخطوطات المجمع العلمي العراقي حـ٣	ميخائيل عواد
٣ ــ فهارس الرقيقات	ابراهيم خورشيد ارسلان
٤ ــ تكملة خريدة القصر وجريدة العصر	الاستاذ محمد بهجة الاثري
٥ ــ ذرائع العصبيات وحملات نادر شاه	الاستاذ محمد بهجة الاثري
٦ ــ علم الترادف المعنوي (باللغة الكردية)	الدكتور كامل حسن البصير
٧ ــ فهارس المخطوطات السريانية في العراق ج٢	لجنة في المجمع

١٩٨٢

١ ــ مصادر التراث العسكري عند العرب حـ١	كوركيس عواد
٢ ــ مصادر التراث العسكري عند العرب حـ٢	كوركيس عواد
٣ ــ مصادر التراث العسكري عند العرب حـ٣	كوركيس عواد
٤ ــ تاريخ الموصل حـ١	سعيد الديوهچي
٥ ــ شعراء امويون حـ٣	الدكتور نوري حمودي القيسي
٦ ــ مصطلحات علمية (فيزياء علم الاحياء ، الهندسة المدنية ، الري والبزل ، علم الغابات ، علم النفس والامراض العقلية)	
٧ ــ شخصيات كتاب الاغاني	الدكتور داود سلوم والدكتور نوري حمودي القيسي
٨ ــ الارقام العربية : نشأتها وتطورها	الشيخ محمد حسن آل ياسين

١٩٨٣

١ ــ الشوارد في اللغة للصاغاني	تحقيق الدكتور عدنان الدوري
٢ ــ معجم المصطلحات البلاغية حـ١	الدكتور احمد مطلوب
٣ ــ ذكرى العظماء ج٢ (باللغة الكردية)	الشيخ عبدالكريم المدرس

٤ ــ حياة المرأة الكردية (باللغة الكردية) — عزيز كردي
٥ ــ النقد ، التاريخ والمنهج (باللغة الكردية) — الدكتور كامل حسن البصير
٦ ــ مجلس الادباء (باللغة الكردية) — امين فيضي بك
٧ ــ تواريخ سريانية من القرن ٧ ــ ٩م — نقل وتحقيق الدكتور يوسف حبي

١٩٨٤

١ ــ خطط بغداد في العهود العباسية الاولى جـ٢ — ترجمة الدكتور صالح احمد العلي
٢ ــ اطراف بغداد جـ١ — ترجمة الدكتور صالح احمد العلي
٣ ــ خطط بغداد في القرن الخامس الهجري جـ٣ — ترجمة الدكتور صالح احمد العلي
٤ ــ التذكرة الفخرية ــ عبدالوهاب بن منصور الشامي — تحقيق الدكتور نوري القيسي وحاتم الضامن
٥ ــ نحو التيسير — الدكتور احمد عبدالستار الجواري
٦ ــ مصطلحات علمية (فيزياء نووية ، كيمياء تحليلية ، علم الحيوان ، هندسة مدنية ، المراعي ، التربية) .
٧ ــ مصطلحات كردية — لجنة من المجمع
٨ ــ الميرزا عبدالقادر (باللغة الكردية) — محمد امين هورماني
٩ ــ اللغة القومية الكردية — الدكتور كامل حسن البصير

١٩٨٥

١ ــ بغداد مدينة السلام جـ١ — الدكتور صالح احمد العلي
٢ ــ بغداد مدينة السلام جـ٢ — الدكتور صالح احمد العلي
٣ ــ التوفيق للتلفيق ــ للثعالبي — هلال ناجي والدكتور زهير غازي زاهد
٤ ــ اسماء خيل العرب وفرسانها — الدكتور نوري حمودي القيسي وحاتم الضامن
٥ ــ مصطلحات علمية (الرياضيات ، علم الحيوان ، علم التربة ، التربية ، علم النفس والطب النفسي) .
٦ ــ بعض المواضيع المشكلة في قواعد اللغة الكردية — لجنة من المجمع

١٩٨٦

١ ــ معجم المصطلحات البلاغية جـ٢ — الدكتور احمد مطلوب
٢ ــ خطط البصرة ومنطقتها — الدكتور صالح احمد العلي

٣ ــ خطط بغداد وانهار العراق القديمة — مكسمليان شتريك ترجمة الدكتور خالد اسماعيل علي
٤ ــ معجم النبات والزراعة — الشيخ محمد حسن آل ياسين
٥ ــ مصادر النباتات الطبية عند العرب — كوركيس عواد
٦ ــ مصطلحات علمية ــ الكيمياء الفيزيائية ، الكيمياء التحليلية ، النبات ، الهندسة المدنية ، البستنة .
٧ ــ فهرس المؤلفين لعبديشوع الصوباوي جـ١ — تحقيق الدكتور يوسف حبي
٨ ــ فهرس المؤلفين لعبديشوع الصوباوي جـ٢ — تحقيق الدكتور يوسف حبي

١٩٨٧

١ ــ دقائق التصريف — تحقيق الدكتور احمدناجي القيسي ود. حاتم الضامن ود. حسين تورال .
٢ ــ ديوان عدي بن الرقاع العاملي — تحقيق الدكتور نوري القيسي ود. حاتم الضامن
٣ ــ نحو المعاني — الدكتور احمدعبدالستار الجواري
٤ ــ معجم المصطلحات البلاغية جـ٣ — الدكتور احمد مطلوب
٥ ــ بناء الصورة الفنية في البيان العربي — د. كامل حسن البصير
٦ ــ بغداد في الشعر العربي — الاستاذ جمال الدين الالوسي
٧ ــ الادوية والادواء — الدكتور هاشم طه شلاش
٨ ــ مصطلحات علمية : الرياضيات المتقدمة ، الفيزياء العامة ، الهندسة المدنية ، مصطلحات البستنة .
٩ ــ ندوة الاملاء الكردية (باللغة الكردية) — لجنة من المجمع

الفهرس

الصفحة

تابين الراحلين من اعضـاء المجمع

سعر النسخة دينار ونصف
وتضاف اليها اجرة البريـد

(تدفع قيمة الاشتراك سلفاً)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٨٧

JOURNAL
of the
IRAQ ACADEMY





Volume 39

Part (1)

PUBLISHED BY

THE IRAQ ACADEMY

BAGHDAD

1988